جيلالي إلليلة

العسل المرّ

منشورات الشهاب

العسل المرّ

© منشورات الشهاب 2016
ردمك : 978-9947-39-217-1
الإيداع القانوني : السداسي الثاني، 2016

بقـايـا ليلـــة حبـــر

« وبعـد...

بين قلم أحمر لم أعهد مصاحبته وقلمي المألوف هذا، شبّت حرائق أوقدتها فوضى تشاجر صامت فصل في المبادَرة بخط هذه السّطور... بعد معاناة امتدّت فيها فجوة مخاصمتي لروحي العنيدة التي أبت الحكم على نفسي إلّا بالجور الدّنيء، مع الإجهاش في صمت والنشيج في خوف، منذ اليوم الذي شهد فيه أشهى لسان تحتويه أشهى شفاه، أن ريح لساني أصبح لا يفوح إلا فحشا ذا طعم غير مستساغ... لا رائحة فيه ولا لذّة تعلوه، جفّت منابع لعابه وطفت طبائع تكسوها قذارة الكلمات... بعد عمر من السّكنى في قعر حبر هذا اللسان، ومنذ العمر الذي انطوى بكل آلامه وآماله وبكل ما فيه من سعة وضيق ومن وحشة وضجر، ها هو ذا يصنّف في خانته التي ليس منها.

أدّبتني تلك المحاكمة التي تساهل فيها القاضي معي وأمر في حكمه - الذي لم تراعى فيه دفوعي النّحيلة - بشقّ فوريّ لصدري بطعنات لسانك « النّابيّة »، مخترقة كرامة حبي وبساطتي الرّعناء وصراحتي الهاذية واشتياقي الجارف ودعاباتي الساذجة، فأعقر في

صميمي كل دميم كنت أستبيحه لنفسي المغرورة الجاهلة لواجبها الصّرف، المنغمسة في حبّك الزائف...

تذكّرت رغم عدم قدرتي على النّسيان، أنّني إنسان في جوفه قلب يدقّ حتى إذا منع عنه الأكل والشّرب، لا يرى، لكنه يبصر عندما تخنقه حبال الوصال المشدودة إلى طرف خفيّ، لا يبكي إلا صامتا ولا يدافع إلا إذا أعدم النّبض.

في كل عيد مأتم يشهده قلبي، وفي كل مأتم يشهد قلبي عرسا، معك انعكست أقداري... لست أعلم، أهي علامات التناقض الساخر المتمرّد على قوانين المنطق والطبيعة ؟ أم أنّ الشّعراء والأدباء والعشّاق هم وحدهم من يملكون القدرة على مخالفة الطبيعة ومغازلة القدر وهو في أوج لحظات انتفاضه ليقضي وطره من معاكسه ؟

لدى مروري بأوراقي، ولّما سبحت في حبر أقلامي، وحينما جلست في عتمة الليل العابس أرسمك ككل مساء - بريشة خيالي - وأنت في أبهى وأشهى صورك الفاتنة، مكتحلة لتتسع عيناك المبرقتان كنجم السّماء عندما يغازل القمر، يبادله التّغامز والقبلات المرسلة على أجنحة النّسيم العليل... عندما ينتهي بدرا ينير بضوئه - الداني إلى الأرض يقبّلها - درب العاشقين المتخفّين بلحاف سواد الليل هروبا إلى مآربهم وشهواتهم ودور عشقهم وهيامهم... عندما يعلو وجنتيك الدائرتين المنتفختين حياءً اقتُطِفَت حمرته من ألوان قوس قزح فامتزجت لونا ورديا فاتحا أبهى من زهر الأقحوان والياسمين عندما ينفتح في عزّ الرّبيع، فيبهر نزلاء البساتين وروّاد الغيطان والحقول، يجتلب إليه أنظارهم وأفئدتهم بسحر جماله وريحه الأرجّ، وعندما تعبرين شفتيك الحمراوين قليل ريق يزيدهما تفتّحا وشهية وحمرة، فتكتمل تلك الصورة البهيّة

لأنثى مغمورة بالحب والشوق... عندما تعلوها بسمتك – القاصّة لكل أشواقي – الشارحة لوجنتيك... هناك... هناك فقط... حين أتممتُ رسمك في جوف الليل الساكن... سألت...

بعين العقل سألتك... ومازلت أسأل بلا كلل...

عن عمري الذي ضاع بلاك...

عن عمرك الذي ضاع بعيدا عنّي...

عن صِدقٍ عشته في السّر... وعن كذبة أعيشها في العلن...

عن غربة شابَ فيها رأسي وقلمي وحَنَتْ ظهري للأسى، وآوتكِ وطوتكِ عن كل الجمال الذي يسكنك... فما رضيت فيه إلا باسمك...

عن كلّ هذا... وبكثير من الغرور الذي يهجم على نفسي فيملؤها روحا وريحا ويسحبها لتعيش في الماضي القريب، في ذكراه التي شاءت الأقدار أن أرتضي السّكن في ثناياها، مطمئنّا لها، غير آبه بالحاضر الذي تهتز في سريرتي أنفاسه مخنوقة، يطير عني نوره وينجلي... يغرب عنّي فجره كل صباح وكل مساء، في أيام ليس لي فيها أي عنوان، كأوراق من دفتر حياتي، لا أدوّن فيها أيّ حرف على سبيل الاستدلال... أو شهادة تذكّرني يوما أنّي عشتها حقّا.

فبين حنين إلى لذّة ولّت، وألم حالّ، وحبّ يحتضر يقاسي أنين الفراق، وقفتُ متسمّرا غير مؤمن بلذّة توارت خلف ألم، ولا بحبّ يهاب المنون الذي لم يهزم حبا قط، كافرا بكلّ الطّقوس المقدّمة للغفران...

أهي ثورة أقلام ؟ أم انتفاضة مشاعر ؟...

أهو غرور شبابي ؟ أم نزوة عابرة لطيش مراهق ؟...

أهي حلقة افتقدتِها بكرا وترتجينها ثكلى حبيب ؟؟؟

يكفيك حضوري هناك حيث أنت مستلقية، على الطريقة التي تحبّذينها كما لم يقترفها أيّ عاشق قبلي...

يا لهذا الوزير ! إنّه كاللّسان، يداوي ويجرح، يبني ويهدم، يرسم ويمحو، يجبر ويكسر، يرتّب ويبعثر، يحيي ويميت في جرّة واحدة... فيجعلني أعيش غرور عاشق خائب يبكي ضاحكا عندما يلامس دمعه شطآن شفاهه... يمشي حافي الوجدان على زجاج مشاعر كسّرها في الغروب أسى النّدم الجانح، وزمجرات الوحدة الكاسحة في سكون الليل... يطقطق أمشاط حظّه العثر، مرتّلا أفكارا متناقضات بين صقيع الخلوة ونار الشّوق وثلوج الخوف... في دوّامة شاحبة الأحاسيس، طائشة المرام... آمنها في غفلة ووهن على نزواته فأسلمته عبدا مشدود الوثاق إلى شهواته، ساخرا من كلّ النّساء، خاشعا أمام روايات العشّاق، سابحا في بحر التّيه، تتجاذبه تيارات الحيرة الجوفاء والغيرة الحارقة... غير آبه بواقعه المرير الذي تفضحه فروق شاسعات لا حصر لها... أذابتها حرارة الأجساد واجتثّتها من أجندة حقيقة الأحلام وحلاوة الأماني... لا يجد سلّما ينتشله من قعر هذا الجبّ، ولا ترياقا لعلّته يطبّه، غير عابئ بما خلّفته من شرخ في عقيدته وإيمانه... لا يهتدي إلى سبيل راجح... عدا تأمّل أوراقه البيضاء التي لا تبكي ولا تبتسم ولا تتنفّس... فهي المشتاقة إلى قلمه في ولاء وإخلاص... إنّها تشتهيه وتتوق إلى لقاء قريب يكتبها فيه ليجعل لها اسما وعنوانا.

تعلّمتُ أن الحبّ كالإنسان : جسد تسكنه روح، فإن فارقت الرّوح الجسد غدا جثّة مآلها حفرة بإحدى أجداث الشّعاب، وإلى الخلد مآل الرّوح في الدّار الآخرة سكناها... كذلك الحبّ جسد به روح، إنّه نفس يتردّد على القلب كوميض نجم يتسرّب إلى الفؤاد ويستقرّ، لينمو ويزهو على نبع الهيام والغرام، هذا الشعور الذي لا يتوقّف عن الارتقاء والنّماء، يحيا على الدّوام لا يعرف اليقينُ له طريقا... يندمل وتجفّ ينابيعه بالأيّام إذا شجّته الأقدار، كما تدبّ فيه الحياة

من جديد إذا شارف على الهلاك، كأنّه يستمدّ حياته من مماته... يقتات بعذاب مساجينه وعبيده من العاشقين... يستعيد شبابه من شيب الرّؤوس وتجاعيد الجلود وانحناءات الظّهور... يجدّد إيمانه من ردّة معتنقيه...

أهو جدل جانب منطق الطبيعة، لا اجتهاد فيه ؟... أم أنّه الجنون ؟... أو هو ذاك... بعينه ؟؟؟

اختزلت كلّ النّساء بما رأيته منك، رغم قلّة حيلتي وقصور مراسي وصغر سنّي... لكنّي خبرت فيك مزاج الإناث، فألفيتهنّ من قالب واحد لبّهنّ، هنّ في الجسد ذات الصّورة... لذّة واحدة... وطر واحد... وفي قلوبهنّ لكلّ رجل وجه ووصف وحسّ وصفحة خاصّة، كما تعلّمت من حالتي أنّ الرّجال هم كذلك... لذلك قيل : « الطّيور على أشكالها تقع ».

من أجل هذا وزيادة، اختلفنا يا سيّدتي في عديد المناحي، وما جمعتنا الظروف هكذا إلّا لأنّنا اختلفنا ؛ وما دمنا كذلك فلا ضير إن افترقنا فراق غير وامق. نلنا ما نلنا من بعضنا، وآن لنا الالتفات لشمس الواقع بعيدا عن كفر ليل الأحلام والأماني...

لقد درّبتِني كيف أقتات بجسدي في أجساد النّساء وعقولهن وأرتشف حاجتي من ميل قلوبهنّ، لكني - والحمد لله - كنت واعيا أن روحي لا تسعها إلا روحك، فتبدّت في أجساد كلّ النساء روحك وصرتِ كلّ نساء روحي ؛ لذا عزفت بروحي عن كلّ النساء، فليست كلّ أجساد النّساء تسكنها روحك. هذا الكتاب وما احتوى من قرار قلسٍ على ما جال بيننا وبنا زمنا، لن يرضيك مهما كنت سخيّا معكِ في الإعراب عمّا يخالج خلدي... فكم ناجيت في حالكات اللّيالي السّكون أقبّل نسماته، أكسر بالسّهر سهدي،

سابحا في فضاء السّماء، مستغرقا التّدبّر والتفكّر، ملجما بظلمة الدّرب وقفره وعربدة القمر... نتسامر... نتبادل أطراف الحنين والشّوق إليكِ والهيام والتفكّر فيك حيث أنت ماكثة هناك في شقّتك... تقابلين سكينة كسكينتي... وفيما يتسلّل نور قمري من تحت رداء نافذتك، تحدّين روحي بدمع دافئ يشعل فتيل شهوتك تارة، وتارة أخرى يسكب عليك ثلج الوحدة وحرارة الشّوق ولوعة البعاد...

إنّي أفضّل استراق أخبار النّسيان في أحلامي لأفرّ من حياتي – البائسة اليائسة – إليك، أفرّ من غيرتي عليك لأشفق على نفسي محتميا بوفائك لحبي، فأرضخ طوعا لإشاراتك – مجتهدا غير مقصّر – بما أوتيت مما تشتهينه وتحبذينه. صدّقت غروري لحظات قصيرة تكفّلت في عددها القليل بإحضاري روحا وجسدا بين ذراعيك لأقبل وبكلّ فخر الموت على صدرك... وبَس !

عذرا إن قلت فحشا وبذاءة بقلمي، فإنّه يصبح ساذجا جدّا عندما أُلين معاملتي له، فلا ينفكّ يتآمر معكِ على معاكسة ورقي والانطلاق في التّحرّش بها على سبيل تقبيل روحك الزّكيّة وترتيب سريره الدّافئ بين جوانحي ليكتمل عناقنا ونسعد بحرارته ونتلذّذ بشهوة التّيه معا في هذه الليلة الصّيفية السّاخنة من 13 أوت 2014 على الساعة 30 : 03 صباحا... لكن تجري رياحي بما لا تشتهيه سفنك، لذا خذيها منّي نصيحة أخوية : ارحلي عن ساحتي الجرداء وابحثي لك عن ربّان أصلح منّي وأنسب... والسّلام.

المخلص... مراد ».

****

صوت الدّيك يؤذن بانجلاء الليل. يستفيق مراد من غيبوبته الكئيبة، يطرح قلمه – المرهق لسانه – على كتف مكتبه البنّي، بعد تحمّله عناء الرّقص ليلا كاملا على أوتار مشاعره، ممتطيا أوراق كراسة بالية التحفها اصفرار الذّبول من طول انتظار قبلات هذا القلم الذي عجّت ثناياها بحبره، كريح اشتدت بأرض جدباء مغبرّة تسوق إليها سحبا صيّبا... وغير بعيد عن هذا القلم الذي انفلت من أسر أنامل مراد، في الزاوية اليمنى من المكتب، تنحني ثريّا تبعث نورها الباهت الشاحب على سفحه.

مدّد رأسه ساجدا على أوراقه المبعثرة فوق مكتبه، إنه يحاول إفراغ أرق ليلة ليلاء ليخرج منها صافي الوفاض لا يخالجه ضجر أو حيرة أو ندم على ما هو بصدد الإقدام عليه من فصل في قضيته المدلهمّة، قضية حبه البالي حاضره، المستحيل مستقبله، القابع ماضيه بين أضلعه.

يخلد إلى وساوسه، يستمع إلى أنفاسه علّه يطرد عنه ضجر الطنين المتزايد أزيزا في دماغه، يميل بطرفه متنبها إلى مشية مترنحة تعزفها أنامل منبّه منسيّ في الزاوية الأخرى من مكتبه.

إنها الثالثة وأربعون دقيقة صباحا. عمر الليل في فصل الصيف قصير دائما، لكنه شاق في مسيره ببقايا لفحات الشمس التي تستكين بجدران البيوت وسطوحها وبكل ما تلمسه نهارا، وما يزيد الشقاء والعناء في لياليها أسراب البعوض الهاذي في حركته الدؤوبة حول مصباح الثريّا، مرتويا بالدّور المتواتر من جسم مراد في لسعات تبقى علاماتها الحمراء على جذع كتفيه وذراعيه العاريتين لفترة غير قصيرة.

في وقت عصيب كهذا من الصيف المشارف على الأفول، المعتصر لفكر مراد والشاغل لكل حياته، ليس للسعات البعوض ولا لبقايا لفحات الشمس سلطان عليه، فجزعه الذي قيّض نومه ووأد نشوة الهجوع الهنيء من جفنيه لا يقدّر في أهميته وعمق مراميه بلدغة بعوضة أو حرارة الجو، أو حتى أن يهديه إلى الوعي أين هو قابع وماذا يدور حوله.

مازال يدور ويدور برأسه حول لا شيء، لا ماضيَ يُلتمس، ولا حاضرَ يجدِّد الحياة، ولا حياةَ يرتجيها غدا...

فجأة انتفض، انقضّ على أوراق كراسته يستجمعها دون نظر إليها أو تفحّص لسليمها من سقيمها... استوت مصطفة بين يديه، فجرّها إلى درج مكتبه الذي فتحه ليرميها بداخله ثم أوصده. يا لهذه الأوراق المسكينة ! إنها صامتة هامدة، كأنها تحسّ بحاله وتقدّر سلوكه هذا فتقدّم له الأعذار على ذلك... كأنها ارتضت سجنها على أن يطويها موج النسيان في سلّة مهملات أو أن تهوي منساقة إلى رحمة عود ثقاب أو لسان ولاعة.

– كان حبي زائفا، نعم... وناقصا... إنه أعرج الأساس، أعور الرؤى، نحيل الشعور، بارد الهدف، لافح الشهوة، كئيب الفؤاد، عابس الطرف، مظلم الحلم، قصير العمر، طويل الأمل... كيف لي آمنت أني كنت أعيش الحب ؟! أهو طيش الشباب ؟ أهي نزوات شهوتي الجارفة ؟ أهو من قبيل سحر المظاهر ما أوصلني لهذه الحالة ؟... أم هي اختبارات القدر ؟؟؟

أسئلة تناولها عقل مراد فجأة، ليستطرد قائلا في صمت :

– ماذا اتبعت في طريقي غير حلمي مسيرا ؟ وغير هواي دليلا ؟

– الهوى... ! وما الهوى ؟ وما الحب ؟

– أنا لم أعرف للحب نصيبا في السعادة... إن لي في التعاسة أوفر حظ... لا أستطيع تحمل عناء المشي وراء هواي... لكنني صُيّرت عبدا لحبّي فألجمني بلجام الطمع والنفاق... زمّني إلى وتد من الحسرة والوحدة... فهل فات الأوان ؟؟؟ أم حان وقت انتشال روحي من براثن الضياع ؟؟؟

– يا مراد... غرّتك نفسك فجرفتك حاجتك لمن سمّيته حبيبي، فارتميت في غفلة منك بعيدا في أغوار أرض قاحلة بائر لا تبشّر بعيش بشر أو شجر ولا تحمي من الهلاك بين ثنايا طوب أو حجر !!

واصل حواره مع شيطانه، يؤنّب نفسه تارة، وتارة أخرى يمنّيها مزيّنا قبيح أفعالها، يروي له قرينه شريطا من الأحلام يسلّيه... يشيّد له جسورا تعبر أنهارا من الدّعة، فمروجا مبسوطة محفوفة بالورود خضرة الجنان دانية ظلالها، مذللة قطوفها... بينما هو مقبل على سريره الحديدي الهرم ذي الفراش الممزقة أطرافه، تطلّ منه كومات صوف منتوفة يبدو من بعضها رأس نابض يعرب بصمت صريح عن سوء حالته وفاقة صاحبه.

تمادى شيطانه اللعين يراوده ويحادثه في خلده، بينما هو ممدد الجسم على سريره قائلا :

– آه لو يتحقق حلمي، خطوة واحدة وأطير إلى أفق الأغنياء والسعداء، سأجني مالا وفيرا في فترة وجيزة جدا... كل من وصلوا إلى هناك نجحوا... يا لحظهم السعيد !

– لو أنني أتمكن، أصل فقط وسأتفنن في الجدّ... سنة واحدة أو سنتان تكفيني، سأحقق أحلامي كلها وأضرب بالفقر وقهره

عرض الحائط وأدوسه بنعلي وألعنه شر لعنة... ستكون لي سيارة فاخرة، لا يهمني ثمنها فالمال موجود، الأورو مرتفع ومازال يرتفع، 100 أورو بـ 15000 دج... واحسب يا مراد، هاهاها...

– أجل... البيت الواسع ضروري، سأرحل عن هذا القفص وألعن ما عانيته فيه، سأغير مجرى حياتي كلها وسآخذ أمي، سأعوضها عيشتها البائسة... سأرسلها لتأدية عمرة، لا لا لا... حَجّة، حجّة أفضل فهي المسكينة تستحق كل الخير نظير كفاحها من أجلي وأختيّ. سيكون لي بيتي، بيت واسع بمحاذاة الطريق الرئيسي في الشارع الكبير، طابقه الأرضي ثلاثة مرائب... أربعة أفضل، أحدها كراج (مرأب) لسيارتي... سأقتل الفقر وأنحر الفاقة التي لم تفارقني قط، سأرمي عني كل هذا العناء البالي الذي ابتليت به، وسأبحث عن شريكة لحياتي، بكر صغيرة جميلة ومتعلمة، لا أريدها أن تعمل... نعم... أريدها ماكثة بالبيت تهتم بتربية أولادي، سأتزوج وأبني أسرة وأرتاح من عناء الدنيا... بعد أن أضمن مستقبلي... هذا هو الأساس، نعم هذا هو الأساس. يا سلام !!!

وراح يرسم بخياله جنته التي زيّنها شيطانه اللعين على أنغام صوت أذان الفجر الذي انبعث من بعيد، وإذا به يزداد حلمه حدة مع قول المؤذن : « الصلاة خير من النوم »، ليستدير مراد على بطنه ويضع وسادته فوق رأسه ويلفها بذراعيه الطويلتين حتى لا يتسلل أي صوت إلى أذنيه ؛ وضعية يشتهيها شيطانه حتى يبول برويّة في أذنيه فيملأهما صمما عن نداء ربّ العالمين.

****

ساعة بؤس حاضرة من الماضي

تأتي شمس الصّيف محمّلة دوما بحرارتها اللّافحة مع أشعّة الصّباح التي تنثرها عبر أيّ منفذ، وسرير مراد ماكث بزاوية لا تصلها نيرانها الحارقة صيفا لتقرضه، إلا ظهرا، حينما تنبعث ألسنتها – عبر ثقوب نافذته الشرقية مخترقة حجابها القطني الخشن – اللاهثة إلى عرين الغرفة في سخرية وكبرياء وهيمنة لتقييض نومه، أما نورها الساطع، فيلجها باكرا مع الخيوط الأولى للفجر، غير أن الوسادة الخشنة التي تعاني تسلط رأس مراد وذراعيه، تضمن له – من جملة خدماتها الجليلة – ظلمة قاتمة دائما، تعينه على الرسم بريشة خياله ما يشاء من ملذات الحياة في جوه المنسيّ الذي يتمناه بصحبة القرين الدّاعم لنفسه الراكنة إلى الفجور بما لذّ من آمال...

أحلامه لا تربو أن تكون ذات هدف واحد هو القضاء على الفقر واستئصاله من حياته التعيسة، فيجنح بنفسه على الدوام إلى الانطواء والانزواء بعيدا عن أي صخب، محبذا الوحدة سبيلا لاختلائه بلفّتين أو ثلاثة من سيجارة محشوة بالحشيش، عادة سقيمة بذيئة اعتادها منذ أسبوعين على الأكثر إذ اجترحها عليه صاحب سوء جمعته به مرامي متشابهة لمستقبل واحد. بنفخه سيجاراته أصبح مراد يرى الدنيا جنّة فيسترسل في بناء قصور

الأماني والتقلب في الملذات التي يرنو إليها كل شاب في عمره الذي دنا من 28 ربيعا.

مازالت تأثيرات ما تعاطاه مساء الأمس من حشيش (مخدرات) يريه الدنيا مقلوبة رأسا على عقب، يحس صداعا أثقل رأسه، يحاول النهوض ممسكا بأطراف جدار غرفته الذي ساقه إلى بابها الموصد ليفتحه متجها صوب الحمّام فيغسل عنه آثار الأرق ويتفطن إلى ما حوله... فإذا بأمه تصبّح عليه، رأته ممسكا برأسه يشده إليه من هول صداع ألمّ به لكثرة خموله الممزوج بحرارة الغرفة والفِراش، زادتهما لفحة الشمس، التي قضمت جزءا من جسمه العاري، نوعا من التعب والإرهاق.

– صباح الخير، أو مساء الخير يا بني... مالك نهضت على غير عادتك ؟ خيرا إن شاء الله، هل أنت مريض أم بك سوء ؟؟

رد مراد في غير مبالاة لما تقوله والدته :

– امـمم... لا شيء... اتركيني لحالي...

– ربّنا يهديك يا بني... أضافت الأم والحسرة والأسى على حال ابنها مرتسمة وبادية على وجهها السّمح.

هذه الحال التي تراها والدته – وهي مكتوفة الأيدي – تسوء يوما بعد يوم بسبب عدم تمكنه من شغل أية وظيفة ابتغاها أو سعى وراءها، فعدم تمكنه من تسوية وضعيته تجاه الخدمة الوطنية – الوثيقة المطلوبة في كل ملف للتوظيف – منذ أن تخرج من الجامعة بدبلوم ليسانس في العلوم الاقتصادية لما يربو عن ثلاث سنوات، حال دون بلوغه هدفه الوظيفي، فتستذكر في كل مرة تقف عليه شاردا حانقا وناقما على حظه، ما عانته من مرارة وضيق وكدر حتى أردته

رجلا كأبيه، فملامح شريك حياتها مرتسمة على وحيدها ؛ قامته الطويلة، جسمه الممتلئ، هامته الواقفة، وجهه الأبيض الذي تكسو وجنتيه حمرة، كتفاه العريضتان، مع شعره الأسود القاتم وشاربه المنحوت فوق شفتيه بتناسق وتناغم زاده رجولة وفحولة، ناهيك عن عينيه الواسعتين ذات الرموش الممشوطة والحاجبين الغزيرين في غير كثافة ولا غلظة...

****

المسكينة يراودها تجشمها كل مرة، مما كابدته بسبب أخ زوجها بعد وفاته – لما يزيد عن 25 سنة – أين كان مراد يناهز عامه الثالث من عمره، ذلك العام الذي غدر فيه الطريق ببعلها إثر حادث أليم (حيث دهسته سيارة يقودها شخص متهور قيل لها أنه سكير لاذ بالفرار) ساق إليه منيّته على عجل، في ظل قصور يد المحققين في القضية من رجال الشرطة عن بلوغ القاتل.

رحل عنها زوجها مرغما على حين غرّة، محمولا على الأكتاف إلى مثواه الأخير وهي في ريعان شبابها ملتحفة الوحدة ملقية على كاهلها ترملها وأولادها خديجة ومريم والصغير مراد.

جمالها الأخّاذ الموقد لشهوة أي ناظر، كان نقمة عليها، لما أشعل من فتيل رغبة ماجنة في قلب أخ زوجها الفقيد، الذي مارس عليها كل أنواع الإغراء والهبة والعناية المادية بادئ الأمر، ليراودها عن نفسها مرارا وتكرارا، وساومها على شرفها جهارا نهارا عساها ترضخ لنزواته بالوقوع معه في الخطيئة الكبرى، مقابل تمكينها من ميراث زوجها المقدر بـ 15 هكتارا من الأرض التي كان يمتلكها، وإعالة أبنائها الثلاثة.

هذه المنهجية الخبيثة التي انتهجها حموها، أوقدت في فؤاد زوجته نار الغيرة منها والحنق عليها، لاسيما أنها اطّلعت على مدى شغف زوجها بجمالها، فكانت تسترق السمع وتختلس النظر حاسرة حظّها الأعرج مع رجل شغوف بالنساء، غير مبال بأنوثتها الواهنة، حاقدة على السعادة التي كانت تغمر غريمتها مع حميها في حياته، فراحت ترصدها بكل ما أوتيت من وسيلة، إلى أن ضبطت زوجها الشره رجسا يتحرش بها بينما الأرملة جاثية على قصعة غسيل تعصر آثار الأدران عن ثياب صغارها ؛ فافتعلت ضدها مؤامرة حاكتها مع شريكها باتهامها في أوساط العائلة بالزنا ومحاولتها إغواء بعلها والاستيلاء على عقله.

ما كان هناك من حلّ تجمع عليه العائلة أمرها، سوى إبعاد الكنّة وتشييعها إلى بيت عائلتها مطرودة، وبلغ أهلَها الخبرُ الخطير المذاع عبر ألسنة النمّامين والفتّانين من الأقرباء - بإيعاز من زوجة حميها -، فأنكرت عليها ما اقترفت ونبذتها مقررة رجمها لغسل العار، فيما اكتفت مدافعة عن نفسها بسيول من الدموع البريئة، إلى أن أدركتها شفاعة أبنائها التي حلّت عليها، مسلمة زمام أمرها للزمان علّه يكشف المستور يوما ويصدح بالحقيقة التي غلبها الواقع المزيّف. لاذت مكسورة الجناح، فرارا إلى ضريح وليّ صالح كائن في طرف المدينة محتمية بسور بنايته التي لم يبقَ منها إلا أنصاف أسوار وشبه سقف من قرميد مشقق بعضه وبعضه مهشّم تستعمره أصناف الحشرات والديدان والزواحف والجرذان... تغزوه النسمات القارسة وقطرات المطر محدثة سيولا جارفة بباحته إذا شبّ الشتاء أو جنت عليه رياح الخريف بعواصفها الضروس، وإذا سنحت سحب السماء العابرات لأشعة شمس الصيف بولوجه لافحة فتعدم بأرجائه الهواء.

أطلال هذا الضريح تحاذي مقبرة المدينة أين ينعم بعلها في رحابها الساكن الهادئ، جاورته وأبناءها علّها تعنى برعايته وحمايته، طامعة في سلواه، يتجاذب صغارها أطراف جلبابها الأسود البالي إذا بكت على رأس قبره وانتحبت تعاستها بعد فراقه... وجدت في جواره الأمان، وفي قاطني الأجداث احتراما ووقارا لم تعهدهما بين أهلها وأهل زوجها.

استسلمت لأمرها، مشمرة على السواعد، ترمي عن نفسها بردة الركون إلى البيت، غير متبرجة بزينة، متلفعة بجلابيتها السوداء الرثة محتجبة بخمارها المتهرئ - اللذين لم يحولا دون تبيان محاسنها ومغريات جسمها الفطرية لفرط جمالها - فطلّقت الدنيا معتمدة على نفسها لطلب لقمة الحلال برغم إغراءات الطامعين في جسدها الأبيض الممشوق، فامتهنت الكنس والطبخ والتنظيف، مقابل سخاء يسد ريق صغارها وجوعهم، عازمة بالتوكل على الله العلي القدير، على تسخير نفسها وجهدها لتحقيق أماني زوجها في أبنائه بتعليمهم وتربيتهم أحسن تربية حتى يتقلدوا المراتب العليا ؛ فإلى جانب التعليم المدرسي والجدّ في طلب العلم، راحت الأم تدفع ببنتيها وصغيرها مراد إلى المدرسة القرآنية بالمسجد الكبير للبلدية، فتلقنوا القرآن الكريم وحفظوا منه ما تيسر لهم، كما تعلموا نيفا من أصول الدين الإسلامي الأولى كأركان الإيمان والإسلام، مع تعلم الوضوء وكيفية الصلاة، والنهل من التعاليم الدينية المنصبة حول سيرة سيد الخلق وسننه ؛ فتطبّع الأولاد برفيع الأخلاق وبرزوا مع مر الأيام والشهور في الدراسة، حتى غدوا بين أقرانهم مثالا يحتذى بهم، ومضربا لحميد الخصال وحسن السيرة والسلوك.

بقلب مستنير مستبشر بوعد الرحمن الرحيم : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وبإيمان موقن بقول رسوله الكريم ﷺ : « لا ينقطع الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة »، فقد نالت هذه الأرملة ثمار صبرها ووقارها وحشمتها، بأن قيّض لها الله تعالى أحد الخيّرين من أهل بلدية « تاج الجنة » (مكان إقامتها وعملها)، الذي توسط لدى السلطات المحلية، فمنحتها وظيفة منظفة بالعيادة الطبية، كفلت عيلتها وسدت حاجتها، كما أعدمت نوايا الطامعين والمتوسمين فيها الفسق والفجور.

هذا الصبر الذي دامت أجنحته تظلها تحت أطلال الضريح لما يربو عن السنتين بجوار أهالي الأجداث، أتاها بساعة الفرج حين مُنحت بيتا ذا ثلاث غرف في حي شعبي بوسط البلدية، سترها مخاطر حيوان الإنس والدواب، وقسوة الصيف والشتاء.

ها هي تعيش منذ سنتين ونصف مع مراد بعدما زَفّت بنتيها إلى شابين من أقرانهما، فالكبرى خديجة أنجبت منذ ثلاثة أشهر وليدها الأول، ومريم حامل في شهرها الرابع، زارتها آخر مرة منذ أسبوعين فهي تقيم بالبلدية المجاورة التي تبعد عنها بسبعة كيلومترات فقط، أما خديجة فيبعد مسكنها عن أمها بـ 150 كلم، ولم ترها منذ ستّة أشهر، لكنها تكلمها بالهاتف على الدوام، تسلّيها وتنقل إليها أخبار حياتها الزوجية وتستقي منها الأنباء عن شقيقها.

توجهت الأم مباشرة إلى المطبخ لتحضر قهوة الصباح لمراد. برنامج ارتشاف قهوته الصباحية تغيّر فجأة منذ أيام قلائل، فهو يمتد أحيانا إلى ما بعد الزوال عندما تبلغ الشمس كبد السماء.

****

مشوار صبـــح الـــزوال

« الأزمة تلد الهمّة والعيلة تكسب الحيلة »

مراد يواجه صورته في مرآة الحمّام الملبّدة بضباب باهت ينبئ عن عمرها المديد ومعانقتها الطويلة للجدار وسأمها من مقابلة هذا الوجه العابس كل يوم... يعود ليحادث نفسه وجها لوجه، كأنه يبادل شخصه التحية الصباحية، ثم يناقشه قليلا حول مشروعه اليومي... لكنه لا يفتأ يرفع رأسه الثقيل بفعل السهرة الطويلة وبقايا الكيف (المخدّر) الذي لم ينقشع بعد، عيناه تتلألآن، تتسعان تارة لتمتلئا بنور الصباح، ثم تجفلان أحيانا أخرى مثقلتين متعبتين من كثرة التأمل في الأحلام وفضائها الفسيح.

الماء يترقرق في الطست البلاستيكي، يملأ مراد منه كفيه ويصفع به خديه، يغمر وجهه كاملا، كأنه يحرّض غرفة الماء على بقايا النّعاس العالقة بجفنيه لطردها فيصحو ويقابل واقعه ويومه بصفح جديد، ثم يكنسها بكفي يديه فينتعش، يزيد من هجمات الماء يحرضها ضد وجهه، ثم يمدد أصابعه المبتلة لتبلغ شعره الأسود الحريري فيصطف تحتها كجند يؤدون التحية النظامية لقائدهم، وبعدها يأخذ منشفته المهترئة لتجفيف خديه ووجنتيه قائلا في نفسه :

– تُرى هل استفاق حمزة أم أنه لا يزال نائما كعادته ؟

ثم صاح بأعلى صوته مخاطبا والدته :

- كم الساعة ؟؟

- الثانية والنصف ظهرا.

أجابت الأم باقتضاب ولهجة فيها من الفزع والعجز عن مجاراته في الحديث، خشية نهرها أو رميها بكلمة قد تجرح خاطرها، فتنقم كعادتها على حظها العثر من عاقبتها التي تراها مشؤومة، فهي التي لم تحلم يوما أو حدث أن رأت في كوابيسها أن يؤول مستقبل ابنها إلى هذه الحالة المزرية التي لا تبشّر بغد منير له.

صرخ فيها الشاب :

- لِمَ لَمْ توقظيني باكرا ؟؟ أنتِ دائما هكذا، لا تعرفين إلا الكلام الفارغ والولولة على رأسي حتى تتخلصي مني ! ألا تعرفين أني على موعد هام مع حمزة ؟

وواصل بغضب محتدم في لهجة سافرة صاخبة الصوت :

- ألم تسمعيني أحادثه بالأمس هاتفيا عن موضوع لقائنا هذا الصباح ؟؟

- يا بني... لقد طرقت عليك باب الغرفة أكثر من سبع مرات، لكنك لم تجبني وكنت غاطا في نومك العميق كعادتك... إنها سهراتك التي لا تنفك تبارحها حتى اصفر وجهك ودانت حالتك ووهنت صحتك...

- لا شأن لك بي وبصحتي، كفى هراءً... أيامي معدودات معك وسوف ترتاحين مني قريبا وتهنئين ببيتك لوحدك...

- ماذا تقول يا عزيزي ؟! البيت بيتك، هنائي سعادتك وراحتي فرحتك !

ثم راحت مسترسلة في الحديث، رانية كسب مودته واستلطافه نوعا ما، غير أنه كعادته زاد من عناده، يتأفف ممتعضا وهو يهمّ بالولوج إلى غرفته مواربا بابها ليرتدي ثيابه.

بعد هنيهة انتصب أمام باب المطبخ واقفا في حزم، مؤتزرا سرواله الجينز أزرق اللون وقميصه الصّيفي البني القاتم، منتعلا حذاءه الأسود المدبب الرأس اللامع من فرط المسح، مداريا عينيه بنظارته السوداء، حاملا في يمينه هاتفه الخلوي، تعلو وجنتيه حمرة حنق وغضب من لا شيء، فيما انحنت أمه على صينية القهوة تجهز له فنجانا منها ليحتسيه، متلافية النظر إليه.

- تلزمني 200 دينار جزائري.

- لم يتبق لي إلا 150 دج يا بني... (ردت الأم).

- هاتيها وكفى تذمّرا، سأعيدها لك غدا.

- ومن أين لك أن تمدّني بها وأنت بلا عمل ؟

قالت الأم هذه الجملة بصوت خفيض وهي تمد يدها صوب عنقها ثم أغرقتها بين ثدييها، لتقف على صرّة صغيرة من منديل، أخرجتها من جحرها السرّي الدافئ وفتحت عقدتها. تقرب منها مراد ووثب عليها خاطفا ما بيدها، فبقيت الأم بلا حراك متوسلة أن يترك لها ثمن الخبز والحليب.

أخذ مائة دينار وترك لها خمسين رماها أرضا ملفوفة بمنديلها الذي كان بديل خزنة تحفظ قروش خبز وحليب وبيض، فمازال يومان كاملان على موعد صبّ راتب تقاعدها الزهيد الذي لا يكاد يسد حاجتها وابنها.

****

انصرف مراد دون سلام، مواربا وراءه باب مسكنهم بقوة تعرب عن سخط وغضب من غير سبب... لا مقاومة ترتجى من هذا الباب الذي انسدل مخلفا زوبعة من الأصوات رددتها أسوار البيت الفارغة غرفه من الأثاث إلا ما لزم الأم وابنها من فراش رث لا يقوى على مقاومة قرّ الشتاء.

نزل سلّم العمارة التي يقطنها وانزلق من بابها الخارجي يسارع الخطى، وأمّه ترمقه من نافذة المطبخ داعية له متضرعة لكل صالح من الأولياء الذين تعرفهم أن يحفّوه ببركاتهم، وأن يسدد الله تعالى خطاه وأن يرعاه ويغنم من سعيه، حتى توارى عن أنظارها بين أزقة الحي المقابل للعمارة.

انتهى به الطريق المنحدر إلى باب مقهى الحاج فرّاح المقابل لمكتب البلدية في الشارع الرئيسي المحاذي للطريق العام، فوقف هنيهة متأملا الوافدين إلى المقهى، الذي يُعدّ قبلة الشاردين من فئات الشباب لاسيما البطالين منهم، لأناقته وحسن ترتيبه ودعابة عامله « عزوز القهوجي ».

– صباح الخير مراد...

ابتدر عزوز تحية مراد حين دخل عليه المقهى ناشرا أنظاره في زواياها الباهتة النور، وعند الطاولة المواراة خلف مبسط السلع (Comptoir)، رمق عزيزا جالسا إلى قهوة تصحب سيجارة.

– صباح النور، ألحقني بقهوة قليلة السكر وكأس ماء.

– حالا، تفضل بالجلوس.

استل مراد كرسيا يشده من أعلى ظهره وجرّه إلى الخلف ليستند عليه جالسا، طارحا نظارته وهاتفه الخلوي فوق ظهر الطاولة، مسلّما على صاحبه عزيز بمصافحة يصحبها سلام أصدقاء.

– كيف الحال ؟ (قال عزيز).

– لا بأس، لكني في ارتياب من أمر حمزة، كان عليه أن يكلمني هذا الصباح، غير أنه لم يفعل وهاتفه الخلوي مقفل.

– لا تقلق، إنه يسعى من أجلنا على قدم وساق، أظن أنه سيتمّ اليوم الفصل في الأمر مع "مروان الحوّات".

– أتظن ذلك ؟

– أكيد، وهل عندك شك في قدرات حمزة ؟

– لا لا، بالعكس، لكن مروان الحوّات هذا لا يؤتمن شره، وأحسبه يخيس بنا، ففي هذا الزمان كثرت المطامع والوعود الكاذبة يا صديقي، وأصبح الناس يفعلون أي شيء من أجل المال ولا تهمهم كلمة يحرصون عليها ولا وعد يقطعونه على أنفسهم، وإني – أمانةً – لا أرى مروان الحوّات إلا أحد هؤلاء المحتالين.

– لا أشك أبدا في حمزة ومعارف حمزة، أكيد أن مروان الحوّات سكير وصاحب هوى وليس له ما يخسره، ولا يحمل أدنى همّ من الدنيا إلا سعيه لتدبر قنينة نبيذ يروي بها ظمأ فسقه وفجوره، يعيش بها نشوة دنياه الخاوية الجوفاء في ثنايا شاطئ المرسى، إلا أنني تقفيته من طريق ابن خالتي المقيم هناك والعامل بالميناء الذي حدثني عن مواقفه الرجولية ومدى صونه لوعوده، فكلمته كالرصاصة إذا خرجت فلن تعود، كما علمت أنه سبق وأن قام بهذه المهمة مرتين من قبل، وهو يعرف البحر جيدا وله به عهد قديم.

– سننتظر إذن ونرى إن كان قد صدق أم كان من الكاذبين، وما سيأتينا من هذا « الكيلو » (عربيد يعيش عالة على المجتمع في ثمالة دائمة).

– لا تقلق يا صديقي، واسْعَ لتدبير ما بقي لك على رحلة العمر إلى جنة الاغتراب.

– نعم ذكّرتني، إني أهمّ بتدبر خطة جهنمية ستكفل لي تحصيل المبلغ المتبقي وفوقه مصاريف ستكفي لأسابيع هناك.

– كيف يكون هذا أيها الحذق ؟؟ دلني على سرّك ولن أعدك إلا بالكتمان.

– هههههههه...

قهقه مراد مجيبا في إيماءة بتفطنه لمكر صديقه الساعي مجتهدا للولوج إلى مخططه بغية كشف سره في تدبر السبعين ألف دينار (سبعة ملايين سنتيم)، لأنه دفع لحمزة خمسة ملايين وبقيت سبعة على إتمام ثمن تذكرته وتأشيرتـه.

عند باب المقهى اندفع صوت ضجيج من الخارج، صاحَبَته زعقة لِعزوز القهوجي، تخللتها قهقهات مجلجلة كأنها من ثمل شقّ سكون الليل وهدوءه ببهرجته ؛ إنه عادل ابن حسّون سمسار السيارات.

– أهلا بكم يا شباب ! (حيّا عادل صاحبيه مشيرا بيده عاليا).

– وبك يا عادل.

ردّ عزيز، فيما التزم مراد الصمت ملتمسا تقبيل فنجان قهوته مرتشفا تارة ومداعبا أخرى سيجارة كان قد أوقدها في الحين، وإذا بهاتفه يرنّ... رقم محجوب.

– ألو، من معي ؟

– حمزة، أين أنت ؟

- في المقهى، وأنت ؟

- سأحكي لك في المساء، هل عزيز معك ؟

- نعم، ولِمَ ؟

- سله أن يتدبر حاجة سهرتنا في الموعد المعتاد، لا تنسَ أن تكون حاضرا بالنقود الليلة يا مراد.

- سأحاول...

- لا تقل محاولة، إنها فرصتك الأخيرة وإلا فسـ...

قاطعه مراد قائلا :

- لا لا لا... سأوافيك بها في حينها، أقسم لك.

انتهت المكالمة، همّ مراد بالنهوض في عجلة وقد تلبدت ملامح وجهه التي بدت رحبة أول الأمر.

- ماذا هناك ؟ (سأل عزيز).

- لا شيء، سأكلمك هاتفيا بعد ساعتين.

فهم عزيز أن مراد يتحاشى الحديث أمام عادل المعروف في أوساطهم بثرثرته وسلطان لسانه عليه.

- لا بأس، سنلتقي كالمعتاد، لكن متى ؟

- كالعادة... انتظر هاتفا مني، باي...

****

انحدر مراد صوب الشارع الرئيسي، متوجها إلى محطة نقل المسافرين، تاركا مهمة دفع ثمن فنجان قهوته لصديقه عزيز الذي لا شك أنه لا يحمل دينارا أبيض، فما دام عادل بمعيته، فهو الدافع إذن مقابل الجلوس إليه.

الوقت يداهم المساء، الساعة تزيد عن الثالثة بعد الزوال بأربعين دقيقة، والعصر سيحل أذانه بعد برهة. مراد ينظر إلى ساعته في قلق، ثم يستل هاتفه الخلوي جاحظا عينيه في الأرقام التي تحفرها أنامله برفق فتبتسم له بشاشة الهاتف، رنّ مرة ومرتين... توالت الرنّات وليس هناك من مجيب، ما العمل إذن ؟؟

تساءل مراد والخيبة ترمي على وجهه المشرق ظلالها فيعبس فجأة :

– ما العمل ؟! إنها لا تجيب... سأفاجئها بزيارتي، ربما لا ترغب في وجودي إليها، أو ربما تدبرت بدلا مني حلا ينفرها مني... لا لا... لا أظن ذلك، فهي تعشقني. لماذا تحرقني نار الغيرة هذه ؟ ألم أتب عنها ؟ ألم أتخلّ عنها بداخلي ؟ لا... ستكون هذه آخر مرة، لا حل لديك يا مراد غير بابها تطرقه وتذلّ نفسك وتبيع جسدك إليها، عساها ترضى وتمهّد بنقودها طريقك إلى النجاح الذي يكاد يفرج... لكن لماذا لا تردّ ؟؟؟

الدقائق تمرّ، مراد قابع في مكانه بالمحطة، ليس هناك روم محدد ولا غاية منشودة، الطرق سدّت أبوابها والفجر بات نوره باهتا بعيدا، تراءى له كالحلم متبددا شيئا فشيئا... الحاجة تجعل العمر قصيرا كما الأمل.

بعد ربع ساعة، نبض الهاتف ورنّ نصف رنة اجتثها مراد بالضغط على زر الاستجابة لنداء المنادي :

– ألو، حسبتكِ لن تردي.

– كيف لا أرد عليك يا عيوني ؟

– اتصلت مرارا ولم تجيبي...

– كنت في الحمام أزيل عن نفسي أدران النهار المتعِب في العمل.

– بصحة وعافية.

- شكرا، أين أنت الآن ؟؟ إني مشتاقة إليك...

- أنا حيث تريدين.

- أريدك بين ذراعيّ وفوق صدري (في صوت دافئ بكلمات غنج وشبق تتدلل بهما عليه).

- ثوان وأكون رهن إشارتك.

ثم أقفل الخط في بسمة ضيّقة تكشف عن سرور خبيث ينبئ عن مكره الدفين في أعماقه، يكتنزه للاستنجاد به ساعة العسرة كهذه التي كبّل في شراكها.

استقل أول سيارة أجرة، متجها في سرعة البرق يعدّ الثواني والدقائق، مراجعا خطة ما سيقبل عليه بعد سير عشرين دقيقة إلى حيث سكنى عشيقته "نورة" التي تسبقه بخمس عشرة سنة من العمر، متصفحا هاتفه الخلوي، يكتب لها رسالة نصية لتهيئة أجواء وُلوجِه سكناها، بصرف الأولاد من البيت وترقّب الطريق.

****

نورة، هذه المرأة التي تعدّت عقدها الرابع بثلاث سنوات، تسكن فيلا من طابقين وسط حي البساتين الراقي والهادئ بعاصمة الولاية، رفقة ابنيها عُمَر (05 سنوات) وعليّ (14 سنة)، متوسطة القامة، حسنة الشكل، بيضاء البشرة، عريضة المنكبين، بارزة الصدر، دائرية الوجه، واسعة العينين البنيتين، شقراء الشعر مع وجنتين حمراوين تنبئان عن بحبوحة معيشية، وتشغل منصب نائبة مدير المستشفى المركزي. تعرّفت على مراد الذي فرضت نفسها عليه بإلحاح مادي كبير أغرته به، منذ ما يربو عن السنة والنصف. شكل جسدها الذي بدأ يتداعى يجعلك تجزم - لو لمحتهما معا - بلا تردد أو ريب في القول أنها والدته أو قريبة له، أكثر من شكّك أنهما « عاشقان ».

كان مراد يتردد على المستشفى المركزي أيام موجة من المرض رزئت بها والدته، إذ كانت ستجري عملية جراحية لاستئصال الطحال ؛ فكانت الفرصة السانحة لتفترسه عينا نورة الفاحصتان وعقلها الراجح. لقد سحرها بجماله وهامته وشكله ورجولته من أول وهلة ؛ فراحت مأخوذة القلب مأسورة الفؤاد، تتبع خطى ظله وتعشقه وتشتهيه في سرّها، ساعية لخدمة والدته، عساها تنال لفت مشاعره نحوها، مسخّرة كل ما يمكنها من مساعدات مالية ونفسية لوالدته، إذ تقربت منها وأغدقت عليها الحسنات وصاحبتها حتى تمكنت من استدراجها للحديث عن مراد بعد أن اطمأنت لها، فاستطاعت التعرف عليه من خلال أمه التي لا يكاد حديثها مع ابنها يخلو من ذكر حميد خصال السيدة نورة نائبة المدير، مسهبة في عدّ خدماتها من حرص على تناول دوائها في وقته وإمدادها بأشهى الأطباق الصّحية التي كثيرا ما تلذّذ مراد ببقاياها، ناهيك عن تقييض أحسن الأطباء للكشف عنها كلّ حين، إلى أن رتّبت صدفةً وقابلته فتعرّف عليها واصطحبته إلى مكتبها... وصارا صديقين حميمين مقرّبين إلى بعضهما، فلا يجسر مراد على مبارحة المستشفى إذا زار أمه إلا ويعرّج عليها.

****

نعم... وكيف لا تعشق نورة مراد ؟ وكيف لا تحدد نوع معدنه الخام وطبيعته ؟ فهي التي خبرت الرجال من كل الأصناف، فمنهم العاشق للحُسن والجمال، ومنهم الساعي لجاه النساء ومعارفهن ووساطاتهن، وآخرون طامعون فيما ورثته عن زوجها الأول المتوفى من تركة تمحصّت في البيت الجاهز بحي الشرفة، الذي شغلته مع ابن لها يسمى سفيان المشارف عمره على عقده الثاني، وما خلّفه انفصالها عن زوجها الثاني السكير بعد خلع نفسها من ذمته، ولم يبق من وصاله إلا زيارات مقتضبة لطفليه عمر وعليّ.

هي التي مكّنت الزوج الثاني من نفسها لمّا وفّى شرطها لقبول قرانه، بعدما بلغها زواجه من أخرى اختارها والده مرغمة عليه، لم يعرف معها طعم الحبّ الذي وجده في نورة (حسب ما أوهمها به حسن التّشكّي، وما جادت عليها مزامير لسانه من لحن الوعود التي تسكن الأنفس وتطرب الآذان وترنو بها الأفئدة)، لتلاقي ويلات سكره ومرارة نفوره إلى محبوبة عقله ومجنونة نفسه العليلة عربدة ومجونا، فأتلفت أحلامها وبخّرت آمالها وأوقدت نار آلامها وجراحها التي لم تندمل آثارها من زواجها الأول.

حررت نفسها من قيد هذا الشريك النحس بعدما ضاقت به وبمجون سكره السافر ذرعا، فقشعت عنها غم الوحدة وهم القهر وجزع معاشرة عربيد أسكنها لسانه جنّة غنّاء، مسافرا بها إلى بلاد الأحلام الوردية التي رسمها لها في لحظة وهن منها، فصدّقت سعيه الحثيث لتعويض ما عانته من زوجها الأول الذي كاد يفقدها صوابها بامتطاء صهوة السحر والشعوذة لاستمالة قلبها المرهف حسه، البريء نبضه، الدافئ جنبه، تُناوله أقداح الحبّ في إخلاص واحترام كزوجة ترجو رضا زوجها وحبّه ومودته، إلى أن ضبطته يؤدي طقوسا سحرية دنّست كل جميل فيه وطمست آثاره، تعاويذ توارثتها الشياطين وطلاسم أملاها المشعوذون... تبرأ منها مواربا كفره، دافعا بسعيه لنشر المودة والمحبة وطرد شياطين الحسد والغيرة والعين...

هيهات أن يفلح الساحرون وعبثا يوفقون بما يؤمنون، لقول ربي جل وعلا في محكم تنزيله : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. فرّت نورة بنفسها معبّأة في أحشائها بسفيان الذي وضعته بعد سبعة أشهر ببيت والدها، ووهبته لأختها العانس التي تولّت حضانته وتربيته، تاركة

زوجها المشعوذ رفيقا لأوهامه وسحره سابحا في أماني استعادتها إليه خانعة ذليلة، إلى أن وافته المنيّة بعد مرض عضال أرداه طريحا ولازمه لأزيد من سنة بعد فراقهما، رغم منازلة أعتى الأطباء وأمهرهم الذين لم يفلحوا في الاهتداء إلى مصل أو بلسم يعقره.

القسوة التي تجشمتها نورة وهي لا تزال في ريعان شبابها مع زوجيها السابقين، جعلتها امرأة من حديد، صلبة جلدة تحسب لكل خطوة تخطوها ألف حساب وحساب، لا تغفل عن مقصد الطامعين ولا مرامي الأنفس العليلة والسقيمة المتلهفة إلى جسمها البض الممتلئ وأنوثتها البازغة في عينيها الواسعتين المشعتين، والمتفجرة من ثدييها البارزين اللافحين حرارة وشبقا إلى اعتصار يلجمهما بلجام الحنان والحب.

عزاؤها في كونها امرأة مطلّقة، حفظته وحاطته بسرّ مكتوم لا يعلمه إلا طليقها، فهي امرأة تراها أعين مَن حولها مِن جيران وأصدقاء العمل والمعارف أنها الناجحة في حياتها الزوجية والمهنية بحكم منصبها الحالي، الرصينة الصارمة الوقور والمحافظة، فعراقة أسرتها وصَيتها المذاع في البلدة زمّت فيها كل مناورة قد تساورها نفسها بافتعالها خلسة، لكنها في الجهة الأخرى من شخصيتها تلك المرأة المتمردة الثائرة المتحررة الكافرة بكل الطقوس والضوابط المجتمعية والأسرية، الناقمة على وحدتها، الكاتمة حزنها، وبين الحين والآخر تنفجر عيناها الواسعتان بزخات الدموع التي تخفف عنها عناء الحمل الثقيل.

****

تعي نورة جيدا ماذا يعني لقب مطلّقة في وقتنا هذا، فهي تردد ويلات سخط وتنكر للائي ألفن رغبة ومتعة في لهفة الزناة اللاهثين

وراءهن ككلاب جائعة، لا لشيء إلا لأنهن يحملن تأشيرة التحرر من قيد الشرف، ووصمتها الأقدار باسم مطلّقة.

فالمطلّقة في نظر الغارقين في يمّ الشهوات والنزوات، لا تقول لا لأية جرعة من الحب، كأسها مفرط العطاء بمقابل أو بدونه، ففي زماننا هذا أضحين بهذا اللقب الموسوم بجباههن، سلعة يتداولها الطامعون والساعون رمحا وراء الفسق والفجور من أهل البغاء وفساد الأخلاق، فقلّما تجد إحداهن لا تهوي بجسدها وكرامتها وأنوثتها في شراك هؤلاء – إلا من رحم الله – لأن الدوافع كثيرة لا تعد لحسرتها، والنفس أمّارة بالسوء ضعيفة أمام التيارات الجارفة إلى زينة الحياة الدنيا وزيفها. كيف لا والنساء ناقصات عقل ودين ؟؟؟ فمِن الحاجة إلى رغيف خبز يسد أبواق الصغار من ضحايا الانفصال الأسري، تندفع المطلقة مكسورة الجناح لفعل المستحيل اتقاء شر الفقر وجبروته، وصدق عمر الحق – رضي الله عنه – في قوله : « كاد الفقر أن يكون كفرا ».

وفي الجوار، تستثنى منهن، اللائي يسعين وراء البغاء مرمًى شددن إليه رحال النفس والعقل فيجدن في الطلاق مفتاحا لحريتهن بعد أن ينصبن كل أنواع الشراك لطرائدهن من الشباب الطامحين لبناء أسرة وإتمام نصف دينهم، فبعد نيل المراد ويقع القران تسعى الواحدة منهن جاهدة للظفر بحبل تتوسمه شفيعا لها ومؤنسا من وحشة الوحدة بعد الطلاق، وعاقبة لهن إذا عبث بهن الزمن وطول العمر، عندما تهن الأجساد وتحنى الظهور وتذوب الأوداج وتنطوي، ثم يطلبن الطلاق سبيلا وحيدا لفك الرباط السامي، يفتعلن لنيله كل أنواع الأسباب بأمانة سلطانُها أطماع النفس الشريرة وصولجانُها المكر الجارف للفرقة، يبذلن فيه اجتهاد تلميذ ساذج على يد شيطان

يرنو الرقيّ درجات عالية بين يدي اللعين إبليس، فهو الطامح دوما لبيوت مشتتة الأواصر خاوية الجذوع لا سلطان فيها إلا للهوى، ينفردن بالعيش في كنفها. وزاد قانون الأسرة الساري تمتين الحماية بضمان هذا المطلب الجلل وتكريسه حبرا وحكما ملزما وصنفا مدفوع الأجر، فينغمسن في ملذات الجسد والتمتع بنزواتهن الجنسية مع كل من هبّ ودبّ دون مراعاة لأي وازع أخلاقي أو ديني أو تقليدي، ليعصف بهن ريح الفسق والبغاء دون هوادة، فينطلقن كفرس جسور حررت من وثاقها، في طريق لا يعرفن الرجوع عنه إلا بعد فوات الأوان. وهذا قطاف ريح الغرب الضاربة في الشعاب الأخلاقية والدينية والثقافية، الداعية، في تقديس للعلمانية وتمجيد للسامية وتكريس للحقوق والحرية، بالمساواة بين الرجل والمرأة، واهبة الحرية المطلقة بلا لجام يجمح الجانح عن الصواب، مجسِّدة إله المادة مجسِّمة في الأفئدة سلطان الجاه بين أضلع الفقراء والأغنياء، عاصفة بتعاليم ديننا الحنيف وأصول الأخلاق الفاضلة في سلة المخلّفات التقليدية الواهنة التي عرفتها الجاهلية الأولى.

****

أما مراد، فقد عرفَته منذ الوهلة الأولى ذلك الشاب الحييّ الذي لا يجسر على رفع طرفه أو مدّه تجاه أي امرأة، واستشفّت فيه هذه البراءة المنمّة عن منبته الحسن في وسطه العائلي المحافظ، ما زادها إصرارا على ترويضه والإيقاع به في شراك شغفها وشبقها، فقد آن لها أن تستريح من عناء حمّلته نفسها منذ زمن، في البحث المليّ عن حبّ حقيقي نابع من قلب سليم المراس، حبّ لا قانونَ فيه إلا لكأس الهوى المغدق بخلوة النشوة والمتعة العاتقة لسنين الحرمان، بارتشاف ألوان الغرام والتيه والذوبان والسكر فوق صدر الحبيب،

فقد راودت نفسها في أحلام يقظتها ونومها بفارس من الشباب يسافر بها إلى أبعد الحدود وينقذها من براثن الوحدة وهيمنة الشيب الذي شن غزواته على نتوءات شعرها التي دارتها بصباغ أصفر وأسود، بفارس مغوار ينسيها سنين الشقاء، يحميها شر الطلاق وشراكه ويسعدها باقي حياتها، على أن تهبه كل شيء بدءًا بقلبها ؛ فانبجست من فؤادها بذرة من الودّ ارتوت سريعا وأنبتت في ليال عشر قضتها والدة مراد بالمستشفى، ظفرت فيها نورة برقمه الهاتفي، ليسوقها لا محالة عن قريب إلى قلبه بلا ريب.

****

يحضّر مراد حديثه المعسول المبنيّ على أساس ما نسجته أحلام نورة من وهم لنيله زوجا لها، فقد كشفت له فِراسته مع الأيام الطويلة وخلال الحديث إليها عبر الهاتف، عن مناها الدفينة والمكنونة في صدرها، فراح يلعب على هذا الوتر الحساس (الزواج من شاب وسيم بعد قصة حب)، الذي من أجله جنّدت كل مواردها لبناء عشها على غصن الحب في أعالي شجرة السعادة، فزارت وإياه قبل أسبوعين بعض المحلات المستعرضة أثاث الزفاف من إزارات نوافذ غربية وخليجية مطرّزة، أفرشة وبطانيات سورية قطنية فارهة، وغرف نوم ماليزية وأوروبية فخمة. وقع اختيارها على واحدة من هذه الأخيرة تساوي 15 مليون سنتيم، بعد أسرها لذوق مراد لإبدائه إعجابه الكبير بها، وهي الفرصة السانحة التي مكّنته من تدبّر جزء من مبلغ رحلته لجنّة الاغتراب... فسلّمته 5 ملايين كقسط أول لاقتنائها على أن يستلم منها الباقي هذا اليوم.

– سامحني يا ربي... إني مرغم على تدبر المال، هذه الوسيلة خير لي من السرقة، نورة المسكينة تحسبني أعمى عن الواقع وتظنني

شغوفا بها... لقد قلت لها في أكثر من مرة أن هناك امرأة أوصت ابنتها التي أحبّت رجلا متزوجا قائلة : « إياك أن تحبي رجلا متزوجا أو يصغرك سنا » ففهمت شطر الوصية الأول واستغنت عن الثاني. لا يهمني ما ستفهمه أو لا تفهمه، سأترك لها الرسالة وأتمنى أن تقدّر موقفي وتستعيد رشدها من بعدي. وإني متيقن أن الزمان كفيل بجعلها تنساني، وإن لم تفهم رسالتي فمصيرها أن تقدّر سرّ غيابي، المهم أني سأغلق دفتر ذكرياتي معها إلى الأبد وسأرمي به في عرض البحر لتأكله حيتان النسيان. سأتوب عنها وعن كل حرام وجرم اقترفته في حق الله، كما سأرمي معه أيضا كل تاريخ أسود وفاسد هشّمته حالتي المزرية وأتت نار فاقتي على أخضره ويابسه، كل ما يذكرني بمعاناتي في هذه البلاد.

ثم استطرد محدّثا نفسه بصوت خفيض لا يسمعه إلا فؤاده :

– أكيد أنها ستكرهني، يا ربي يا رحيم، أقسم بك أني سأعيد لها أموالها فور نجاحي في مشواري. إني لم أقصد إيذاءها، ولم أنوِ الهروب منها إلا لأني لست حَرِيّا بالعيش معها، فهي تعي حقا أني لا أناسبها، وكيف لي أن أتزوج امرأة تؤمّ ثلاثة أولاد ؟؟؟ فُروق سِنَّيْنا ومستوياتنا التعليمية والمعيشية وطرق تفكيرنا المختلفة، تحول كلها حتما دون تحقيق ما تصبو إليه مني، لكن ما العمل ؟ لقد هربت منها مرارا وتكرارا، لكنها أبت علي إلا المكوث قربها.

ثم غمغم في نكد وضجر بدا على وجنتيه.

****

استعاد روحه مستويا في جلسته، ينظر إلى أطراف الطريق والأشجار الجانبية بتأمل ينمّ عن فراق دان لهذا الطريق الذي

يتراءى له – من السيارة – أن سيقان الأشجار والمبسوط من الحقول المحاذية لها تسابقه وهو من نافذتها يبتسم لها تارة وتارة أخرى يضحك عليها... كطفل وديع زاحم أقرانه ففاز بالمقدمة ركضا خلف فراشة زاهية الألوان في الربيع بين الزهور والورود يبغون اصطيادها.

استفاق فجأة منتبها لهول رنين أزعج سرحانه وتيهانه، إنه هاتفه الخلوي الذي كان يغط في نوم عميق، ها هو يصيح وهو مندس في جيب سرواله، كديك الفجر الصادع بالآذان في جوف الغسق، مبشرا بوصول الليل إلى محطته الأخيرة. تناوله متفحصا أخباره ليجد ردا على رسالته النصية، ففتحها قارئا فحواها : « حبيبي، كل شيء جاهز من أجلك بدءا مني، وأنا في انتظارك على نار ». تبعته في الحين مكالمة منها، رد عليها :

– ألو... نعم.

– أين أنت حبيبي ؟

– على مشارف الحي.

– هل تحوز أجرة التاكسي ؟

هي تعلم جيّدا حجم فاقته وحاجته كشاب عاطل، فقد عودته على دفعها أجرة التاكسي خلال كل زيارة أو لقاء حبّ، غير متجاهلة مصاريفه اليومية من سيجارة وقهوة وعطور من أشهى الروائح وأرفعها وأفخرها مما تحبذها في جسمه وملابسه ملازِمة، كما تسللت بجودها وكرمها وسخائها الذي طغى على دنياه، حتى امتد إلى ملابسه التي كانت تقتنيها وتختارها له على مذاقها من أفخر المتاجر بأغلى الأثمان.

- تدبرت أمري... (أجاب في غمغمة تومئ بضيقه من السؤال).

- كم بقي على وصولك ؟

- خمس دقائق على الأكثر.

- أنا في انتظارك خلف الباب.

فدخوله إلى بيتها لا بد أن يكون مختلسا وبسرعة، تحاشيا لعين جار حقود أو شخص مترصد من المارة القاطنين ذاتَ الحي، ولحسن حظها وحظه في ابتغاء أقداح الهوى بمخدعها، أن مسكنها يقع في زاوية لا تعرف إلا سكون الخشوع والابتهال في السّحر، تعلوها حركات مقتضبة لنيف من المارة ساعة بساعة ؛ ما مهّد الطريق الفسيح لإيلاجه الفيلّا بيسر وصرفه منها متى تشاء، كما أن أجواء الهدوء بهذا الحي نفّرت صغيريها منه لعدم تأقلمهما مع جوّه، فيدرجان إلى بيت والدتها الكائن بالحي الشعبي أين يعيش ابنها الأكبر سفيان في كنف خالته، كلما أمرت فلبّيا أو طلبا فأذنت.

- أوكي، باي... (وأنهى المكالمة).

اتجه سائق التاكسي بمراد صوب محطة سيارات الأجرة وسط المدينة، مختصرا الطريق الرئيسي بين الأزقة والأحياء المتاخمة لها، فزحمة السير تسعر بهرجتها وحركتها في أوقات انصراف العمال والموظفين من مناصبهم أو إليها.

- مائة دينار... (خاطب السائق مرادا مطالبا إياه بالأجرة).

- انتظر قليلا...

إنه يبحث عن المائة دينار التي أخذها من والدته، ولفرط تفكيره وانشغاله بما سيقدم عليه أتلف مكانها الذي تختبئ فيه كأنها لا تريد مبارحة جيوبه.

- آه، هاهي، تفضل... شكرا لك.
- نحن في الخدمة... مع السلامة.

****

معترك الأحلام في زخم الأماني

أذان العصر يصدع من مآذن مساجد المدينة، الساعة تشير عقاربها إلى الرابعة والنصف. ها هو مراد يسارع الخطى صوب باب فيلّا نورة، يلتفت يمينا ويسارا في أزقة الحي الساكنة، كأنها قطعة من رمس مهجور... ومن الزاوية المقابلة للشارع بأمتار، ينزلق داخل باب حديدي موارب وخلفه تنقضّ عليه نورة التي كانت في أبهى حللها كأنها بكر تلقى فارسها ليلة دخلتها، غير متبرجة بزينة مفرطة، فقد أدّبها مراد بذوقه النافر من بودرات التجميل ومساحيقه وعجائنه التي كانت تعشقها وتراها ملاذا لإظهارها أمامه في أبهى حلّة فتغريه وتلفت أنظار عينيه نحوها، مبرزة كل أسلحتها من مكامن مفاتنها وكنوز جسمها الغض الطريّ، حتى أعانتها الأيام والليالي على إدراك أن حبيبها يعشق الجمال بطبيعته المجردة الصافية النقية، كما تستهويه المرأة على سجيتها، كزهر بريّ سطعت روائحه في الفضاء مقبّلة ضوء شمس العاشقين، مرتلة تسابيح القمر التي ينشدها للحائرين، شارحة صدور السائمين، باعثة في الحياة نبضا وحنينا، لتطرب العيون برقصها تحت أنغام النسيم العليل.

عانق عشيقته محافظا على انتصاب هامته، متفاديا أي قبلة طائشة قد تصيبه في شفتيه، فهو يتقزز من هذه الخلوة المفتعلة

من نورة الراغبة في شرب أقداح الحب بفرط كبير بلا مقدمات أو مقبّلات كأنها تودع الدنيا كمن تأخر على قطار رحلته الأخيرة، بعدما أذاقته عذوبة كأسها فاغترف في لحظة ضعف وشهوة شاردة من نهر الخطيئة على يدها، لكن مقاومته الشديدة لنزواتها وطغيان شهوتها لا تصمد دوما أمام تيارها الجارف، فتآنيب ضميره التي تمليها عليه تلاوة من أسفار الديانات جمعاء وألواحها وصحائفها المجمعة على العذاب المنتظر، لم تجده لتلافي أهوال سرير نورة.

عمر السعادة في الظلام قصير وطعم الحرام مهما لذ علقم بعد الفراغ منه... صور ترددت عليه عقب كل كأس أنس يتجرعه، نسجت فيه قرارات استهدى بها إلى لجم نفسه بلجام التسويف في توبة نصوح بعد استواء سفينة حياته المستقبلية على ضفاف شاطئ جنته المنتظرة ؛ ليستعيد نهائيا روح ذلك الطفل الوديع والبريء الذي يسكنه، كما هداه شيطانه إلى مجاراة نورة وإيهامها بالزواج بعد فضّ عذرية علاقتهما، بإبراز خلد طويّته في إنشاده تلفع هذه الصّلة برداء الشرعية والتحافها الحلال في ضوء الواقع.

– اشتقت إليك كثيرا يا حبيبي...

قالتها متنهدة كأنها وضعت حملا ثقيلا أرهق كاهلها، وهي ترسم قبلة على خده بعدما جلست نصف جلسة على مسند الأريكة وسط غرفة الجلوس، أين رمى مراد بجسمه عليها متكئا وهي تعانقه بشدة وتدس أناملها بصدره الواسع ذي الزغب الكثيف كأنها تتقي بقربه قرّ الوحدة وصقيعها، وتهفو لإخماد نار الشوق ولوعته.

– وأنا كذلك.

– لكنك لم تتصل بي ولم تجب حتى على هاتفي منذ ثلاثة أيام.

قالت ذلك معاتِبةً وهي تعبث بثيابه وتشبك أصابعه بأناملها وهو منساق إليها في لطف، قابعا مكانه وسط الأريكة أين يمكث دوما في زياراته الخفيفة منذ أن ولج بيتها للمرة الرابعة، فقد قصرت حيلته في الالتقاء بها خارج البيت لاسيما أنها الراغبة دوما في الترتيب للقائهما تحت سقف الخلوة، لتجتهد في الحد من صهوة شبقها وتمكن نفسها الملتهبة نارها من جسده الخصب.

– تعلمين أنني إن لم أكلمك فذلك لأني منشغل بك دوما، فأنت دائما في قلبي تنعمين وبين أهداب عينيّ تسبحين وفي مروج صدري وخصب عشبها تسرحين يا غزالي...

كان مراد يردّ في لمة للكلام متهربا من مداهمة عينيها البرّاقتين المغرورقتين بدمع الشهوة، فيما يخشى أن تستفيق على حين غرة فتقف على خبث نيته وسوء طويّته.

– هل لي بنفجان قهوة ؟ فأنا مرهق اليوم كثيرا، لقد زرت عدّة مشاوير لي ومازلت أترقب موعدا الساعة الخامسة والنصف مع صديق لي بخصوص ملف طلب توظيف ببنك الجزائر.

واصل كلامه وهو يدسّ يده في جيب سرواله الجينز ليخرج علبة السجائر بغية إبعاد نورة عنه لعدم استساغتها دخانه ورائحته النتنة المنبعثة منه، متحملة في لذة وسكر مرارة ريحها المقززة – التي تشمئز لها الأبدان – باندفاع زفراته أثناء الكلام أو عندما ترسم قبلاتها على شفتيه.

– ستوفق إن شاء الله، المهم يا حبيبي لا تقلق كثيرا ولا تتعب نفسك، فأنت لست بحاجة لوظيفة لأنني موجودة وسأبقى بجنبك الدهر كله، لا تهم الوظيفة، سأنجز لك المشروع الذي اتفقنا عليه

وسيضمن لك راحتك وصحتك، كما ستستقر فيه حرا دون قيد مسؤول أو كيد زميل أو مشاكل مصلحة.

– أعرف يا حبيبتي، لكن...

قاطعته نورة وهي تعانقه بشدة فيها من تعابير الحب ما تستجيب له شعيرات الدماغ وتسكر فيه الأفئدة وتجن في ثناياه عقول العقلاء وتفلت عن صوابها :

– لا لكن ولا أي شيء آخر، تحدثنا مرارا واتفقنا على كل شيء، ولا أريدك أن تفكر بأي شيء إلا فيّ وفي حبنا ومشروع زواجنا فقط.

– حسنا حبيبتي... امـمم... لم أقل لك... (ملفتا انتباهها) لقد تحدثت إلى صاحب غرفة النوم منذ يومين... أنت تعلمين...

– أجل أجل، أنا متذكرة وعند كلمتي يا عيوني، اُطلب تجد.

ثم واصلت قائلة في غنج :

– سأوافيك بالقهوة حالا ومن ثم نكمل يا روحي...

ونهضت عن راحة الأريكة، فتنفس مراد الصعداء وقلبه يطير فرحا لانطواء دهائه وحيلته عليها، لكنه يشفق عليها من وجهة نظر ضميره الذي لم يعد له عليه أي سلطان أو وصاية.

****

نورة قبالة مراد في المطبخ المعاكس لغرفة الجلوس التي تقع عند مدخل « الفيلّا »، لا يفصلهما أي حاجز، تترنح تارة مدارية وجهها عنه، في التفاتات تبرز أردافها العريضة وساقيها العاريتين أسفل تنورتها القصيرة الصفراء اللون، وتارة أخرى تواجهه بصدرها

الناتئة منه فتحة رسمها ثدياها المنتصبان في بروز ساطع كتفاحتين التهمهما النضج بعد مضاجعة صيفية للفحات الشمس ورطوبة الليل الدافئ، ترتقبان بترصد الجانيَ على نفسه وعقله بقطفهما في وجبة حميمية.

إنه يشتهيها في نفسه، لكنه لا يجسر على نكث عهده لها بالتجرؤ على كسر سور حرمة حبّهما المفتعل وقدسية مشروعهما السامي، يكتم شهوته ويخنق نزوته بمداراة عينيه عن هذا الجمال وهذا الشكل الأخّاذ المسكر القاهر للوجدان والمهيمن عليه ؛ فيدلي بأشواقه ورغبته في يأس إلى شاشة التلفاز المقابل له، مرتجيا صرف النظر عن شحنة جنونية من الاحتقان ألمّت به وكادت تسفر عن انقضاضه على فريسته بمطبخها.

ها هو فنجان القهوة الساخن، الذي جاء محمولا في صينية نحاسية مزركشة زفّت قطعا من الحلوى المحشوة بالشكولاطة – المفضلة لدى مراد – مع إبريق من الشاي الأحمر، كلاعب احتياطي في فريق السّمر، وكأس عصير البرتقال الذي انتصب وسط الصينية حكما للقاء.

– تفضل حبيبي... (تُقدّم له قطعة حلوى صوب فمه).

يقضمها مراد، وفي نفسه يستحضر مسرحيته ودوره فيها، سائلا :

– كيف العمل مع صاحب غرفة النوم ؟

– لم يبقَ يدين لنا إلا بسبعة ملايين، سأحضرها لك حالا، إنها جاهزة... لا تحمل همّا أبدا.

– آه يا حبيبتي، ربنا يخليك ليّا، ويقدّرني أن أعوضك عن كل شيء.

– آمين يا عمري...

ردّت نورة وإشراقة من الرضا زادت في نفسها بهجة وسرورا لسرور حبيبها أطلت من وجنتيها الحمراوين كنور قمر سجنته سحب سابحات في بهو المساء فشجها هواء عليل في غسق الليل المطبق ليجليها فتنتشر أضواؤه تملأ الأرض حياة وأملا... فهي تعشق الكلام المعسول من مراد.

ثم همّت متجهة إلى غرفة نومها بالطابق العلوي، وهي تصوّب نحوه سهما من أسهم عينيها الساحرتين بغمزة رجّت لها أساريره وقصفت به في الهيام، تمكن من لجمها غير مبدٍ أي حراك عدا زمّ شفتيه وتقبيل كف يده اليمنى ثم النفث عليها يسوقها قبلة دفعها صوبها تحت رعاية عينيه، منشغلا في شأنه المخالج صدره يتلهف للتنصل منها، فموعده المبرم مع حمزة جعله يغض طرفه عن ارتشاف قدح حبّها ولو في عجالة، متحججا بضيق وقته وكثرة انشغاله. بعد برهة من الزمن أطلت عليه كبدر منير في ليلة قمراء، محمّلة بظرف بني منتفخ الصدر.

تبسم مراد ابتسامة صغيرة، مردفا سؤالا مصطنعا :

– ماذا هناك يا نورة ؟

– هذه عشرة ملايين...

– عشرة ملايين ؟!... هذا كثير !

– لا يغلى عليك أي شيء يا غالي...

– لكن...

– خذ ولا تسأل، اقض حاجتك مع الرجل، واشترِ لك بذلة لائقة، أم تُراك نسيت أنك ستَحضر مع أمك الاثنين المقبل لخطبتي ؟

ردّ مطأطئا رأسه :

– نعم، نعم، لكن البذلة لا تزيد على 800 ألف سنتيم، فماذا أفعل بالباقي ؟؟

– أريدك أن تلبس أحسن بذلة ولتكن سوداء، وإن شئت اخترتها لك غدا.

– لا عليك حبيبتي، هذه المرة سأختار لنفسي وإني متأكد أن ذوقي سيعجبك.

– كل شيء فيك يعجبني يا حبيبي، فأنا متيمة بك وأنت عمري وكل حياتي...

قالت هذه الكلمات الحلوة وهي تمد شفتيها صوب شفتيه لتسقلهما بقبلة حارّة، لولا أن استدرك متنصلا :

– ياه ! الوقت يداهمني، يجب عليّ الذهاب... لدي موعد مهم...

وهمّ بالنهوض من مكانه نافضا عنه تلك الوضعية المريحة التي تجعله يرتقي إلى مصف السلاطين، يتمنى في جوف قلبه أنها تطول ولا تنتهي ولا يسدل عليها أي ستار غير الحب كؤوسا يتجرعها.

آلمها التنصل المفاجئ لمراد، كأن خنجرا صدِئًا غُرس بمشاعرها فهوت في غيابات الهوان والذل، غير أنها تنكّرت لهذا الإحساس الذي خامرها، غير مستسلمة لسلطان عزة نفسها، مترفعة عنه بالاعتذار لعشيقها، مستأنسة بعذب قوله ووعوده وأمانيه التي غمرها بها سلفا.

****

نشوة اليسر وسحره في تغييـر المزاج والحال

فارق مراد بيت نورة ملتفتا يمنة ويسرة كثعلب أصاب نصيبا من صيدٍ وارِف وانسل من ثغر زريبة الدجاج صوب الغابة، خوفا من كلب الدار... وما إن بلغ برّ الأمان حتى بدأ يمشي شامخ الهامة، بارز الصدر عريض البسمة منتفخ الجيب، محدثا نفسه :

– يا لها من سعادة ما بعدها سعادة، وأخيرا أنا في عداد الراحلين عن القهر والفقر إلى أنهار العسل والبذخ، الحمد لله... يا ربي كمّل لي مرادي وسهل ما بقي لي من خطوات إلى مسعاي... صدقت أمي في مثلها : « عيب الرّجل في جيبه وعيب المرأة في ذراعها ».

ثم استطرد قائلا :

– يا للعجوز الشمطاء المسكينة ! (قاصدا نورة) تؤمن بسرعة، كل شيء عندها سهل المطيّة، تعطي بلا حساب مقابل قبلات، تحسبني مغفلا أو غبيّا، تريد أن تشتريني، أنسيت أني مراد ؟... مراد الذي لا تغويه امرأة بجمالها أو مالها أو جاهها خصوصا بمثل سنها... دعنا منها... (مخاطبا نفسه).

ثم انطلق حالما في يقظته بعد أن استقل سيارة أجرة اكترى صاحبها بثمانمائة دينار، فأسعار المساء تختلف عن النهار والساعة

شارفت على السابعة والنصف ليلا، كما أنه لم يعد يلقي بالا لحسابات جيبه عندما تجتاحه بحبوحة مالية فيسرف في العطاء :

– ماذا تقول يا مراد في جنتك المرتقبة ؟... أكيد أنني لن أضطر إلى البحث عن وظيفة، سأعيش من متعة النساء، النساء الأوروبيات الشقراوات، فهن يشتهين الشباب أمثالي، ويقدّمن لهم أي شيء يطلبونه مقابل البقاء معهن للنهل من أجسادهم القوية العريضة وقوامهم العربي البرّي الأصيل. أكيد أن حظي السعيد هناك ينتظرني... يا سعدي يا هنائي، أنا قادم إليك، لم يبقَ علينا إلا ثلاثة... لا لا لا، (واطّلع من هاتفه على تاريخ اليوم) يااااااااه ! الأربعاء، بقي يومان فقط ! إذن يومان وأرقي في أحضان الجنة... الجنة !

****

على مشارف بلدية تاج الجنة، هاتف مراد صديقَه حمزة :

– حمزة، كيف الحال ؟

– أين أنت يا صاحبي ؟ أتّصل بك منذ ساعتين وخطك خارج مجال التغطية.

– لا عليك... كنت في مكان ليس فيه تغطية من الشبكة.

– هل تدبرت حالك ؟

– أكيد، وهل عندك شك ؟ إني أنتظرك... لنتقابل الآن إن شئت.

– المهم أنك كنت عند حسن ظني، سأؤكد لصديقنا رحلتك معنا.

- أوَلم تفعل ؟!

- لا أضمن إلا نفسي.

- هذا عليك يا حمزة ؟!

رد مراد متسائلا حانقا على هذا الصاحب الذي فرضه عليه مشواره الذي هوّسه لبلوغ مرماه، فدردشاته الطويلة الأحلام المنقطعة النظير التي قضاها منذ شهرين مع خليله عادل عززت جنون مسعاه وسعّرت لهيبه في نفسه ووهّجته، مستدركا في قوله :

- ألا تعرفني أني صاحب موقف (بنبرة ساخطة فيها غم وكدر لكبرياء زعيم).

فيما تنصل حمزة من هذا النقاش البيزنطي قائلا :

- المهم... سنلتقي عند شجرة الزيتون العتيقة على الساعة العاشرة والنصف أين سأشرح لك قصدي.

- أوكي، إلى اللقاء.

وأقفل مراد الخط منفجرا في بهرجة وصخب ضاق له صدره، مصوبا وابلا من اللوم على نفسه قائلا :

- يا لهؤلاء الأصدقاء ! ولّت الصّحبة الحقة والرجولة الكاملة... هذا الجيل لا مكان فيه إلا للمادة، عندك دورو تسوى دورو (الدورو في العامية يساوي خمسة سنتيمات، وعشرون دورو تساوي واحد دينار جزائري) فكما يقول المثل الصيني : « اختر صديقا أفضل منك » لكني عكسته باختيار أنذل الشباب صديقا، فأسرني بتصرفاته وسلوكه الشاذّ، لقد صدق الفرنسيون حين قالوا : « البطالة أم الرذائل » ؛ فهي تجلب مثل هؤلاء الحثالة ليتولوا أمور الرجال ومصائرهم...

وواصل مغمغما في ترتيل صامت حنقَه على كلام صديقه الذي ألقى على مسامعه وساوس مستقبل معتم لا يبشر بصحبة أنس وأخوة، ما دامت المطامع الشخصية قد طفت من الوهلة الأولى على سطحها، ليفرد إلى الشرود في التفكير مع تزايد حدة دقات قلبه المرهف حنقا و غيظا مكظوما، بعدما كان منذ هنيهة يرفرف في فضاء نشوة من السعادة التي خطفته نسماتها ورمت به في أحضان جنته المنتظرة، كأن تلك الكلمات كانت عيارات نارية صوّبها لسان حمزة عليه، فأصابته ذخيرتها بجروح مخترقة شعوره الرقيق، ينزف ضيقا وشيطا، مستذكرا الدوافع والظروف البائسة التي جعلته ينصاع مكرها لصعلوك كحمزة ؛ لكنها الحاجة، وهل غير الحاجة تـذل الرجال وتهد الجبال ؟؟؟ ثم اطمأنت نفسه في محاولة لطرد وسواس الشيطان بالمعوذات يكررها ترتيلا في خشوع وتؤدة.

ثم راح يستجدي في استرضاء كبريائه بمقارنة مستواه مع مستوى حمزة الذي لم يناهز الابتدائية، وسجلّه الجنائي الحافل بمختلف الجرائم التي ارتادها سبيلا وسلوكا منذ صباه، فقد أمضى في آخرها سنتين ونصفا بسبب ترويج المخدرات، وحسبه حظّا أن طبّقت عليه مواد القانون قبل تعديلها، وإلا فلن ينجو من فعلته إلا بعشر سنين سجنا على الأقل... فهو بالنسبة لمراد مجرد وسيلة من وسائل الطيران إلى بلاد السعادة التي سبق لحمزة أن زارها، غير أن كيد طالعه العثر حال دون تحقيق أمانيه، فهو الراوي عن سحرها والمادح جداول ووديان وأنهار ترفها اللامحدودة، المغترف من مائها وهوائها والسائح في أرجاء حضرها وقراها وبساتينها... لولا أن تداركه ما أجرم قبل رحلته الأخيرة من أفعال السرقة التي بفضلها صدر في حقه بحث دولي من منظمة الأنتربول ؛ لتنقضّ عليه شرطة باريس

أسبوعا قبل عقد قرانه من عجوز فرنسية تملك حانة ومطعما. أسبوع فقط فصله عن حصوله على تأشيرة العمر... وها هو يستردّ عافية جنونه وهوسه بهذه الجنّة الزاخرة ليعيد كرّته عن طريق ركوب البحر.

****

خلف ظهر الطريق المرتفع – الذي انتشرت فوقه أسراب المساكن والبيوت وواجهات المحلات ودور اللهو للأطفال وساحات الباعة المتجولين ومحلات البقالين والجزّارين والخضّارين وشحن حساب الهواتف ومختلف العطور ومواد التجميل والأثاث وغيرها – وفي ارتقاء سلّميّ مسلّح بالإسمنت والحديد، يجتاز مضيق وادٍ حجري صغير جدب المجرى يفصل مدينة تاج الجنة إلى نصفين ويهوي بسالكه إلى حي 50 مسكن حيث تنتظر أم مراد ابنها سابحة بناظريها كعادتها في المسالك التي قد تأتيها بالعزيز على قلبها ؛ التقى مراد صديقه سعيد، صديق صباه، خرّيج كلية الاقتصاد، يشغل منصب محاسب رئيسي ببنك الفلاحة والتنمية الريفية للوكالة المحلية وهو مقبل على الزواج بعد أسبوع.

سلّم سعيد على صديقه، وسأله عن غيابه المفاجئ الذي قارب الشهر والنصف برغم حاجته إليه تحضيرا لحفل زفافه. تنصّل مراد من سؤاله بلا إجابة باتّة، راغبا في مفارقته، (فدوما نهرب من صِدق الأصدقاء وحسن نواياهم إذا نصحونا بما يخالف هوانا) كما أن ابتعاده المفاجئ عن صديقه الحميم كان بناءً على الانتقادات اللاذعة التي سوّقها بذهنه كل من حمزة وعزيز اللذين يحنقان عليه لحبه الشديد لمراد وخوفه عليه من مغبة الإيقاع به في شراك خطاياهما، محاولا تجنيبه مخالطتهما لمعرفته بسيرتهما السيئة

التي تتداولها ألسن كل العائلات المحافظة، من سرقات للبيوت واعتداءات وشجارات دائمة بسبب أو بدونه، ولاسيما الترويج للمخدرات (هذه السموم التي أضحت مطمع ومطمح كل شاب بالغ أو قاصر هروبا من الواقع والجنوح إلى هوس الأحلام والأماني وبيع الواقع للغفلة).

مراد بأخلاقه وطويته الحسنة التي شبّ عليها، يرى العار موسوما بجبينه إن حدث أن يبلغ صاحبَه سعيد خبرٌ أو إشاعة تتسرب إلى مسامعه عن علاقته بحمزة أو عزيز، فهما اللذان كانا ينتقدانهما نقدا لاذعا ويتحدثان عنهما بسخط وحمية للأخلاق والتقاليد، غير أن انجرافه نحوهما كان بسبب ضعف نفسي ألمّ به جراء ما عاناه من صدود ونكران لهويته ومنبته كأنه أجنبي عن هذا الوطن، من بعض الإدارات والمصالح العمومية خلال احتكاكاته اليومية بهم طلبا لمصدر رزق، حتى صده عنهم ما طلبوه من مزية أو شروط يعجز عنها، وتبقى الحجة الكبرى في كل ذلك انعدام وثيقة إثبات تسوية الوضعية تجاه واجب الخدمة الوطنية، معتبرا إياها العقبة العاتية والمثبط الرئيسي لمستقبل أي شاب طامح في بلاد الشهداء، توارب في وجهه أي سبيل أمل للحصول على أية وظيفة توافق شهادته الجامعية التي قلما يظهرها خشية رفضه بتاتا، فخلّف مخاض هذا الصراع غير النزيه مرادا، ذلك الشاب الذي أصبح يصبو للفرار من أرضه والاستيطان بغريمتها القديمة حتى لو دفع حياته ثمنا لبلوغها.

كفاحه المرير لقاء وظيفة محترمة، كفّره بكل المبادئ وجعله يرتدّ عن كل حبّ كان يكنّه لهذا الوطن العزيز، فهو ذو الأصل النبيل والشريف والعائلة الثورية المعروفة أبًا عن جدّ، نشأ على حب الجزائر واستقى من نبع الوطنية إلى حد الثمالة، إلى أن جابه واقع المجتمع

خاوي الجيب واهن الظّهر، عكس سعيد ذي الأب الموسع رزقه الذي شدّ بيده بعد تخرجه وأعانه على مفارقة مقاعد البطالة بشق طريق حياته المهنية بالبنك المحلي.

تنصّل مراد من سعيد بحجة التأخر عن مستلزمات طلبتها والدته منه لتحضير وجبة العشاء، على أن يلاقيه في السهرة، غير أن سعيد يعلم مسبقا أنه الهروب فقط من يحثه على التحجج الواهي، ففارقه دون إلحاح أو رد أو عتاب.

****

الابن سخيّ على أمه في معاملته الطوعية حدّ البرّ المثالي ؛ يغدق عليها بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ من أطيب المأكولات والفواكه وأشهاها، فها هو ذا يعرّج على الجزار والبقال والفاكهاني متبضعا في إسراف، ليدلف بها إلى بيته بعد أن دقّ بابها في نغمة تعكس مدى غبطته وسلوه، مسلّما على والدته مصافحا رأسها بشفتيه، راكعا صوب يدها الطاهرة، وهي تبتسم منشرحة الصدر لهذا الطفل الوديع، يقبلها ويقول :

– ستفرج قريبا يا عزيزتي، ادعي لي، ادعي بكل ما عندك من قوة للدعاء، فقد اقتربتُ من هدفي يا أمي وسأعوضك...

يا لمراد ! إنه كالرياح تهبّ نسمة فوّاحة تأتي محمّلة بالغيث الصّيّب الذي يغسل عن الأرض أدرانا خلّفها الناس والدّواب، كما يجيء مرات كهبّة عاصفة هوجاء تدمّر كل شيء ترديه فريسة أو كدور خاوية على عروشها استبد بأهلها اليقين فأعدم كل حي.

يروح مسترسلا في الحديث ليمسح عن أمه غمّ الصبيحة التي نكّدها بحنقه، يقول :

– أيتها الحنونة، أريدك أن تحضّري لي أشهى طبق نتناوله سويا الليلة، فأنا جوعان وأريدك أن تبرعي كسالف عهدك في إعداد أكلاتك الشهية التي أتلذذها وتقيم صلبي.

– من عيوني يا عزيزي، خذ لك حمّاما ساخنا وستجدني إن شاء الله قد أعددت ما تشتهي... لكن...

توقفت متسائلة وعيناها لا تنفكان تتفرسانه في تأمل ثاقب، تفتشان فيه عن صدقه من كذبه الذي قد يتجلى أحدهما بين عينيه.

– ماذا هناك يا أمي ؟!

– من أين لك بالمال لتقتني كل هذه الحاجيات ؟... هل اقترضت من أحد ؟

– آه يا أمي... دائما تسعين لتعكير صفو نشوة سعادتي التي قلّما أعيشها، بأسئلتك التي تجعلني أشكّ في قدراتي على تحمل المسؤولية وتحصيل المال لغبطتك...

– خلاص يا وليدي (اكتفيت حديثا يا ولدي)... أنت رجل وتعرف... لكن ما عساي أن أفعل، فأنا أخاف عليك وأخشى أن يلحقك مكروه... لا أملك من الدنيا إلا وجهك... ولا أتحمل أي سوء قد يلحق بك...

– لا تخافي على ابنك، فقد أنجبت رجلا يعوّل عليه، المهم اذهبي وحضّري لنا عشاءً لذيذا...

قال هذه الجملة في هبّة تنصل منها متولّيا إلى غرفته مواربا بابها، ودمدم مرددا بصوت مرتفع يعكس انشراح صدره مستقبِلا تلفازه الصغير – الذي كانت نورة قد اقتنته له مع جهاز استقبال رقمي ومقعر نصبه فوق سطح العمارة – ليستمتع بالقنوات الفضائية

التي كان لا يفضل منها إلا الأفلام والمسلسلات الرومانسية والقنوات الغنائية الشرقية، لكنه في الفترة الأخيرة بدأت تستهويه أفلام الأكشن والأشرطة الوثائقية الخاصة بعالم البلدان والمدن الأوروبية الكبرى، لاسيما تلك التي تشيد بالتقدم الحضاري، كما يشدّه أيضا التقاط بعض الأخبار العالمية.

أمسك جهاز التحكم عن بعد بلمسة داعبت زرّ الإيقاد، معطيا إشارة انطلاق صندوقه العجيب المؤنس لوحدته، المبرمج سلفا على قناة فضائية غنائية، كانت لحظتها تبثّ أغنية شادية للمطرب العراقي كاظم الساهر، كتب كلماتها شاعر المرأة السوري نزار قباني :

إنّي خيّرتك فاختاري بين الموت على صدري
أو فوق دفاتر أشعاري
اختاري الحب أو اللاحب فجبن أن لا تختاري
لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار

في متعة الدندنة على أنغام الموسيقى الكلاسيكية التي غمرته وزادته سرحانا في بحر جنته المرتقبة متبوعة بتمايل غير متجانس لأطرافه وسط الغرفة الشاغرة كأنه يراقص فتاة أحلامه فوق خشبة المسرح في أوبرا بدار سينمائية أوروبية مكتظة بالجماهير المشكلين من الأزواج والعشاق والأحباب، متابعا نغمات الموسيقى وأوتار حبال الصوت الشجيّ لهذا المطرب الذي أثلج صدره بما طرب، حرّر مراد قدميه من سجن حذائه الرياضي ونزع عنه سروال الجينز الأزرق وقميصه البني، متسترا بتبّان رياضي، آمرا أنامله بمهاجمة بدلته الرياضية والتقاط أشلائها من أرجاء الغرفة، السروال على

السرير والقميص فوق الكرسي قبالة مكتبه، كما استل من تحت السرير نعله، متوجها إلى الحمام وطلائع حرارة الفرحة تغزو الوجنتين الباسمتين لوالدته التي رمقته وهو يشق طريقه من باب الغرفة نحو الحمّام بعد أن سألها بصوت زاعق في غير غضب :

– هل وضعتِ قدر الماء الساخن بالحمام يا أمي ؟

– نعم يا ولدي، أسرع وإلا فسيبرد، فقد فترته فقط ولم أتركه يغلي، وهو جاهز كما تطلبه دائما.

إنها تحرص كعادتها على أن تخدمه وتلبي رغباته على تفاهتها، كما لو كان طفلا وديعا صغيرا لا ينفك يعرف حاجاته الأساسية، فهو المدلل دائما ومازال يحافظ على أركان دلاله على أمه منذ نعومة أظافره.

الساعة العاشرة ليلا إلا الربع، قضى مراد وقتا ممتعا مع والدته في تناول وجبة عشاء برقشها الدجاج المشوي واللحم المقدد والسلطة المخلّلة، أردفها بخلوة مع الذات في حضن غرفته يحسب المال الذي يحوزه، مزيحا منه القيمة الباقية على رحلته البحرية. وبينما هو غارق في أحلام يقظته يفتش بين ثنايا حديقتها عن مستقبله الزاهر الذي ينتظره، رن هاتفه ينبئ عن طلب بالرد جاءه مستأذنا من عزيز، مستعجلا حضوره جلسة الاتفاق النهائي لوضع آخر الرتوشات.

****

جلسة تحت شجرة الزيتون العتيقة

شجرة الزيتون العتيقة تحتل موقعها في أعلى هضبة جرداء خانها انحدارها الشديد إلى نهاية كهف الوادي، فلم تعد تلفت اهتمام أحد للاستصلاح والاستغلال الفلاحي، كما كانت في سابق عهدها خضرة نضرة تزهو بما أثمرت من الزّرع وحب الحصيد. لقد ولّى ذلك الزمن أيام كان العود والمحراث يصول ويجول مقلّبا تربتها على وقع حوافر البغال والحمير، أيام كانت السواعد تكدّ وتجدّ لكفاية حاجتها الحول كلّه، وحلّ محله زمن الجرّارات وآلات الحصاد التي تخشى الوعر من هذه الأرض التي استعمرتها الأشواك والنباتات الطفيلية تلهو في اجترائها قطعانُ الغنم.

لقد استأنس الفلاحون بما تدرّه الأرض البور من عائدات كل عام بعد الجرد الفلاحي، كتعويض مالي لأصحاب المناطق التي مسّها جدب أو قحط سبّبه شحّ السماء، لكن الغاية التي برّرت وسيلتهم التي جنحوا إليها تكمن حقيقة في تلك الحاويات المشحونة من أوروبا وأمريكا وآسيا معبّئة بشتى أنواع أساسيات الحياة من البقوليات والقمح صلبه وليّنه والشعير علفا للدّوابّ، وأرزا وسكّرا، حتى الفواكه لم تسلم، من موز وتفاح أحمر وأصفر وأخضر، في تبعية لا مناص منها حسب إفادات أصحاب القرار الاقتصادي،

خضوعا لمبدإ الشراكة العالمية التي تفرضها بنود اقتصاد السوق الدولي، فيما ضمنت هذا العطاء الغربي اللامحدود آبار الصحراء بالجنوب الكبير، الناضحة دررا بالذهب الأسود، مستغنين عن الأرض ومغنين أهلها من مشاقّ خدمتها.

هذه الهضبة المقابلة لبلدية تاج الجنة بمخرجها الشرقي، تتوسطها الشجرة العتيقة كمترصد للوالجين فرادى أو وفودا إلى البلدية أو الخارجين منها، فرغم قفار أرض منبتها، إلا أنها توفّر لزائريها جمّ حظّ للسفر بأعينهم مسافات بعيدة بين السّفوح الجميلة المنسابة في ترتيب ربّاني فريد، تطبع في الذّهن لوحة زيتية تشكلت ألوانها الطبيعية الخلّابة السّاحرة للأفئدة، من ألوان قوس قزح المزجاة بزخّات المطر المتيّمة بضوء الشمس الذي انسدل إلى الأرض، يرويها نورا باهرا، زاده الماء الزّلال، الذي ينبض ينابيع شقّت مجاريَ وأنهارا ممتدة من المروج البعيدة، جمالا ورونقا، فسرت الحياة في الحقول والشعاب والغابات الغَنّاء، كأنها قطعة من جنة الرحمن الرحيم.

****

يروى أن الشجرة العتيقة زرعها قديما ناسك متعبد متصوف استنكر للدنيا واستغلظ عليها، هاجرا غير راغب في ملذّاتها، يهوى التفكّر في خلق الله والاختلاء بنفسه، يناجي ربّه جل وعلا صباح مساء، كما تحكي تجاعيد جذورها شهادتها على بطولات البواسل من أبناء هذه البلدية، في حرص منها على البقاء والعطاء بشموخ وتحدٍّ، رغم ندوب السّنين التي قضتها في طي التاريخ المجيد للثورة الجزائرية المباركة، أين آوت إلى جناح ظلها المجاهدين والمسبّلين ورجال الحراسة والمراقبة من الثوار الجزائريين، كما شاركت بظلها

الظليل في عمليات التمويه وتخبئة الفارين من سكان تاج الجنة وضواحيها، من همجية العسكر الفرنسيين والحركى المتمردين على بني جلدتهم من الجزائريين الأحرار، كما ترصّدت وتربّصت بالعدو الفرنسي إلى أن نالت بلادنا الاستقلال في 05 جويلية 1962.

كل الأشجار والأحجار والأطلال الشاهدة على تاريخ الثورة المظفرة وأدتها الأيام واستأصلتها الثقافات العلمانية، وعصفت بها سياسة التهميش والاستعباد التي أنبتت عدم الثقة ونكران الانتماء لهذه الأرض الطاهرة، من أفئدة الشباب المجترح على نفسه هوس الهروب من أمّه وأبيه وصاحبته وبنيه ووطنه وهويّته مهما كلفه الثمن باهظا ؛ فغدت هذه الشجرة تكابد الزمان تلو الزمان والجيل تلو الجيل، كأنها أمّ ترعى، بأمانة وإخلاص، أبناءها وأحفادها، تحفهم بحنانها مهما فعلوا أمامها من خطيئة، ومهما جانبوا الصواب أو عاكسوه. فها هي اليوم قبلة خلوة للشاردين من بني المدينة الناقمين على حياتهم، الهاربين من واقعهم الآنسين لأمانيهم، الهائمين في أحلامهم، الصابئين عن مبادئهم وأخلاقهم، الكافرين بوجودهم ومنبتهم وعرقهم الأصيل، الساعين وراء هواهم، متعبدينه في ذلّ وخنوع، جانحين إلى هذه البقعة القفر تحت الشجرة العتيقة يستأنسون بحضورها الدائم، فكم ضمّت بين ثنايا أوراقها الخضراء دموعا وأحزانا ما لها من جبيه، وكم سرّت لها النفوس بما يخالجها من أماني وأحلام وردية رسمت خيوطَها قنينات النبيذ بكل أنواعه وأشكاله، تحت رحمة شجون أنغام الموسيقى الكلاسيكية، والشعبية، والصاخبة، وأغاني الراي المحافظ والفاحش، وأغاني الرّاب للذين يرنون رجولة ومواقف تدعم شخصيتهم المميّعة، كل على

شاكلته يرقص، وقلّما تأوي إليها المتأملين لعظمة الخالق المتجلية في عظمة ما خلق، في زيارات ربيعية جدباء العود إلا مرة كل سنة.

****

الظلمة الحالكة لا يكسرها إلا وجه القمر المستدير الوضّاء في فضاء سماء شهر أوت الصافية المنعشة، الذي صاحب بأنواره خطى مراد، يعكس ظله الذي يسبقه وهو يشق سبيله صوب شجرة الزيتون... فها هي ذي يتراءى له ظلها، المحيط سواده بجذعها المجوف جانبه، المحدّث عن طول عمرها منتصبا في شموخ، تلفّ بين أحضان أغصانها المسدلة المتداعية إلى الأرض - كأنها تتعبد في خشوع لمعبودها سبحانه وتعالى وتسبّحه - أصدقاءه الذين ألفوا مشاركتها سهراتهم منذ أمد، بعيدا عن أعين المترقّبين من رجال القانون لمرتادي الهوى كؤوسا من السكر وخاصة من منتشيي الهواء القذر المفقد للعقل والمسكّن للجوارح (المخدرات والمهلوسات).

ألقى مراد تحيّته مصافحا أصدقاءه : حمزة الذي انشغل بمهمة لفّ السجائر وحشوها بالسموم كأنها بندقية صيد تُعبّأ بطلقات نارية، يتأهب صاحبها لنيل صيد تتربص به المنية في أية لحظة، وعزيز المنهمك في دمج هواء سيجارته برشفة قهوة يزفهما إلى صدره الصدئ من تراكمات قطران السموم التي يتجرعها، وكمال المعروف بانطوائه الدائم وعزوف نفسه عن ملذات الدنيا بجملتها ؛ فهو يتيم الأم، المقهور من زوجة أبيه وبعلها، فقلما يبيت في دفء فراش بيتهم لانشغالهما بصدّه وطرده ونهره، فيلتحف السماء كساء والأرض فراشا وظل شجرة الزيتون العتيقة صاحبا ومؤنسا، مقابل الالتزام بصحبة الحشيش حتى غدا مدمنا لا يفتأ يستفيق من غيبوبته، فاستغناؤه عنها بات مستحيلا قبل بلوغه شاطئ الاغتراب.

فتّش مراد في الجوار بين زوايا شجرة الزيتون عن حَجَرة أو قطعة كرتون يستعين بها على الجلوس إلى خلّانه فاصطكت قدمه بحجرة ثقيلة عليه، رأسها مغروس تحت التراب، دحرجها إلى أن جانَب كمال فسوّاها واستوى على ظهرها، متسائلا عن الجديد، يقصد مفاتحة الجماعة في الحديث بغية التنقيب عن خبر عاجل يجهله، سؤال يستلم زمام الأمور دوما فور أي لقاء عادي بين صديقين قبل السلام أو بعده.

رد حمزة بسؤال لجيب مراد الذي أفرغه من محتواه فور استقبال السؤال، إنه أمر لا يقبل نقاشا ولا تريثا في التنفيذ، وهو ينظر إلى النقود نظرة وداع أخيرة، كأنه يفارق عزيزا غاليا عليه يبعث به إلى مثواه الأخير متحسرا على تلك الحرارة المالية التي اكتنفت جيبه لسويعات قليلة، لكنه ابتلع ريقه وطرد فكرة شيطانية لاحت في خلده عن إمكانية أن يخيس به صاحبه، فتساءل بصوت مريب يكشف ضيقه قائلا :

– والآن ما العمل مع مشروعنا ؟ أين وصلت مساعيك يا سي حمزة ؟؟؟

ناوله حمزة سيجارة منتفخة البطن بعد إشباعها حشوا بالحشيش، ليتشرف مراد ببادرة إشعال فتيلها، ولكنها لقيت عزوفه متحججا بآلام في رأسه لازمته فقرّر الامتناع عن قص أية جرعة مهما قلّت حتى لا يتعذب بعذاب أمسه، فمازال يخيّل إليه أن تأثيرها المخدّر لا يزال يسري بجسده، متلافيا الوقوع في شراك « الإدمان » لعلمه المسبق بما تفعله هذه النبتة الخبيثة بضحاياها من العاشقين، ناهيك عن طعمها وريحها النتنين.

سلوكه الشّاذ عن جلسائه استشاط له حمزة في إشارة تبادل فيها مع عزيز نظرة استفهام، تحاشى مراد السؤال عن كنهها، صارفا بذكاء نظرهما وانتباههما على عزوفه المفاجئ عن المخدرات، بينما كان يهمّ بإيقاد سيجارة عادية بكلمات مازحة دارت خلفها احتمالَ الخوض في موقفه الحرج هذا.

****

مراد لم يتناول الحشيش إلا ثلاث أو أربع مرات في حياته التي رافقت حمزة وجماعته، كتجربة أداء ونزوة عابرة ناجمة عن ضعف نفسيّ ألمّ به منذ أن اجتاحت ذهنه فكرة السفر إلى جنة سعادته لما لا يربو عن أشهر معدودة جعلته مزموما في جنون بهذا الحلم القريب المنال. فقد تبنى هذا السلوك المنافي لأخلاقه وما شبّ عليه من تربية حسنة، بغية استمالة ثقة حمزة وعزيز وتعزيزها، فيما تعمّدا السعي لإيقاعه في فخ المخدرات، غير أن ما تجرعه من هواء زائد عن حاجة نشوته جرّ عليه ليلة أمس صداعا وخمولا صاحبتهما بهرجة نفسية وذهنية داهمته على حين غرة لم يعمل لها حسابا، ما جعله يقرر جازما تطليقها قبل عقد قرانها عليه وصرف النظر عن أي مسكر آخر قد يقترحه الأصدقاء بديلا مناسبا، لاسيما أن مأربه بات قريبا وجنّته غدت على أبواب أيامه القليلة القادمة، ما سيغنيه عن الحشيش وأصحابه "الحشايشية" كمال وعزيز وحمزة.

– يا صديقي أنت بصدد دخول جنة الدنيا، جنة أوروبا، اقتربت ساعتها فتهيأ يا رجل.

أجابه حمزة وهو ينظر إلى رأس سيجارته الملفوفة المنتفخة وهي تتلقى لسان لهب ولّاعته الموجهة مأمورة لتأتي على وأد هذه

السيجارة والإيذان بساعة الانتعاش التي تتلهف لها أطراف حمزة وعقله الخرب. ثم راح مسترسلا :

- إسبانيا، ثم فرنسا... يااااااااااه ! إني أحس كأنني هناك أركب الميترو السريع، أتجول في الحدائق وبين الملاهي، أصعد برج باريس، أتسكع في المتاجر الفخمة والسوبيرات الطويلة والعريضة، أداعب كؤوس الجعة، أنفث بخار الحشيش دون رقيب أو حسيب... أتعلمون أن الذي يتناول الحشيش في الطريق أو تضبط الشرطة بحوزته قطعة صغيرة لا يحاسَب أو يعاقَب، فهو مصنف عندهم في عداد الضحايا، أرأيتم ؟ هذا هو القانون الحقيقي والعادل الذي يحمي الشباب ويرعى حقوقهم، أما هنا في هذه البلاد، فإنك تسجن لمجرد شهقة أو "بونت" (جزء) من السيجارة المحشوة. يا جماعة نظامهم هو النظام الحقيقي عكس نظامنا الزائف المجحف، المطبّقة موادّه على البسطاء والفقراء والمساكين من عامة المجتمع والطبقة الكادحة المغلوبة على أمرها، أما أبناؤهم فلا رقيب عليهم ولا مانع لحريتهم أو محدِّد. كيف يطيب لنا العيش ونهنأ في هذه البلاد التي تتغذى على أشلائنا وتحرمنا الحق حتى في الحياة كما نشاء وكما نريد ؟؟؟

تأمّم الثلاثة الباقون، ونطق من بينهم كمال على غير عادته طالبا الاستزادة من هذا الحديث الشيق المعسول الذي يكشف عورة الجنة المرتقبة، فاستجاب له حمزة بعد ارتشاف جرعة طويلة النفس من سيجارته المحشوة قائلا :

- أراني مستلقيا في أحضان فراش فاخر، معانقا أوروبية غضة الجسم، صفراء الشعر، خضراء العينين، بيضاء البشرة، كأنها حورية نزلت من الجنة العليا بغية إمتاعي، فالنساء في فرنسا كالخضروات والفواكه في المحلات، تأكل ما تشتهي وقتما

تشاء وحيثما شئت... الحرية الحقّة ضاربة بأطنابها كل أصقاع أوروبا، لذلك هم أنظر بشرة منّا نحن المحرومين، وأحسن منّا حالا نحن المساكين، إنهم يعرفون للحياة حقها فيؤدّون أدوارهم فيها دون تقصير، أما نحن فالضياع مصيرنا والشيب وانحناء الظهور وانتشار الأسقام مآلنا...

ثم صمت هنيهة متفكرا غائبا عن جماعته، ليواصل حديثه :

– تراني أطوف بمعالم هذا البلد الرّاقي، كلّ شيء جميل هناك، كلّ شيء موجود، وكلّ شيء ممكن، وكل شيء متاح ؛ السّكن، النساء، السيارات، المال، الزّهو، الترف، الرّقص، الشّرب، وحتى العمل موجود، تقدّم طلبا فقط ويتمّ تسجيلك فورا بقائمة العاطلين، فتصبح في صباح غدك تتقاضى راتبا محترما مخصصا للبطالين، يصل صرفه بعملتنا إلى مرتب معلّم أو ممرض أو مسؤول مكتب بالبلدية، كما يأتيك الرد بسرعة للتوظيف لا تتجاوز مدته شهرين كأقصى تقدير، تخيّلوا يا جماعة منحة البطالة 500 أورو، ما يعادل 5 ملايين سنتيم في بلادنا... يااااه !

تنهّد عزيز تنهيدة طويلة تنمّ عن انتشال حمزة له من موقعه أين يقبع في قرفصاء، إلى عنان السماء ثم يغوص به في حلم جميل يراه ناظر العين في جنته المرتقبة خلف البحر، فقد تناول ثلاث سجائر محشوة، أرته دنياه البسيطة الصغيرة كأنه سلطان زمانه فيها، يحلم بالبذخ والسعادة التي تنتظره هناك.

– لم يبقَ لنا على الاستراحة من هذه البلاد وهؤلاء العباد إلا يومان أو ثلاثة...

كلمات رمى بها كمال وسط مجالسيه، كأنه ألقى بقنبلة يدوية في وسط سرب من عناصر العدو، أفقدت حمزة وعزيز نشوة رحلتهما الروحانية.

أما مراد فقد كتم غيظه لأنه الأكثر تضررا لما لاقى ما لاقى وعانى ما عانى من المسؤولين وأصحاب البطون المنتفخة بجمر الرشاوي والمزيّات والهدايا، أثناء سعيه لطلب وظيفة بحكم مستواه العالي، لاسيما أنه وجد نفسه في حضيض الواقع مع حثالة المجتمع (كما يراهم)، عاكسهم طالعهم وسنّت لهم ظروفهم القاسية ارتياد الرذالة والاغتراف من أقداح الأسى، منغمسين في مسكرات العقل ومهلوساته سعيا للهروب من هموم الدنيا وغمومها، لما تضمنه من أسباب النشوة الخادعة.

– دعونا من كلام الغم واتركونا في الجد...

غمغم حمزة نافضا عن رأسه سحر الأماني، منتصبا وسط جماعته في هيئة توحي أنه بصدد إلقاء خطبة أو محاضرة تستوجب لفت انتباه الحاضرين بدعوتهم للتركيز على مصير كلماته التي سيلقيها عليهم، الآيلة للتنفيذ الصارم والحرفي بلا نقاش أو تعقيب :

– يا جماعة، عليكم أن تعلموا أني رتّبت كل شيء، واتصالي الأخير بمروان الحوّات تمخض عنه وضع الرتوشات الأخيرة لرحلتنا، كل التجهيزات والمستلزمات جاهزة : زورق جديد يحمل عشرة أشخاص مهيَّأ بكل أسباب السفر لمدة تكفي لوصولنا آمنين، محرّك من صنع ألماني ذو قوة أربعة أحصنة يتغذى على المازوت، غطاء بلاستيكي للاحتماء من مياه المطر إذا سقطت بالرغم من أن الأحوال الجوية ليلة السبت إلى الأحد صافية، صدريّات النجدة. لم يبقَ إلا أن تحضّروا لرحلتكم ألبسة خشنة للتدفئة فالجو ليلا بعرض البحر بارد، مما قد يفقدنا طاقة الجسم، كما عليكم أن تحصلوا على حذاء بلاستيكي (Les bottes) ولباس من النايلون (kawi) وكمية من التمر والحليب ؛ زاد كافٍ قاهر للجوع وزامّ للعطش، إذ لا ندري كم من الزمن يستغرقنا بلوغ الضفة الأخرى من البحـر.

– قلتَ عشرة أشخاص، من هم ؟

– إضافة إلينا نحن الأربعة، هناك شابان من منطقة سيدي عبد الرحمن وهما خبيران بالبحر، وثلاثة من معارف « الحوّات » الذي لا يرغب في العودة هذه المرة ويصبو لبلوغ جنته لملاقاة حظه هناك.

شبّك مراد يديه متكئا بمرفقيه على ركبتيه، وأحنى رأسه غارسا عينيه في الأرض لبرهة من الزمن. ساد سكون داكن بين الأربعة، كأنهم يشتركون حزنا ألمّ بهم، أو كأنهم أدخلوا كل واحد منهم غرفة لا تسمع فيها حسّا ولا همسا. ينظر مراد بعين الحالم في مستقبله، يستكشف رحلته التي أصبحت تتبدى عنها سحب الرّيبة سائلا في جدية مفرطة بعدما انتبه لأمر رآه جللا :

– ماذا عن الاتجاه نحو الهدف ؟ الضفة الأخرى، الشاطئ المقابل بعيد من المرسى. كيف السبيل إلى الاهتداء إلى الطريق إن ظللناه في عرض البحر ؟ فهو كما تعلمون مجرم لا يؤتمن هدوءه ونومه وتياراته، فموجه خادع وغضبه العاصف محتمل على كل ندّ يدّعي العوم في موجه ومن يأنس بالخلوة في حضرته عند انتفاضه...

– لا تقلق يا صديقي المتعلّم...

ردّ حمزة الذي نصّب نفسه رئيسا لعصبته بحكم مجهوده في ترتيب الرحلة إلى جنّة الأحلام، فالكل يجيب أمره سمعا وطاعة، والكل يذلّ أذنيه بسماع بذاءة لسانه الفاحش اللافظ دوما لطيش التعبير الدنيء بمناسبة أو بدونها، كما أنه يرى – ورأيه في وجه السامعين صواب لا يحتمل الخطأ – أن العلم الذي في جعبة مراد أصبح وصمة يعاير بها بين الفينة والأخرى وسط هذه الفئة المنبوذة من المجتمع لفرط جهلها، فهم الذين يرون أن العلم الذي كرّس مراد من أجله حياته وشبابه وجهده لم يعد عليه بأية فائدة، عكس ما هو

عليه حال أغلبية المجتمع الساحقة من أهل الثراء الفاحش، المتباهين بهذه الخصلة التي ليس لها وجود في قاموس مراد المعرفي، متداولين حكمة قديمة خلّفها الاستعمار الفرنسي في الجزائر ولا تزال مدسوسة كسمّ يسري في الأبدان، محفورة في خلد الأذهان تتناقلها الأجيال موروثا شعبيا وثقافيا يثنيها عن عزيمة طلب العلم : « هاتوا فاهم لاه لا قرا » بمعنى أن الفاهم الأمي الذي لم يقرأ أو يكتب أجدى وأنفع وخير من المتعلم.

ثم أجاب حمزة مرادا قائلا :

– الاتجاه الصحيح شمالا تضمنه بوصلة بحرية جديدة يحوزها مروان الحوّات وهو خبير باستعمالها.

وأضاف في هذا الصدد مذكرا أصحابه ببعض تعليمات الحوّات :

– كما لا يفوتني أن ألفتكم أن حراس السواحل يمكنهم تعقبنا عن طريق التقنية الحديثة GPS والأقمار الصناعية ؛ لذا يا جماعة لا يمكننا أن نصطحب هواتفنا الخلوية حتى وإن كانت مطفأة، تحاشيا لأية محاولة تعقّب قد تطال قاربنا أثناء الرحلة فيخيب رجاؤنا في بلوغ الهدف.

– لا تقلق يا مراد ولا ترهق عقلك بالتفكير كثيرا، خذ لك رشفة وصفٍّ ذهنك... (خاطبه كمال الذي كان يجلس إلى جانبه الأيمن).

استسلم مراد أخيرا لرأي كمال واستلم منه آخر عنقود سيجارته التي كانت تتلوى بين أنامله وشعلتها تكاد تأفل، كقمر شارفَ على الهلاك آخر أيام الشهر.

****

مرّت ساعة ونصف، أحسّ مراد بدوار وصداع أظهره من خلال تلك الشحوبة التي اعتلت وجهه الوضّاء ملتمسا الصّفح عنه للانصراف

إلى شأنه، فكان له ذلك بعد موافقة مخنوقة من حمزة الذي زمّ حاجبيه مبديا امتعاضه من تصرفه، معربا عن ضيقه من فرقته المفاجئة للجماعة وكأنه قد أنهى مهمة ليلته بنجاح.

ودّع مراد أصحابه الذين تركهم منهمكين في تداول سيجارة أخرى كانت قد تراقصت بين شفاههم تبدي ابتسامات مشعّة من رأسها المحترق عند كل شهقة تخترق الصدور بكل عنفوان، ثم تحمل في أظرفة مغلقة من النبض النابع من قلوبهم الصدئة، لتزفها الأوردة الدموية إلى خلايا الدماغ المسافر بصاحبه في غسق الليل على جناح الأماني إلى جنته.

خيّم الصمت على الجماعة التي ثملت حشيشا عن آخرها، حتى أصبح يرى الواحد منهم الآخر ثلاثة نسخ أو أربعة، أمّا مراد فقد أدركت خطوات رجليه المسارعة ظلّه بعد أن غاب طيفه عن ناظر أصحابه وسط الشعاب المنحدرة نزولا، منغرسا شيئا فشيئا في ظلمة الليلة التي بدت حالكة بعد أن شبّت في الأفق أشكالُ سحب جرّتها بعض النسمات، حجبت نور القمر عن الأرض المغطاة بسواد الليل، موقدا لذلك مصباح هاتفه الخلوي ليستدلّ به إلى سبيله بين أحجار الوادي التي أعانته على تلافي التعثر في برك الماء المشكّلة من نجاسة وفضلات البشر، تنبعث منها روائح كريهة تسد الأنفاس، والتي ملأت فضاء الوادي ومحيطه بكل ألوان البعوض والحشرات اللادغة.

****

الكـابوس المفزع ذو الطّالع المشؤوم

دلف مراد إلى البيت دونما إيقاد مصباح الرواق، ظنّا منه أن والدته قد ماتت ميتتها الصغرى المعتادة، غير أنها كانت ممددة في فراشها تستظل بذكرياتها التي تحوم حولها، تؤنسها من وحشة الوحدة لساعات طويلة في انتظار إطلالة عزيزها الذي يملأ عليها البيت رغم قلة حديثها إليه، فوجوده قربها يعني لها الدنيا بما وسعت.

همّت الأم بالنهوض، ثم صوّبت سبّابتها إلى زرّ مصباح الرواق ؛ فانقشعت ظلمته بنور الضوء الذي نشر الرؤية بأرجاء البيت، فسألته عن رغبة في نفسه يرتجيها منها، فردّ في سكون بالامتناع، ملتمسا الانصراف دونما النظر في وجهها حتى لا تتفرس منه حالته النفسية، فهي تحسّ بنبضات قلبه إذا خفقت. وفي صمت وارب مراد باب غرفته التي انطوى تحت أسوارها، تعلو جفنيه نوبة نعاس اشتهت تخديره فتناولها بسرعة سادلا ستار ردائه على وجهه محدثا ظلمة قاتمة لا يرى منها إلا ما يرسمه بخياله، فسافر على جناحيها إلى حيث تصبو روحه، إلى جنته المرتقبة، وراح يتفنن في نسجها بريش الأحلام كفنان شارد في لوحته يعالج معالمها بألوانه المتسقة، حسب ما أملاه حمزة آنفا، ووفقا للمقاس الذي خاطه حديثه المعسول،

وكل من جلس إليه ممن اغترب قبله من معارفه، وكل من سمع أنه نال نصيبا من نعيم هذه الجنة الواعدة، التي احتوته واستعمرت ذاته وعقله وحياته، فبات مهووسا بها من رأسه حتى قدميه.

بعد ساعات إغفاء فقد فيها مراد وعيه وإحساسه، استفاق في جزع من أمره، غارقا في عرق بارد يتصبب من جبينه، لاهثا مرتعدا كأنه بات يصارع وحشا. صرخته المدوية رجّت لها آذان أمه، ملتمسا الغفران، طالبا النجدة، فارّا من كابوس مزعج.

جلست الأم وجلة إلى جانبه بعد أن فرّت إليه مهرولة في جزع، تمسح عن جبينه حبّات العرق وقد أحدث في نفسها هلعا كبيرا، أفقدها لذّة نومة هنيئة كانت تنعم بها، فدويّ صرخته للنجدة أحسته في أعماق قلبها لا يزال صداه يتردد بالفؤاد، سألته مستعجلة مرتابة :

– ماذا هناك يا بني ؟ اهدأ... أنت معي يا عزيزي.

– رأيت كابوسا مزعجا يا أمي... كابوسا مخيفا جدا...

– لا تخف يا بني... إنها أضغاث أحلام فقط... أنت معي الآن... استغفر وسمِّ الله يا ولدي، سيطرد عنك الشيطان... (إنها وصفة روحانية تقدمها الأم في طبق من حنين وإشفاق على صغيرها تسليما وإيمانا منها بوصية سيّد المرسلين لمن فزع من نومه إذا داهمه كابوس من أضغاث أحلام حاكها الشيطان الرجيم).

– أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله... رددها وراح يتلو بتأنٍّ وخشوع ورويّة سورة الإخلاص والمعوذتين.

****

ناولت الوالدة صبيّها قدحا من الماء، ارتشف منه جرعة ثم استند إلى حائط غرفته جالسا على راحة سريره وإلى جانبه أمه التي لاحت على وجنتيها اعتصارات من القلق خوفا على ابنها من أن يكون قد مسّه مكروه...

الأم متسائلة :

– ماذا هناك يا ولدي ؟ قصّ عليّ ما رأيته.

اعتدل مراد في جلسته وراح يقص ما رآه في منامه :

– رأيت نفسي غادرت البيت دون وجهة معلومة وسافرت بعيدا، تغمرني سعادة عارمة جعلتني أطير في فضاء الدنيا، ثم وجدتني في صحراء شاسعة ذات شمس حارقة وحجارة سوداء، لا تبشّر بحياة على مد البصر، كلها قفار كأني بأجداث منسية ألّمت بها عواصف ردمت معالمها ومحت آثارها، فمشيت حافيا تنهش الرمال من جلدي الرّضّ وأشعة الشمس تلفح وجهي وتنبش رأسي بألسنة لهب أشعتها كما في الرمضاء حتى حفيت قدماي وجف لجلدي عرقه وانتابتني نوبات الهلاك المحدق بي لا محالة، بعد أن لاح في الفضاء البعيد سرب صقور غنمت جيفة تتربص بها المنيّة، إلى أن أبصرتُ من بعيد واحة، بلغتها بعد عناء شديد وولجتها فإذا هي جنّة غناء، حدائقها زاهية، زهورها بهية ذات روائح زكيّة، فواكهها شهية، وجداولها تجري بماء منهمر رقراق، صافي الحوض، نقي المنبع، ينساب من ثنايا كهف عاتٍ مغروس في ظهره جذع قوس قزح بألوانه المتلألئة بفعل ضوء الشمس المتبدد في رذاذ الماء المتطاير من الشلال، تحرسه أشجار كثيفة شاهقة ذات خضرة داكنة، تظل ما حولها... لكنّي استغربت لون الماء أو شبه الماء الذي تصب جداوله كلها في نهر عذب تتراقص فيه حيتان مبرقشة فتزيده بهاءً

وجمالا، تسبح في حواشيه ببرك خفيفة شلّة من الصبية يتقاذفون غرفات الماء الأصفر، يلطمون بها وجوه بعضهم البعض في مرح ومزح، وهناك على سفح تلة خضراء ينتصب قصر عالي الأسوار، كثير النوافذ، جمّ الأبراج المحتوية للحراس. يا له من منظر جميل لم ترَ له عيني مثيلًا من قَبل !

تنهد مستغفرا ثم واصل قائلا :

– حول النهر يا أمي جموع كبيرة من الناس يسقون ويعبّئون في شراهة ما استطاعوا حمله من سيله الذي بدا لي غريبا، أنساني غرابتَه شقاءُ عطشي، فما هو بماء في لونه، وما ظننته يصلح إلا للغسيل أو الاستحمام، غير أن انبهار من كان حولي من الجموع به والتفافهم حوله وسعادتهم بالنّهل منه ما شاؤوا، جعلني مشدوها، نسيت من بهرجتهم الحافلة غايتي وحاجتي إلى ما أسدّ به رمقي وأردّ به فرط شعثائي وغبرتي، وفي محاولة مني إدراك كنه ما حولي، سألني شيخ هرم ألمّ به أرذل العمر وهجر الشعر الأسود جسده ولحيته المتدلية على صدره، سألني عن حاجتي، فطرحت عليه ما شغل بالي فردّ مجيبا أنه نهر من العسل لا يطعمه إلا من رضيه وارتضى شروطه ورضخ لقانونه وتنازل عمّا سواه، فقلت :

– وما قانونه ؟

فأجابني الشيخ :

– أن تعدم سجيتك ومن تكون وتلبس ثوبه مهما كان... أن تعيش بحلال أهله حسا ولمسا وذوقا حتى وإن كان حراما عليك... أن تكفر بأصلك وتنكر ذاتك وتؤمن به أصلا لك وتذود عنه بروحك... أن تذبح ضرع صباك وتبتر حبل أمك وما فطمتك عليه، وتحيي

روح خليلتك تصلى رحيقها حتى وإن كان من عنب خامر...أن تمجد المادة وتعبدها وتنكر أي دار لك ولذريتك غير ذي الدار ملاذا ومقرا وملجأ...

ثم واصل بعد أن صمت لبرهة يسترجع ما رأى :

– غادرني الشيخ الذي نصحني في النهاية بعدم الاقتراب من حافة النهر أو محاولة تذوق طعم ما يسيل في جوفه، إلا بعد أن أقف مؤمنا منصاعا للبنود المشروطة المسنونة بهذا النهج القانوني الغريب. لكنني لم آبه له وغالبتني شهوة عطشي وجوعي وحاجتي إلى هذا السائل الذي تراءى لعيني عذب الطعم حلو المذاق... فقد قال الشيخ أنه عسل مصفى، خامرني شعور أنه امتحن صبري عليه وحاول الحيلولة بيني وبينه ليحرمني نشوة التمتع بمذاقه وإشباع غريزتي من حلاوته المغرية ؛ فرحت أغمس شفتيّ في سائل النهر عبر حافته ساجدا في خشوع عابد، مستلقيا على صدري متكئا على كفّ يديّ حتى ابتل شاربي، أنهل منه كدابّة مسها ظمأ البيداء، تلعق من جدول ماؤه زلال صاف، وإذا بي أصطدم بطعم الزّقوم من فرط مرارة هذا السائل الذي أجزمت حالفا غير حانث أنه من حنظل منبعه وليس عسلا يخرج من بطون النحل. جلست القرفصاء أنظر في انبهار لمن حولي من الناس الذين اجترحوا منه راضين بطعمه، مستسيغين إياه في لذة أسكرتهم عن العوالم التي حولهم، ثم سمعت صوتك يأتي صداه من بعيد بالكاد التقطته أذناي، فالتفتّ خلفي وإذا بي أرمقك يا أمي تلوحين لي وتناديننني من أعلى هضبة رملية تعانق السماء، تطل على الواحة، تأمرينني في وجل يتبعه صياح بعيد الصدى صادحة : « يا مراد اهرب... يا مراد اهرب ولا تلتفت خلفك... يا مراد اهرب... اهرب... احذر وراءك يا مراد !... ».

استدرت ناحية نهر العسل المرّ وإذا بثعبان عظيم يخرج من قعره، رافعا رأسه الكبير الذي تهاوى عليّ من أعلى السماء في انحناء منحدرا صوبي... فاتحا فمه الواسع ذا الأنياب البارزة التي تتقاطر لعابا مسموما، يتوسطها لسانه الذي كان يتلوى كسياط الجلاّد... جزعت فارّا وجلا منه إليك أبغي الارتماء بين ذراعيك... ولمّا شارفت على النجاة بروحي متوليا عنه، فإذا برجلي تهيم بي على وجهي سقوطا في فم حفرة كبيرة ساقني فراغها إلى غياهب هاوية جبّ لم أدرك قعره حتى استفقت من غمّي فزعا إليك.

تبسّمت الأم وربّتت على كتفي ابنها وهي تقول له في حنان ورويّة يبعثان على الطمأنينة في نفسه :

– لا عليك يا ولدي، إن شاء الله خير... ما هي إلا أضغاث أحلام، الحمد لله أنك بسلامة وصحة وعافية.

غير أنها لم ترتح في قرارة نفسها التي حادثتها بنبإ يقين ستأتي به أيام قادمة تفسر لغز هذا الكابوس المفزع، رغم عدم تمكّنها من الوقوف على فك خيوطه التي قد ترجّح فرضيّة تخوّفها من مصير سيّئ قد يلمّ به.

****

صَدَعَ أذان الفجر من مآذن الصوامع منتشرا في الفضاء، متسللا إلى الآذان بلا استئذان، إيذانا بدخول وقت صلاة الصّبح.

الأم : قم يا بني توضأ وصلِّ، فستطرد صلاتك واستغفاراتك لله تعالى وساوس الشيطان الرجيم، وستهدّئ نفسيتك وتغشاك الراحة والسكينة بإذن الله، أليس الله سبحانه وتعالى بالقائل : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ؟

كان مراد إلى وقت قريب محافظا على صلاته، من رواد المساجد ومحبي مجالسة أهل الورع والدين، لما له من باع في التربية الحسنة التي جُبل عليها بين أحضان بيت الله منذ صباه، وما جنوحه عن جادة التقوى والصلاح إلا نتيجة ما اجترحه من معاصي وذنوب، أوقدتها حالته الاجتماعية المزرية التي أحس فيها بالمهانة والدناءة بين أقرانه، ومعاكسة طالعه لطموحاته، وصدود أصحابه عنه وازدرائهم لضيقه وفاقته التي وشى بها ملبسه الرثّ البالي، وكذلك امتحانات الدنيا الغَرور وسقوطه في شراك نزوات نورة ومغرياتها، اختتمها بهوسه إلى ولوج جنة الدنيا وجهده في بلوغها مهما كلّف الثمن ؛ ما حتّم عليه الانقياد لمجالسة حمزة وأمثاله من أصحاب السّوء.

سلسلة من محطات سوداء تجاوزها خلال حياته القصيرة، تداولت عليه أحداثها فأوهنت روحه وقضمت إيمانه على مرّ الأيام، صيّرته معتّم البصيرة، منكبا على وجهه في غفلة منه يرتشف من كل كأس خطيئة فتراكمت أدرانها النتنة ووثبت على نفسه فأردته مثقل الهمة كسير العزيمة في الهبّة لأداء واجبه تجاه ربه سبحانه وتعالى القائل : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِّنْهُم مِّنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾.

من غير تفكير ودون أدنى مقاومة، استجاب مراد لوالدته طواعية، ففزع إلى الوضوء والصلاة في خشوع ورجاء، فالإنسان كما قال تعالى : ﴿إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا، إلَّا المُصَلِّينَ﴾.

بعد الفراغ من صلاته، قام مراد بتلاوة جزء من القرآن الكريم، فلا أجلّ من قراءة القرآن الكريم عند الفجر لقوله تعالى :

﴿إِنَّ قُرْءَانَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، ولمّا اطمأنّت نفسه التي وعد خالقها جلّ جلاله باطمئنانها المحتوم إذا ذكرته، راودته سِنَة من النّعاس اقتادته إلى أحضان مخدعه ليغطّ في نوم عميق لم يستفق منه إلا بعد أن دقت شمس العاشرة ناقوس لفحتها الصيفية من صباح يوم الجمعة ذاك.

****

اللّمسات الأخيرة قبل الرّحيل

نشاط اليوم محدود، فَرُوح مراد الطيّبة المرحة السابحة في طاعة وهدي العزيز الحكيم على غير عهدها، في ظل الأجواء المشحونة بفرحة السفر إلى المستقبل الحافل، قد استفاقت من سباتها العميق لتملأ نهاره سعادة ورضا، ربّما لأنه يرجو أن يصادف في يومه هذا الساعة التي لا يردّ الله تعالى فيها دعاء داع بخير، أو لأنه يرتجي حفظ الله ولطفه به وإعانته على ما هو مقبل عليه، فالعبد مهما تدلل على خالقه وعصاه متماديا بالتعدّي على حدوده، لا ينفك يأوي إلى جناح رحمته وعفوه جل وعلا، إذا ألمّ به خطب من خطوب الدّهر أو كان مقبلا على أمر يستيقن مسبقا أنه لا يتمّ ولا تسهل طريقه إلّا بمباركة وتزكية إلهية ؛ وعليه فقد عقد عزمه على تأدية صلاة الجمعة في المسجد، مع المكوث أكبر وقت ممكن إلى جانب والدته ليتبرّك بدعواتها ويعبّئ جعبته بفيض حنانها، بعد أن يعرّج على شقيقته مريم، ثم يعود عمّه الذي أرداه مرض السّرطان طريح الفراش بعد أن رزئ به منذ ما يربو عن ثلاثة أشهر.

فعمّه في هذا العمر القصير الذي تبقى له من الدنيا التي يحس بدنو أجله فيها، انتابه شعور الفراق إلى مكان بعيد من غير رجعة

البتّة، ما جعله يهبّ إلى الصفاء والمحبة ينشرهما بين معارفه، وإلى التسامح والعطف الأسري والعائلي يذلل لهما الطريق إليه، من خلال ملامحه التي يستشعر فيها مراد معالم خلقة والده المرحوم رغم نبذه لعمه لما علق بذاكرته من معاملة خشنة وازدراء له في صباه – فالطفل الصغير لا ينسى أية معاملة يحظى بها من كبير مهما كانت سجيته طيبة، فهي تبقى محفورة بخلده، لا ينال منها طول الأمد، لتشكل فيما بعد مبدأ يساهم في بناء شخصيته – كما أن حقائق من الماضي، لم يشهدها لعهده الحديث بالدنيا، مما أطلعته عليها والدته، لاسيما إرث والده (خمسة عشر هكتارا هي نصيبه من الأرض الفلاحية المستغلة من قبل عمه بعد رحيله)، زادت من حنقه عليهم ومقاطعتهم عدا ما كان من مناسبات عيد ديني أو فرح أو مصيبة فيحضرها مرغما كغريب بدار لا يعرف أركان أهلها وأعمدتهم.

توجه بين الأزقة صوب المقهى المعهود، يسترجع تعليمات حمزة بشأن الأغراض اللازمة للرحلة، ويتذكر برويّة ما بحوزته، فهو قد حفظ عن أمه مثلا شعبيا يقول : « دَجَاجُ الرِّحْلَةِ يَبِيتُ مَرْبُوطًا » كانت تردده على مسامعه في صغره لمّا كان متمدرسا بالابتدائية متكاسلا في ترتيب أدواته، فقد كان ينهض كل صباح متخلفا عن أختيه، يبكي ويزعق صارخا، منهمكا في البحث عن كراسة اندست بين أغراضه أو تحت فراش نومه، أو قلم تاه تحت طاولة مذاكرته.

استعاد تذكير نفسه قائلا :

– اللباس الرياضي من النيلون، القلنسوة الصوفية السوداء والقفازات الجلدية، كلها في حقيبة الظهر، الحذاء البلاستيكي في الكيس، كلها مخبّأة تحت رفّ الشّرفة المحاذية لغرفتي.

إنّه يجدد جاهزيته لرحلته في بسمة تنمّ عن ظفره بما يرنو إليه. لم يبقَ له سوى استبدال العملة المحلية بالأوروبية، وعلى مستوى المقهى المعهود سأل عن السمسار حمادي فدلّه القهوجي عزوز على مكانه بإحدى زواياه. اشترى 150 أورو بمليونين ومائتي ألف سنتيم.

مراد للسمسار :

– حسبته بمليون وأربعمائة ألف سنتيم للمائة.

– الأورو مرتفع الأسعار هذه الأيام يا صديقي، مائة أورو بمليون وخمسمائة ألف سنتيم، فالمغتربون أصبحوا يتفطنون لمبادلة العملة وهم يفرضون عليها سعر شراء مرتفع في السوق السوداء. قل لي... هل أنت بصدد السفر لمكان ما ؟ هل حصلت على تأشيرة ؟

– عن أية تأشيرة تتحدث يا حمادي ؟ من أين لي بالمال حتى أسافر، فأنت تعلم أني بطّال ولا أبرح ساحة البلدية.

رد مراد وهو يلف عينيه يمنة ويسرة مداريا حقيقة ما يُقبل عليه عن عينيّ حمادي خشية أن يكتشف أمره، ليستطرد قائلا :

– والتأشيرة (Le visa) كما تعلم أصبحت عزيزة وصعبة الحصول، لا ينالها نصيبا إلا أصحاب البطون المنتفخة ومن يدفعون لأجلها، وخصوصا الذين تربطهم علاقات عمل أو دم بمغتربين هناك، أما البطالون فهم عالة ومنبوذون هنا كما هناك يا سي حمادي.

– صدقت، ظننتك ناويا السفر بلا تأشيرة، أو كما يقولون بتأشيرة البحر.

– ماذا قلت ؟؟ تأشيرة البحر ؟؟ ماذا دهاك يا هذا ؟! أرخيصة نفسي عليّ لهذا الحد حتى أسوقها للانتحار ؟؟؟ لا... معاذ الله...

وفي نفسه كان يردد قائلا :

- تكاد تكشفني أيها الماكر...

- هاهاهاها...

قهقه حمادي ثم أردف قائلا :

- أنت تقول ذلك، لكن كثيرا من الشباب طاروا على جناح الأمواج على متن قوارب هشة ونجحوا يا صاحبي، إنها الهدّة كما يسمونها. ولا أخفي عنك سرا، فقد سمعت أن هناك جماعة من بلديتنا تنوي الذهاب هذه الأيام للمهجر عبر البحر، فمثلا عزيز قد اقتنى من عندي 200 أورو، ولّما سألته أجابني أنه لا ينوي البقاء في هذه البلاد.

هنا سنحت لمراد فرصة التنصل من تحقيقات حمادي، قائلا في مقاطعة مفتعلة لحديثه الذي خاضه عن الشباب الناجحين في سفرهم و عبروا الماء الجزائري إلى يابسة إسبانيا :

- الحق كل الحق مع ذلك المسكين، فحياته هنا جحيم في جحيم، ما بالك بشاب يافع وذكي ومتربي مثل عزيز، وتَراه يلاقي ما يلاقي يوميا من معاملة قاسية من والده وزوجته، فحياة الغربة أرحم له فهو أيضا لم يحظَ بأية فرصة قد تجعله يطمئن للعيش بهذه البلاد، إن بقي على هذه الحالة فسيأتي عليه يوم ويرمي ملابسه ليلبسه الجنون وتتقاذفه الشوارع والأزقة، ويرتاد عليه الصبية بالحجارة كما هو حال الكثيرين ممن أعدموا حياتهم وتعجلوا آجالهم بالانتحار، والعياذ بالله...

- معك حق يا مراد، الحياة في هذه البلاد ما هي بحياة، علّ عزيز يحظى بفرصة هناك، فهو محبوب وذكي كما قلت، ربما سينجح

في مشواره إن استطاع أن يقطع طريق البحر، فقد قرأت في جريدة الأمس انتشال سبع جثث لشباب غرقوا وقذف بهم البحر في سواحل عنابة، كما تمكنت فرق الإنقاذ لحراس السواحل لغرب البلاد من إنقاذ خمسة وثلاثين شابا آخرين، من بينهم سبع بنات في مقتبل العمر، وهم في عرض البحر الذي جرفتهم تياراته إلى أغواره لأيام معدودة بعد أن نفذت عنهم المؤونة فظنوا أنهم أحيط بهم...

– متى كان هذا ؟؟ (تساءل مراد في ذبول ينم عن قرفه وضجره من كلام حمادي).

– منذ أسبوع تقريبا...

– ربي معهم... المهم... أستودعك الله الآن، فلدي مشوار يجب عليّ أن أقضيه مع تسليم الأموال لصاحبها...

سأله حمادي :

– أهي ليست لك ؟

– لا، لقد قلت لك سلفا. من أين لي بالمال يا صديقي ؟ تريد أن تعرف لمن هي ؟ إنها لصهري.

– صدّقتك، لا تقلق يا مراد.

مع هذا التصريح غير الصريح لمراد، انتفض عن مقعده مغادرا حمادي السمسار، ليتوجه في عجالة إلى دار عمه، وهناك التقى أبناء عمه وبعض أصدقاء العائلة الذين جاؤوا لعيادة العليل.

****

وقف على رأس عمّه وقد استبدّ به السقم، متأملا حاله، فيما تبسم له منشرح الوجه فور رؤيته مُدنيا له طرفا من فراشه ملتمسا قربه ودنوّه منه. لمدة غير طويلة، فرغت غرفة الجلوس من الضيوف لينفرد مراد بعمه الذي نادى بأعلى صوته الذي لا يكاد يبلغ آذان محاذيه، لتلبي زوجته النداء الذي استلمه ابنه الأكبر ونقله لوالدته، فجاءت مهرولة. طلب منها إحضار عقود الأرض، فاندهشت المرأة لذلك في امتعاض فألحّ عليها الرجل في غضب ممتزج بسعال حاد كأنه ديك مختنق، جعله يصعد برأسه في السماء باحثا عن رشفة هواء تعيد له روحه.

أحضرت في الحين الأوراق المطلوبة كأنها وضعتها على يد لتعود إليها كل حين، فاستلمها العم وأعطاها لمراد طالبا منه فرزها وإعادة قراءة محتواها ومضامينها له، وإذا بعينيه تقعان على عقد ملكية الخمسة عشر هكتارا باسم والده المرحوم. رمق عمُّه تركيزه ودهشته فتفرّس فيه عثوره على كنزه المستولى عليه. سأله العم :

– ماذا تقرأ يا بنيّ ؟

مراد في دهشة واستغراب :

– إنه... إنه عقد أرض يا عمي.

– باسم من ؟ اقرأ يا بنيّ.

– باسم أبي رحمه الله...

واقشعر بدنه من رأسه إلى قدميه، هذه الكلمة (أبي) لم يقلها قط بهذه الكيفية وبهذا الشّجن...

أحسّ العمّ بالشعور الذي انتاب مرادا وما قلّبه عليه هذا العقد بما احتواه من مواجع، فراح يطمئنه طالبا من ابنه إسناد ظهره بمسند يعينه

على الاعتدال في جلسته فقد أنهكه المرض وهدّ جسمه الواهن، ثم سلّم لمراد عقد ملكية الأرض قائلا لابن أخيه في نبرة تنم عن إحساسه بالذّنب العظيم الذي اقترفه في حق الأرملة وأبنائها اليتامى، طالبا الصفح والغفران منها في رسالة تلاها لسانه وطوتها دموعه :

– مراد... يا بني، خذ هذا العقد فهو لك، وهو من حقك أنت وأمك وأختيك، لكم أن تستغلوا أرضكم بدءا من هذا الموسم، وأن تتصرفوا فيها كما شئتم.

واصل العمّ كلامه في صوت متحشرج تعلوه نوبات السعال الحادة التي تخترق صدره في شدة وضيق :

– يا بني، أعمتني الدنيا والصحة وسنين الشباب عن الحقيقة والواجب ؛ فبددت وديعتكم وخنت أمانة أخي الفقيد. أرجو منكم أن تسامحوني وتغفروا لي ما أجرمت في حقكم... قل لوالدتك... تلك المرأة الزكية الطاهرة الصالحة النقية الشريفة، أن تغفر لي خطيئتي وما أجرمت في جنبها، أريد أن ألقى أخي هناك في تلك الدار وهو راضٍ عنّي، لا أريد أن أفارقكم وأنتم توصدون باب دعواتكم عن روحي...

ثم انهمرت عيناه فيضا من دموع الحزن والخزي والندم على الذنب، في توبة نصوح عساها تخلصه من براثن الخطيئة وأدرانها.

تسمّرت أهداب مراد وأعضاء جسده وتجمد عقله وتخدرت نبضات قلبه من فرط دهشته لما أقبل على فعله عمّه، فهو لا يصدق ما يسمع أو يرى. في الماضي القريب كان مطلب أسرته باسترداد الأرض أمرا مستحيلا، وها هو ذا عمه يتوسل لأمه المسكينة الفقيرة يطلب صفحها ويرجو عفوها... كان في وقت مضى مهيمنا عليها بسلطانه وسطوته وجبروته. سبحان مغيّر الأحوال.

غادر دار عمّه داعيا له بطول العمر والشفاء العاجل، وفرحة لا تسعها أية فرحة باسترداد ما كان لوالده ارتسمت على وجنتيه وتلألأت في عينيه، نسي في بهوها برنامجه بزيارة شقيقته، فهرول مسرعا صوب أمه التي تنتظره كعادتها بشرفة بيتها المطلّة على مسالك الأحياء المقابلة للعمارة.

على مائدة الغداء، قصّ مراد على أمه ما أقبل عليه عمّه من تصرف أذهله، فأجهشت بالبكاء رافعة يدها إلى الله العليّ القدير مرددة : « الحمد لله الذي أبان الحق قبل يأخذ روحي ».

****

أدى مراد صلاة الجمعة بالمسجد الكبير، مرتديا عباءته البيضاء التي أهداها إياه والد صديقه سعيد العام الفارط بعد زيارته للبقاع المقدسة لتأدية فرضه الخامس، مع طاقية بيضاء، منتعلا صندلا خفيفا، وبعد فراغه منها توجه صوب المنزل، والتفت ناحية هاتفه متصلا بنورة التي هاتفته مئات المرات وهو غير آبه لنداءاتها وحرقة قلبها ولوعتها المحفوفة باستيائها من تصرفاته وسلوكياته الغريبة نحوها والتي باتت تريبها من مستقبلها معه.

بلهفة استقبلت نورة مكالمة مراد التي اعترتها برودة مشاعره المعربة عن دنوّ أجل علاقتهما، فاستفسرته عن سرّ غيابه وعزوفه عنها بصدّ باب استجابته وإجابته لآهاتها الهاتفية، فردّ عليها بتهكم ولامبالاة :

– وددت إطالة الغياب رغم جنوح مشاعري وانجرافها نحوك، حتى يزداد شوقنا لبعضنا لهيبا وسعيرا.

– لكنك تعلم أنّي لا أطيق صبرا على غيابك يا حبيبي، وقد اتفقنا سلفا على عدم معاقبتي بأفكارك هذه التي تفقدني أعصابي.

– لا عليك... اصبري، فلم يبقَ إلا يومان فقط.

– متى سيأتي يوم الاثنين ؟ لقد طال أمده وأراه غير آتٍ !

زمّ شفتيه، متحسسا كنه قولها الذي ينمّ عن صدق مشاعرها هذه المرة، وفراستها التي صادفت حقيقة ما ستلاقيه، فراح يتبرأ من إحساسها كما تبرأ إخوة يوسف من دم أخيهم :

– لِمَ لا يأتي الاثنين ؟ لقد مرّت أيام شبيهات به كثيرا، أم أنك لم تشتاقي إليّ كثيرا فتريدينه أن يطيل غيابه وتثقل ساعات اليومين والليلتين الباقيتين الخطى ؟

– حرام عليك قول هذا الكلام، فأنا لم أقصد ذلك يا حبيبي، لكن شوقي إلى جوارك يقتلني ويحييني في الليلة آلاف المرّات، فأنت قد علّمتني وعوّدتني الاستئناس بصوتك كل ليلة، والنوم إلى جوار روحك وتلمّس دعاباتك في خيالي، فتملأ ليلي نورا بحضورك، لكنك في الأسابيع الثلاثة الأخيرة أراك غير راغب في صحبتي عبر هاتفك، فبحثتُ لك عن عذر يحول دون تراكم ظنوني وترسبها في فؤادي، إلا أنني لم أجد سببا وجيها يبرّر ما تقدم عليه كلّ مرّة، إلا إذا... كان هناك خطب آخر يجول بخلدك وأنا لا أعلم ؟؟؟

– لا لا يا حبيبتي...

ردّ مراد متملصا من تساؤلاتها، ثم واصل مبررا بإجابة شاعرية قائلا :

– لا شيء عنك يغنيني يا حياتي، إلا أنني... وكما تعلمين...

منهمك في ترتيب أموري لآتي إليك في أحلى وأبهى طلعة، أقطفك من بين كل الزهور لأزرع حبك في حديقتي فتملئيها روحا وريحا طيبا زكيا.

بينما بادرت نورة بالاستجابة للحديث المعسول الذي جاد به مراد عليها، قام برفع صوته عاليا : « ألو... ألو... هل تسمعينني ؟ » في إشارة منه تدل على انقطاع الصوت أو وروده مبهما غير مفهوم، أو كأنه لا يسمعها لسوء تغطية الشبكة، ما أدى به إلى إنهاء المكالمة وإطفاء هاتفه. إنه يحظّر طبخته السحرية الأخيرة للمفاجأة التي ستكون بالنسبة لنورة قنبلة موقوتة ستوئدها حتما وستقتل كل ذرة حب في قلبها، فمراد بالنسبة لها الفرصة السانحة الأخيرة لإنقاذها من شبح الوحدة وعذاب اليأس وسنينه التي أرهقتها.

****

ها هو ذا يمتّع نفسه بكلام والدته المعسول الصافي الرقراق المنساب إلى فؤاده كغيث أحيا به الله تعالى الأرض بعد موتها صيفا كاملا من القحط، تخالجه أفكار بمتعة الرحلة البحرية، تنقض عليه وساوس المخاطر المحدقة بهذه الرحلة، لأن البحر وأغواره لا يعلمها أحد ولا يأمن مكره عوّام.

الأم في حيرة من أمرها لما هو عليه حال ابنها، فقد أبهرها بقربه المفاجئ منها ولهجته الطفولية اللطيفة التي أبداها بغتة، فوخزتها شكوك وظنون سوء قريب قد يتربّص به، ثم صرفت نظرتها عمّا خالجها بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، راضية بما هو عليه حال ابنها، متضرعة في صوت خفيض أن يداوم على هذا المنوال، فهو كما عهدته صافي الطّويّة، يحب الابتهاج والفرح، ميّال لها قريب منها أكثر من

أي شخص آخر في حياته، وهو كعادته لا يجسر على عدم مصارحتها بأي أمر يقبل عليه، إلا أن سرّ سعادته وتفاؤله هذه المرّة منطوٍ على فراق يجهل مدته واحتمالات انقضائه، لا يمكن أن تتحمل الأم وقعه على مسامعها، فانفرد بالمحافظة على كتمانه كي لا يسبّب لها ضيقا أو يلقى منها صدّا أو دعوات شرّ تنئيه عن مراده.

اقتربت ساعة الطيران إلى المجهول، مراد يرتّب أفكاره ويعيد مراجعة وثائقه التي ستصحبه في رحلته (جواز السفر الذي لا يحمل أي بيانات غير تاريخ صدوره و نهاية صلاحيته وهويته الكاملة وطابع الدمغة، دبلومه الجامعي بنسخته المترجمة إلى الفرنسية، وبعض شهادات ميلاده وميلاد والده وجدّه، مع إقامته وعزوبته مترجمة هي الأخرى بنفس اللغة)، ضم وثائقه ودسّها في بطن كيس بلاستيك معلق إلى عنقه تحت سترته، أحكم إغلاقه حتى لا يطال محتواه بلل أو يشوبه مكروه، فما استقاه من أخبار عن حال الإدارة بجنّته المرتقبة من استقبال حافل للمتعلّمين، ومدى الاهتمام بهم في اختيار أحسن الوظائف، وما يحظون به من مزايا تضمن لهم عيشا رغدا، زاده ثقة في نفسه وطرد عنه وساوس التردد وأزال عنه كوابيس الخوف من المجهول الذي قد يتربص به في عرض البحر وما بعد البحر من حراس سواحل إسبانيا، ومن الفرنسيين عبر الخطوط الحدودية.

****

فاتحة المشوار المجهول

عقارب منبّه مراد العرجاء، تلفت ناظره من فوق سطح مكتبه، مشيرة إلى حدود السادسة إلا ربع مساءً ؛ حان موعد مغادرة البيت، حمل زاده وأغراضه، ودّع أمه بحرارة اغرورقت نتيجتها عيناه دمعا، إلا أنه كتم دموعه وصدّ سُحُبها ولجم رعودها، نافثا عنه وازع الضعف تجاه هذا الموقف الحرج، بتنهيدة موسومة بالشفقة على والدته، موهِما إيّاها بمشوار صيد بحري سيقضيه للترويح عن نفسه، فودعته وهي تحيطه بنظرات حنان وحب كبيرين مرتلة جملة من الوصايا الناصة على الحيطة والحذر، حتى أفل بين الأزقة.

أذن مراد لهاتفه الخلوي بالاتقاد ليتلقى مكالمة حمزة يسأل عنه، مجيبا في سكينة وثقة أنه على مشارف نقطة الانطلاق المحددة بمخرج مدينة تاج الجنة باتجاه الشمال، وأثناء المكالمة حشرت مكالمة أخرى قادمة من نورة أنفها منتظرة ردّا منه، وباستقبالها تحشرج صوته أمام لهفة معجونة بامتعاضها معاتبة جفاءه، فرد في نبرة تنم لغتها عن الإيذان بطعن الحب الذي بينهما بخنجر الفراق قائلا :

– نورة، أرجو أن تسامحيني، فإنني من هذه اللحظة لا يمكنني أن أكلمك، وعلاقتنا كان يجب عليها أن تجهض وهي في مهدها. أشكر لك كل مساعداتك وكل ما قدّمته لي من حب ووفاء وإخلاص...

غير أنني تيقنت مع الأيام أني لا أناسبك ولا أستحق كل ما لاقيت من إحسانك وعطائك وعطفك...

– لكن... (ردت نورة مقاطعة كلامه) ما هذا الكلام ؟ كيف تقول هذا ؟؟! أنا لم أفعل شيئا لك !

– اسمعيني للآخر من فضلك فليس لدي وقت.

واصل حديثه الذي نزل عليها كصاعقة شقت قلبها إلى نصفين :

– حبي لكِ كان صادقا، لكنه كان خطأً فادحا استعمرته الخطيئة واستولت عليه شهواتنا، ليس فيه أي ميزان غير النزوات الجارفة والتفكير في أنفسنا، فانتهزنا هموم وانشغالات بعضنا بعضا لنعيش ما عشناه في ثوب زائف، نصنع الحب ونخيطه كل منا على مزاج الآخر وهواه، لهونا وأكلنا وشربنا وتمتعنا في إسراف، لكن... لكلّ بداية نهاية، وقد عقدت العزم على تقرير النهاية مع كل شيء في هذه البلاد واستئصالها من حياتي التي سأكتب لها صفحا جديدا...

– ماذا فعلت لك ؟ (قاطعته نورة وهي تشهق في دلالة على انهمار عينيها الواسعتين بأنهار دامعة بلّلت خدّيها الورديّين)... لماذا تعذبني وتريد أن تقتلني بهذا الكلام ؟؟؟

– المهم... يجب أن أنهي المكالمة، شوفي... ابحثي تحت الأريكة التي جلست عليها آخر زيارة لي في بيتك، ستجدين رسالة كتبتها لك من أجل هذه اللحظة وستفهمين منها كل شيء.

– رسالة ؟؟؟

– نعم، والآن أقول لك الوداع يا نورة...

– مراد، مراد... ألو، ألو... ردّ عليّ...

الهاتف يأتي بطنين يخبر عن انقطاع الخط. أقفل مراد سكّته تاركا نورة حطاما تتقاذفه رياح الفراق.

****

فارق مدينته معتليا سيارة الأجرة ذات الخمسة مقاعد، متكئا على بابها الجانبي خلف السائق، منطويا بنفسه عن بهرجة أحدثها صاحباه على وقع موسيقى الرّاي، معربين عن سرور يشعّ من أعينهما كأنهما فرّا من قفر لازمهما عمرا طويلا. وراح مراد في خلوته الصّامتة يتأمل الأشجار المنسابة في فوضى الجفاف على جانبي الطريق، وتلك السّهول الصفراء والبنّية المحدّثة عن قهر شمس الصيف، والوديان التي خلت منها الحياة تبرق في جوفها وعلى ضفافها أصلاد الصّفا التي انتصرت على الأعشاب الجافّة جذورها وسيقانها فمالت عطشى للخصوبة، حتى نالت من هامتها قطعان الأغنام والبعير وطرا في جولاتها الحثيثة بحثا عن الكلإ... يجول بناظره في الأعالي الحاملة على أكفّها أشجارا خضراء لغابات الصنوبر التي تتراءى خلالها بعض القرى والمداشر المأهولة منها والمهجورة، كأنه يلقي إلى ما حوله وما تقع عليه عيناه من صور الطبيعة سلام الوداع، يريد إلهاء نفسه عمّا هو بصدد تركه وراءه : أمّه الوحيدة، عشيقته التي زفّها للوحدة قبل الأوان بعد أن وكز أمل الزواج بها فقضى على حلمها الوردي الذي كان على قيد أنملة من حظها، قطعة الأرض التي أعادها عمه العليل لأسرته بعد أن يئس من الحياة الدنيا فآثر الآخرة وسعى في تعبيد طريقه القصير إليها، طلباته للتوظيف التي ملّ انتظار الرّدّ عليها، شجرة الزيتون العتيقة، مقهى الحاج فرّاح...

****

بلغت السيارة المرسى. المدينة الساحلية الصغيرة والهادئة، تضم سكانا بسطاء ينتشرون في تناسق على جانبي الطريق الوطني رقم 11 شمال شرق البلاد، الذي يقسم المدينة نصفين. ميناؤها المترامي على طول شاطئها يحضن بعض السفن التجارية وقوارب الصيد المصطفة على ضفافه في انتظام. منظر الغروب قبالة البحر رائع، فالشمس تتراءى كأنها تطفئ لهيبها في الماء، فتنشر في نقطة التقاء السماء بالبحر شعاعا أحمر معكوسا إلى أطراف البحر كأن به نزيفا خلفته نار الشمس فجرحته بغوصها، غير أن هدوءه ينبئك بقوة كامنة في هذا المخلوق العجيب الذي تستشعر فيه عظمة الخالق، فكأنه يمهد لهذه الشمس التي انحدرت دون إذن في أعماقه لتذوب أوداجها وتتلاشى أنوار أطيافها، فتنطفئ شيئا فشيئا حتى تصفو للأفق صورته ويعمّ وشاح من السواد السماء التي تلتحف الليل كرماد خلّفه حريق مهول شبّ بغابة خضراء أتى عليها كاملة، لا ترى منها إلا الفحم الأسود. وعبر حقل البحر الفسيح تلمح ومضات أضواء باهتة أو بارزة لسفن وبواخر تتأهب لنزول الميناء بعد مهمة صيد أو رحلة تجارية، محملة بقوت العباد مما جادت به بلاد العجم من أساسيات الحياة، مقابل مخزون بترول خام أو غاز خزّنته أرض الجزائر في حرص لنائبات الزمان ؛ فأيدي الرجال في بلادنا عزفت عن إطعام الأرض بعد أن شيّعوها بالقول أنها عجوز عقيم، واتهموها عاقرا لا تلد إلا مرة في العام وابنها زهيد العمر نحيل الجسم لا رمقَ يُسَدّ، فأبواق الزاعمين رياسة وتدبير عيش الناس استأنسوا بثروتها الجوفية بأعالي الصحراء الكبيرة، وأعابوا على ثروتها الفلاحية رغم التكنولوجيات الحديثة التي طورت الغلّة وأحدثت في الأرض زوابع زراعية عبر دول العالم المتطورة التي

ارتقت بالفلاحة مصدرا تستمد منه قوّتها الاقتصادية، فباتت أرضهم أرنبا تحمل كل شهر وتلد في الشهر عشرا.

لقد أغفل أصحاب القرار صنيع أرضنا التي كانت في وقت الانحطاط الصناعي ودودا ولودا تكتفي إذا جاءها المخاض بيد العامل الفلاح البسيط صاحب محراث الخشب الموثوق إلى ظهر بعير يجره إليه... تعيل البلاد عبيدا، عربا وعجما مستعمرا، تجود على جيرانها بخيرها الوارف، حرص قوّادها آنذاك من الحركى والقيّاد خدّام "الكولون" على ضمان العلف لبشر أوروبا وبهائمها ؛ لهذا السبب ومن أجله لا بد من ترك أهل هذه الأرض التي تبرأت منهم ومن أمثالهم من قبل.

****

مراد الآن مع رفاقه أمام بيت متاخم لشاطئ المرسى الرملي – أين يمتد على بعد أمتار قلائل زورق أزرق وأبيض اللون، فيه مجذافان خشبيّان – البيت سطحه من قرميد وحيطانه من طوب، يأخذ هيئة إسطبل مهجور، وبجعبته غبار كثيف استعمر كل زاوية منه، يخبر عن قصة بهائمه التي هجرته منذ أمد. ولجه الأربعة بعد أن فارقوا سائق الأجرة محمّلين بأغراضهم الخفيفة، واستقبلهم مروان الحوّات وراح يعرّفهم على خمسة شبان مفترشين حصيرا رثّا، مسندين رؤوسهم إلى حقائبهم. وفي جلسة كانت فناجين القهوة رائدتها، اجتمع العشرة يتفقون على الخطة الآتية المسطرة من طرف الحوّات :

– نقضي وقتنا المتبقي لغاية الثانية صباحا هنا غير مبارحين المكان، حتى يخلوَ الجو نهائيا، ولعلمكم، فاليوم هو يوم راحة

لرواد البحر، والجو هادئ والرؤية متاحة تحت ضوء القمر، لذا يجب علينا أن نتيح لمناوبة حراسة السواحل ساعة الراحة في غسق الليل، فنتحيّن فرصتنا ونغادر الشاطئ على متن القارب القابع خارجا، متوجهين في جنح الظلام على بعد 10 كلم عن الشاطئ، ثم نتوجه غربا حتى نشارف على الوصول إلى أقرب نقطة للضفة الأخرى من أعالي شواطىء أرزيو بوهران، فمن هناك وعلى توقيت خيوط الفجر الأولى نتوجه شمالا لمدة سير لا تفوق سبع ساعات، نكون مع انتفائها قد وصلنا وجهتنا المقصودة، وهناك كل واحد منا يقرر مصير مسلكه، لأن الحراسة مشددة عبر سواحل إسبانيا هذه الأيام جوا وبرا وبحرا...

– هل أحوال الجو هذه الليلة مناسبة لسفرنا ؟ فإني أشتم رائحة تقلب جوي...

سأل أحد الخمسة من الشباب الذي تعبّر عضلاته المفتولة وجلده البني عن ارتياده البحر.

– الضامن ربي في هذه الرحلة يا صديقي، ما استقيناه من مصالح الأرصاد الجوية أن الجو معتدل صافٍ لا غبار عليه. النجاح ليس مضمونا مائة بالمائة، وهول البحر لا يمكن معرفة أوانه في مثل هذه الأيام المشارفة على دنوّ أجل الصيف وميلاد الخريف، فمع نهاية أوت يتقلب مزاج الطبيعة كما تعرفون، فهي تحن في هذا الموسم إلى زفير السّحب لدرّ الغيث... لكن ما أؤكده لكم أن الجو مهما اضطرب – ولا أظنه يفعل هذه الليلة – فلن يضر رحلتنا بشيء.

رد الحوّات و في عينيه نظرة تحدٍّ لصاحبه السائل ولخصمه الصامت خارج الكوخ...

عمّ سكون لجم الجميع عن الكلام، حيث وثبوا منكبّين على فناجين القهوة يحتسونها مستنشقين دخان سجائرهم في تمعّن فاحص مرتاب.

– يا جماعة، أذكّركم... ممنوع الهواتف النقالة، ممنوع التدخين، وممنوع أية إشارة ضوئية، فقد يكشف حراس السواحل أمرنا، وإذا حدث أي طارئ أو أصاب أحدنا أي مكروه فهذا لن ينئينا عن إنهاء رحلتنا. بمعنى آخر، من يريد العزوف عمّا هو مقبل عليه فليقرر الآن، أما إذا حدث وأن انطلقنا في عرض البحر فلا رجعة للوراء مهما كان الداعي... لن يكون خيار ثالث عدا الموت أو النجاة بالوصول إلى الضفة الأخرى.

كسر حمزة لحظات الصمت بهذه النصائح التي جاءت مسداة في شكل تعليمات وتحذيرات من مغبة الاختلاف أو التراجع، مع جس نبض الجميع حول مدى عزمهم على خوض غمار هذه الرحلة.

قرار صعب جدا ومصيري، قد يحدّ من نفس أحدهم ويأتي على أجله، خصوصا أنه يتعلق بقضية حياة أو موت، فلا شيء أعزّ أو أغلى على الإنسان من نفسه. أمام هذا الموقف الحاسم، الكل يحدّث نفسه مستجمعا شتات أفكاره، مسترجعا في ذهنه الذي دار بسرعة البرق، دافع الهجرة ومراميها ليشحذ همته ويزيد نفسه قناعة وإصرارا أكيدا على ما هو بصدد الإقبال عليه ؛ فرددوا في تواتر مبهرج : « عندك حق عندك حق، اللي ما هوش تاكل على روحوا يرجع لدارهم ويسامي امه » (بمعنى أن الذي لا يستطيع القيام بهذا المشوار ما عليه إلا الرجوع أدراجه والركون إلى أحضان والدته).

تعالت قهقهات الحوّات المنمّة عن استهتاره واستخفافه بعزائم الشباب الذين يزيد فارق العمر بينه وبينهم عن الخمس عشرة سنة، فهو قد شارف على السادسة والأربعين، ومنهم من يصغره بنصف سنّه، ثم استطرد قائلا :

– اليوم سنكتشف إن كنا قد اصطحبنا رجالا يعوّل عليهم في بناء مستقبلهم بأنفسهم، أم أنّ ظنّنا سيخيب مع صبية صغار ابتعدوا عن أحضان أمهاتهم.

– رجّالة ونص يا سي الحوّات... وستثبت لك الساعات القادمات ذلك.

ردّ عزيز الذي ضاق ذرعا بهذا الكلام الذي لم يستسغه عقله الضيق ومزاجه العكر، والذي رآه غير مجدٍ ومثبطا للعزائم. وقاطعه الحوّات قائلا :

– يا جماعة... يلزمنا الآن أخذ قسط من الراحة. فليبحث كل منكم عن زاوية أو ركن يجنح إليه مفترشا ما استطاع من قش أو فرش أو لوح لينام عليه سويعات، فأمامنا ليل طويل ورحلة بحرية لا ندري بماذا ستجود علينا من مفاجآت، كما أنصحكم بعدم مبارحة هذا البيت كي لا يكشف الصيّادون أمرنا وما نبيّت له من فعل، حتى لا يشوا بنا لحراس السواحل.

ختم الحوّات كلامه وهو يوارب من الخارج على أصدقائه باب البيت المهجور إلى غاية عودته إليهم في غسق الليل، كأنه دسّهم وديعة في صندوق يكنز سرّا خفيّا حتى لا تصل إليه عين سارق ولا يد طامع، ولا يخطر على بال فضولي متطفل.

****

تفرّق الجميع في صمت غير محمود، مقطبين أجنحة حاجبيهم، كل يميل إلى ركن رآه مناسبا لغرض أخذ رشفة من النعاس قد تُذبل جفنيه فيخمدان عن التحديق في مستقبل هذه الرحلة التي لا تبشر بخير... مستأنسين بأحلامهم وأمانيهم التي ساقتهم بلا تريث أو تردد إلى جنتهم المنتظرة.

استل مراد حقيبته الظهرية وأوسدها إلى رأسه ضاما ركبتيه إلى صدره غامسا بينهما يديه، صادا عن المجموعة بظهره، صانعا جوا من السواد قبالة الحائط ذي الثقوب المتناثرة التي تسللت إليها بعض أنوار مصابيح المدينة، يحدق في الغد ويرسم بريشته الخيالية ما خالجه في قرارة نفسه من ارتياح مشوب باضطراب يتحين له فرصة سانحة ليطرده عن نفسه فيهنأ بسويعة نوم تعينه على كسر الإرهاق الذي أحس به فجأة قبل بداية الرحلة البحرية.

****

المطية على ظهر البحر

« عظمة المخلوق من عظمة الخالق »

– هيا... هيا يا شباب انهضوا لقد حان الوقت...

يلج مروان الحوّات البيت المهجور أين يقبع طاقمه البحري، وهو يزعّق بصوت مبحوح ملتوٍ تلتقطه الآذان الصّاغيات في تمعّن لحالته الثّملة.

استفاق مراد كغيره من الرفقاء، فزِعا من غفوته التي التمس لذّتها ونشوتها المسكرة للأجفان والأبدان، مطلّا على ساعة هاتفه الخلوي السّاطعة شاشته في غمزات متتالية لثواني الساعة 02 : 01 ليلا. إنّه لم يتخلص من هاتفه لحدّ الآن رغم توصيات وتعليمات زعيميّ الرّحلة كلّ من الحوّات وحمزة صديقه، لاعتقاده أنه الوسيلة الوحيدة التي قد تنقذه من موت محتوم إذا حدث طارئ في عرض البحر – لا قدّر الله – فهو متأثر كثيرا بما ترويه الصحف اليومية عمّا يتعرض له رحّالة الموت من مصير مشؤوم أحيانا، متطلعا كل مرة إلى حالات النجاة الضئيلة التي كانت شرارتها لمسة هاتف حدّدت وسائل الاتصال الحديثة GPRS و GPS مواقع الغرقى والتائهين.

انكبّ مروان الحوّات على كومة من القصب البحري اليابسة، كانت مزمومة بحبل، مرمية فوق صندوق حديدي صدئ، يزيحها عن كاهله ويفتحه كاشفا عن قعره الذي غمره بلوازم الإبحار المتمثلة في صدريات العوم وأدوات الإنارة، وإلى جانب الصندوق كانت ستة دلاء زرقاء اللون معبأة بالمازوت، حملها الفريق وغادروا البيت المهجور وخردواته فاسحين لما اعترى جوّه من غبار حتى يستقر من جديد في ساحته.

ارتدى الجميع الملابس اللازمة للإبحار، كجند تسلّحت لخوض غمار معركة، وانطلقوا الواحد تلو الآخر صوب الزورق الذي زاد طوله عن 03 أمتار بإنشات، استقل مروان الحوّات مركز القيادة ممسكا مقبض المحرّك الميكانيكي لتوجيه الزورق، فيما دفعه أربعة منهم داخل مياه الشاطئ في صمت يعلوه همس وإشارات من غير ضوضاء ولا أضواء، وباعتدال الزورق على ظهر الماء قفز باقي الركّاب معتلين بطنه ليحملهم في هدوء وسكينة، عدا ما أحدثته زخّات الماء التي تلاطم قعر الزورق فتميله في دعابة كدعابة عشيق لعشيقته وهي في أوج غنجها وشبقها إليه.

ابتعد القارب شيئا فشيئا عن الشاطئ، وبدأت تتراءى أضواء المدينة كرؤوس قناديل تنشر السلام بأرجائها. لا شيء يُسمع غير رقرقات ماء البحر، لا ترى شيئا غير الأنوار التي تبتعد عن ناظر العين مع كل جذفة يجذفها حمزة وعزيز لتدفع بالزورق وركّابه إلى الأبعد، فتكاد مدينة المرسى لا ترى منها إلا أضواءً قليلة كأنها واحة من نجوم السماء اجتمعت في الأفق محيطة بكوكب يستشف بريقه من ضوء القمر، تحفّها سحب الظّلام القاتم من كل مكان.

****

سبحان الله، ما أهدأ البحر وما أقتم لون ماء البحر ليلا ! يا لعظمة الخالق ! هذا المخلوق الغامض في حرصه المهيمن على الأرض بسكونه وركونه وركوده واكتساحه دون منازع، تستشفّ منه ضعفه، كأنه كائن واهن لا يقوى على مقاومة نسمات الهواء الباردة التي تقوضه وتسخر من نومته العميقة، فتدغدغ موجاته تصيّرها إلى الشواطئ في انتظام محسوب.

زاد الزورق ابتعادا عن اليابسة، منغمسا في الجانب المظلم من البحر، وغابت أضواء المرسى، لا ترى الأعين إلا السواد يحفّها من كل صوب وحدب، إذا أخرج أحدهم يده لم يكد يراها. يقوم مروان الحوّات إلى محرّك الزورق يلفّ حبلا رقيقا حول دارة حديدية موصولة إليه، ثم يشدّه إلى صدره بقوة فيسعل المحرك ثم يصمت، عاود الكرّة للمرة الثانية وها هو ذا يصدع بالنّهوض ويغمر المكان بهرجة. أشار مروان إلى حمزة وعزيز بالعزوف عن التجديف، مطلقا العنان للمحرّك الذي طار بالزورق غامسا مؤخرته في الماء، رافعا رأسه المحدّب في السماء، فتراه ينفذ في تمايل وتأرجح، منتصبا للأعلى، يتلاطم عنقه مع الأمواج الصغيرة التي شكّلتها نسمات الرياح، محدثا شرخا في الماء الذي يخترقه كسكين حاد أعان الجزّار على شق صدر خروف رضّ نصفين، وبمؤرخته يحدث المحرّك زوبعة مائية ينثرها عاليا، فانتشرت فقاعاتها الهوائية على خط طويل مشكّلة زبدا بحريّا يتلاشى بهدوء الماء عن حركة المحرك ومروحيته المنغمسة تحت الزورق.

المجموعة المسافرة في هذا المحيط المظلم وهذا الهرج الآلي المتناغم بين المحرك وماء البحر، ممسكة بحبل الأمان المشدود على

طول حافة الزورق، تجابه بوجوهها شدّة الهواء المنبعث من سرعته الخارقة للماء بإثارة وكبرياء مصرّ.

سار الزورق بركّابه قرابة ثلاث ساعات وسط البحر، لا يرون شيئا كأنهم ببيداء جدباء، يترقّبون - مستمعين لصخب المحرّك الصّادح بصوته المقرف الذي صمّ الآذان - وميضا يؤز الظلمة الحالكة أو شهبا ترسلها السماء رجما للشياطين المسترقين السمع في السماء الدنيا. ومع بزوغ أولى خيوط الفجر بدأ الليل يهزّ أمتعته ويهمّ بالرحيل يجر وشاحه الأسود من الأفق وفي أطراف النظر على مدّ البصر آذِنا ليوم مشمس جديد، فبعد برهة أطلّت شمس الصباح باسمة تدغدغ موجات البحر الرقيقة الصافية المتلألئة، وسطع النهار الذي انحدر خلفها مسرعا، على الشباب الذين لم يتكلّموا إلى بعضهم إلا قليلا لساعات، مسافرين بأعينهم في أبعاد المديد وقد استبد بهم بحر شديد في ذهول مكتوم، كأن الحياة انقطعت، فلا وجود لكائن يتحرك فوق الماء أو تحت فضاء السماء، عدا سحب بيضاء متناثرة بعيدا في فسيحه.

****

أطفأ الحوّات أبواق المحرك سانحا له بأخذ قسط من الراحة لمواصلة المسير فيما بعد، ثم فتّش في جيب سترته البلاستيكية البحرية، واستخرج بوصلة لينكبّ عليها يميلها يمينا وشمالا، يحدّد الاتجاه المناسب، فيما استل مراد هاتفه الخلوي خفية مداريا الأنظار عنه، باحثا عن إشارة، ليكتشف أن خطّه خارج مجال التغطية، وهناك تيقن حقيقة أنه ابتعد عن الجزائـر.

كسر الحوّات مروان الصمت المطبق على المجموعة قائلا :

- نحن في الاتجاه الصحيح يا رفاق، شارفنا على الحدود البحرية مع إسبانيا، لم يبقَ لنا على دخول مجالهم البحري إلا أربع ساعات، وعليه يلزمنا الآن أن نرتاح قليلا ونريح المحرك. المهم، لا تكثروا من الحركة حتى لا تفقدوا الزورق اتزانه، كما عليكم نشر أعينكم في كل صوب حتى يتسنى لنا الفرار من أية دورية مراقبة بحرية محتملة.

توصيات الحوّات شكّلت عالما جديدا من عوالم البحر بالنسبة لمراد ورفاقه، لكنه لم يعرها اهتماما، فراح يعرب للبحر عن اشتياقه له، فهو من مرتاديه ومصاحبيه الأوفياء، فكم جال وصال في دربه الشاسع الواسع يناظره بخياله، وكم حكا له من أسرار وأماني، وكم تبادلا الحكايات عن أحلامه... ثم مال بطرفه صوب هذا الصّديق الحميم الذي لم يكشف له لحد الساعة عن حقيقته وسرّ قوّته، محاولا التفتيش في جوفه عن الحياة، فلمح أنواعا شتى من الأسماك والحيتان الصغيرة والمتوسطة الحجم، المختلفة الأشكال والألوان، تسارع الخطى في اتجاهات متناغمة متغيرة سريعة، باحثة عن ما يسدّ خماصها وهي ترقص معا كأنها تحتفل برحلة مراد وترنو إلى مشاركته فرحته المرتقبة، تعلوها صورته التي عكستها مرآة الماء تلاعبه في طي شكل وجهه حسب ذبذات الماء.

رفع رأسه ليسرح بعينيه يعبّؤهما بالمنظر الجديد، الفراغ الذي يملأ كل شيء، سطح البحر، الأفق والسماء بفضائها الفسيح، لا يرى إلا الماء الأزرق بزرقة السماء، كأن الحياة انتهت في البحر، إنه كالصحراء إذا حامت حول صاحبها برمالها مدّ البصر، أحس كأنه ذرة قذفت بالقفار أو كإبرة غرزت بجوف كومة من الصوف يستحيل

التقاطها. لقد شَعَر كأنه بلغ آخر الحياة وحدود نهايتها التي تعلقت على بابها لافتة مكتوب على ظهرها : « هنا تنتهي الحياة ». انتابه فجأة خوف من هذا السكون، اقشعرّ له بدنه، فزمّ ثغرات نفسه المرهفة التي تسرّب منها بالدخول في كلام مقتضب مع صديقه عزيز الذي كان جالسا إلى جواره يلتهم سيجارة محشوة بالحشيش.

****

بعد برهة دامت قرابة الساعة هدأ فيها القارب ساكنا على ظهر الماء يتأرجح كقشة عبثت بها الرياح تعصفها في هبة واحدة في مكان سحيق. السكون يخيّم على كل شيء، لا طيور، لا جبال تتراءى من بعيد، لا بحّارة في الجوار ولا سفن من بعيد، زورق الحوّات ورفاقه العشرة فقط. فجأة انكسر هذا الصمت المطبق بانفجار أصغر المجموعة سنّا، إنه نبيل ابن 22 ربيعا، شاب نحيل الجسم رضّ العظم، انفجر صارخا متوجعا وهو يمسك بطنه كأنه سيفلت من بين يديه، وتقيّأ فملأ المكان بقايا خبز وبطاطس مقلية بالبيض (الأكلة المفضلة لدى البسطاء الجزائريين). صرخ مروان الحوّات في وجهه حانقا وغاضبا لما أحدثه من قذارة على متن القارب، غير آبه لما أصابه من دوار، بينما ناوله حمزة زجاجة ماء بلاستيكية، تعينه على استرداد أنفاسه.

– تمدّد قليلا يا أخي وخذ لك حبات بلح، ستمنع عنك القيء، فهواء البحر وضغطه العالي يثير الغثيان وهذا أمر طبيعي لمن لم يرتده من قبل، سترتاح بسرعة...

نصحه مراد مناولا إياه حبّات تمر مع قليل من الحليب الذي اتخذه زادا له في الرحلة، ولم يتبقَّ له سوى القليل منه.

شكره الفتى وتمدد وسط الزورق ساندا رأسه إلى فخذ ابن عمه الذي يصطحبه معه، فهو يكبره بعشر سنين وله باع في السفر عبر تأشيرة الموت إلى جنّة أنهار العسل، بعد أن جرّب تأشيرة القنصلية مرة واحدة سافرت به إلى هناك جوّا، ولم يسعفه الحظ في تسوية وضعية إقامته بسرعة، فاقتيد إلى الوطن مكلّلا بخيبة الأمل، كما أن طالعه العثر مكّن حرّاس السواحل بإسبانيا من القبض عليه وطرده في آخر تجربة له على جناح البحر.

****

توسّطت الشمس كبد السماء في لمعان لافح زاد من توهّجها وانعكاسها في وجه مياه البحر التي أعانتها بملوحتها وهدوئها على إرسال ألسنتها الحارقة، غير آبهة بضيوف البحر وممتطيه، فانتشرت باحوراء جفّفت ينابيع عروقهم، فراحوا يحجبون وجوههم ورؤوسهم عنها اتقاء ضربة شمس أو نزلة برد صيفية ترديهم أعلّة وهم في غنى عن السقم ومحنته خاصة في هذه المناسبة وهذا الموضع، متناوبين على زجاجات الماء لإرواء عطشهم.

استبد العطش بالمجموعة مع انقضاء الماء القليل الذي ظنّوا أنه يكفيهم زادا في رحلتهم التي توقعوا أن لا تفوق عشر ساعات في البحر، ويا سبحان الله في خلقه وشأنه فيهم، كيف أنهم يسبحون فوق بحر من الماء لا تقدّر له سعة، غير أنهم لا يجسرون على تجرّع رشفة من مائه مهما بلغت بهم ذروة الحاجة التي يمليها عطشهم ؟ إنّ الطبيعة جبارة، تعطي وتمتنع كما تشاء ومتى وأين وبالوسيلة التي تشاء.

فترة الظهيرة مرّت قاسية حارّة، بدّدتها نسمات ما بعد العصر التي هبّت على الوجوه المصفرّة ألوانها الشاحبة أوداجها، فكسرت حاجز الضيق الذي خلقته، فالآذان والأنوف والأذرع العارية تنفست صعداء تذوّق نعومة الجوّ ولطافته في هذه الليلة المقبلة عليهم، التي تذمّر منها فأل مروان الحوّات لخبرته الطويلة بالبحر وجوّه وأغواره، قائلا :

– يا جماعة... ربي يستر، هذه الليلة... الله يفوّتها على خير...

– لماذا... ماذا هناك يا الحوّات ؟؟؟... (حمزة متسائلا).

– لا شيء... غير أني تفرست من نسمات البحر غرابة، فهذه تأتي أحيانا كثيرة الرياح التي قد تثير علينا الماء فنبحر في غير وجهتنا... وهذا ما أخشاه فقط. لنعملْ حسابا لذلك...

– إذن فلنسرع بالخروج منه ما دمنا قريبين من ساحل إسبانيا... (الولد نبيل مقترحا على الحوّات ونبرة خوف تعتري وجنتيه).

أفاق الحوّات محرك الزورق من غيبوبته بعد اعتصاره مرات عديدة بالحبل الرقيق وانطلق به في سرعة خفيضة، مردفا الكلام في ردّ باهت بارد على اقتراح الفتى بصوت مرتفع تحجبه سعلات المحرك وصريره :

– لا يمكننا الاقتراب من الساحل الآن لاحتمال تصادفنا مع دوريات حراس السواحل الإسبان، فدورياتهم كثيفة ومتكررة هذه الأيام، خصوصا من أول الليل إلى منتصفه، فقد خبروا جميع خطط وحيل أمثالنا من الفارين إلى جنانهم، لذا يتطلب منّا الأمر البقاء هذه الليلة في البحر إلى غاية حلول خيوط الفجر الأولى لنتحيّن

فرصة الانزلاق صوب أقرب شاطئ. المهم، ادعو ربي يا جماعة يفوّت هذه السهرة على خير...

****

زادت الرياح من حدتها مع انجلاء ضوء الشمس التي انغمست بتأنّ في البحر، وجاء الليل مسرعا مرخيا سدوله، ملقيا بظلاله الحالكات على عتبات الأفق وفي فضاء الجو، فأسبغ على لون الماء سواده الذي حجب كل رؤية أمل، ومع ارتفاع ضغط الرياح خبّ البحر كأنه يستفيق من سباته، بتحريض من النسمات في صمت وخشوع لموسيقى هادئة قائد جوقها موج يلوّح إلى طاقمه بعصاه الصغيرة، راسما نوتات المقطوعة المعزوفة في الهواء... ما حتّم على الحوّات إخماد المحرك لكبح الزورق خشية الانقلاب على وجهه في الماء، كمن يلقى عليه مغشيا من فرط رهف إحساسه وتأثره بما ينغم في سكون.

ارتفعت الأمواج لتنفلت كميات من الماء داخل الزورق الذي تُلاطمه كل مرة، فتحمّس لها الشباب والخوف من شبح الهلاك يعتري نفوسهم، فبدؤوا يلوّحون بأصواتهم المتحشرجة التي تعالت فيها عبارات التذمر، ساخطين على البلاد والعباد، يملون - كل على حِدة - الدوافع التي رمت بهم إلى خوض غمار طريق الموت لنيل أملهم متسابقين نحو مجال أحلامهم المرتقبة التي تتربص لهم في الضفة الأخرى...

في هذه اللحظات الحرجة خرج مراد من صمته برزانة لا تنم عن تعقّل بل تعكس خوفا دفينا، قائلا :

– يا جماعة... لا تنسوا أن الله معنا، ولن يخذلنا، فنحن ذاهبون لقصد مستقبل واعد... وما هذا إلا امتحان صغير... لنبقَ متّحدين ولا نفزع...

– لماذا جئت ؟ ماذا أتى بي إلى هنا ؟ مازلتُ صغيرا والعمر أمامي، كان عليّ أن آخذ بنصيحة أمي، يا ربي وعلاه ؟؟؟ (عبارة لوم تعني لماذا ؟)...

وأجهش بالبكاء هذا الشاب الذي لم يتلفظ بكلمة منذ انطلاق الرحلة، اصطحبه الفتى نبيل وابن عمه في رحلتهما، لإيمانه أن الأمر سهل لا يحتمل وجود خطورة أو مخاطرة بالحياة، رغم تنعّمه بعيش يسير في كنف أهله ووالديه، لاسيما أنه كان يمتلك محلا للحلاقة، غير أنه انساق نحو أطماعه وأهوائه النفسية التي زرع بذورها أحد الشباب المغتربين في ذهنه، الذي لفظته أوروبا – كزبالة قذفتها في قمامة أمّتها المستعمَرة إفريقيا بعد أن تبرأت من ابنها غير الشرعي – فأنتشت لديه فكرة الهجرة بحرفته إلى هناك تحت هيمنة وسيطرة بالغة لحبوب الهوس والهلوسة، أين سيجني ذهبا من رؤوس الأجانب.

– كفانا نواحا كالنساء ! اسكت وإلا رميتك في البحر...

ألزمه الحوّات الجنوح للصمت بكلماته القاسية واضعا حدّا لارتياب نفسيته المتدهورة التي كانت قد بدأت في التأثير السلبي على البقية.

أقطب الشاب عن نواحه وراح يجمع الماء – في شهيق ولد باك تحاول أمه إسكاته بحبة حلوى – رفقة بقية المسافرين، من قعر الزورق يصرفونه إلى معدنه، غير أن الرياح التي اشتدت فجأة

صنعت أمواجا عتت رؤوسها كأشباح تصدرت سطح السماء لتهوي محدثة صوت صفير ينذر بخطر حالّ، كادت تقلب الزورق رأسا على عقب ؛ فهرع الجميع يتضرعون لرب البحر والرياح، سائلينه، في خشوع متبتل وخنوع متعبد ناسك ورجاء تائب، الرحمة والمعيّة واللطف، راغبين في حفهم بحفظه وصونه.

يا لنا من عباد بؤساء ضعاف ! ننسى فنعصي ونتذكر فنجزع ونتوب إلى الله سبحانه وتعالى، فحق فينا قوله جل وعلا في محكم تنزيله : ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

مراد يبكي دما مسفوحا في سريرته، يذكر ربّه الرحمن الرحيم متضرعا إليه، مخلصا في سؤاله ودعائه كما لم يخلص في السؤال أو يلحّ طول حياته، أن ينجيهم من هول البحر الذي اشتاط غضبا من وخزات الرّياح مطاردا سرابها ونسماتها بأمواجه التي بدت في عتوّها عالية كسنام الجِمال تلوّح بالزورق روحة وجيئة مسيطرة على قيادته توجهه حيثما تشاء... هذا الصديق الغريب الغامض الذي لا يؤمَن له شرّ، ها هو ذا أنيابه تتبدى عنها غمامات الضباب يكشف شراسته وجبروته في تحدٍّ لا يجابهه فيه مجابه.

****

واصل مراد نداءه الروحاني في تهجد ومناجاة، يصوبه نحو فؤاد والدته تارة، من أعالي أهوال موج البحر المتقد في هذه الليلة الرّاح... يرنو معيتها بالدعوات الخالصة التي كثيرا ما وَقَته شرور البليّات المحدقة به... فهي بطيبتها وسجيتها الحسنة مستجابة الدعاء كما يعتقد. وتارة أخرى يناجي ربّه أن يغفر له، مطلقا العنان

لنفسه باستذكار آيات الندم والخنوع والخضوع لله بنذر التوبة وعدم الرجوع إلى المعصية، قاطعا وعده لربه كما ذكره سبحانه وتعالى في المعجزة الخالدة في الآيتين 22 و 23 من سورة يونس بقوله جلّ وعلا : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ 22 فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾.

تقلّبت الأم تلك الأثناء في فراشها، طار عنها النعاس فجأة واستفاقت فزعة تتصبّب عرقا، لم يراودها الشك في سوء تجاه أي قريب غير فلذة كبدها مراد الذي غادرها إلى البحر ليصطاد كما أوهمها... ففرّت إلى الصلاة بعد أن توضأت ثم تناولت سجادة أقامت عليها ليلتها متضرعة لله في رجاء أن يعيد لها وحيدها سالما غانما وأن يحفه بحفظه ورحمته، فهي قد عوّدت نفسها وروّضتها على اللجوء إلى الله في كل نائبة أو إذا خامرتها الظنون بالطالع السّيئ إذا طارت عن جفنها سِنة النوم.

﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ صدق ربّ البحر والسماء والأرض ورب كل شيء، فرحمته وسعت كلّ شيء وقدرته وقوّته وجبروته سبحانه وتعالى لا تدركها الأبصار والأفئدة والعقول... فالزورق يجري ويميل برعايته وأمره جل جلاله، على أمل خاب لمن يركبه، مدركين بعلمهم الذي لم يعلُ جباههم أنّ منيّتهم معلّقة على أنوفهم يشتمّون ريحها مع كل لطمة من اللّطمات العنيفة التي أحدثتها هجمات الأمواج المتوالية على جنباته تارة، وتارة أخرى جاهشة عليه بالماء تغمر قاعدته، حتى كادت تغرقه بالمجموعة كلها.

لكن هيهات أن تطال أمواج اليمّ وغياهبه ملتحمة متّحدة مع زوبعات الرياح وعواصفها الهوجاء، شيئا أو طرفا من الموكب المحمول على أكفّ الزورق المأمور، إلا بأمر الجبّار سبحانه وتعالى وإذنه، فتمسّك الرّكاب جميعا بحبل الله الذي لا يذلّ أو يخذل من اعتقده جازما مخلصا، بعد أن فقدوا الأمل في من سواه، تجلّت قدرته وعظمته ورحمته بهم، فاستغرقت الرياح مولّية عنهم وهدأت الأمواج ورتّبت نفسها كسابق عهدها في النهار السالف ؛ لترتاح النفوس بعد سويعات ليلة ليلاء مرّت دهرا بعمر طويل... أرهقت الفريق الذي نجا بقدرة القدير من تهلكة محتومة.

****

طلع النهار الجديد في غفوة انتابت جميع الشبان الذين أرهق كاهلهم الليل العاصف برياحه وأمواجه في قفر بحري لا تدبّ عليه أو بضواحيه أية حركة... هرع مروان الحوّات إلى البوصلة، فأشارت إليه أن اتجاهه إلى الجنوب يسير ؛ فأدار مقبض المحرك وراح يرغمه بقوة على النهوض، بغضب وحنق على ما حلّ بهم من نائبة حدّقت معها غربان المنيّة في الأفق وأفواه الحيتان في الأسفل، الباحثة عمّا تقتات عليه من الفرائس قبل أن يلفظها البحر إلى الشواطئ كأعجاز نخل خاوية.

تحرّكت دواليب المحرك بعد عناء طويل التهم قوى مروان الحوّات وحمزة وابن عم الفتى الذي تقيأ، كما أتى على ما بقي لمراد من قوى تشدّ صلبه، فمشى بهم في وجهة لا يعلمون نهايتها، مهتدين إلى الريح مستدلّين بشروق الشمس وغروبها، بينما خيّم عليهم هدوء لاذع سبّبه الجوع الشديد والعطش القاتم اللذين هيمنا عليهم

فنخرا عزائمهم، فأصبحوا يرون مواقعهم بين الأجداث إن لم يكونوا وجبة لذيذة لحيتان البحر.

أفَلَت الشمس في جوف البحر غربا كعادتها، ليخلفها الليل محملا بوحشته الظالمة من الشرق. الخوف لا يجدي مع الليل والسكون والوحدة. توقف المحرك عن الدوران فقد نفدت كمية المازوت التي تغذيه، وما على المجموعة إلا استهلاك ما بقي لهم من طاقة في مداعبة سطح البحر بمجدافيّ الزورق لمساعدته على المضي قدما في خطى بائسة يائسة من بلوغ اليابسة بعد أن سيطر الغسق الحالك على كل شيء. لمحت عين مروان الحوّات ومضة ضوء من بعيد، حسبها نجما غمز في الأفق الملامس لطرف البحر، ثم حدق مليّا يبحث في فضاء السماء عن الهلال الذي لم يجدد نوره للشهر القمري الجديد، فقد انقضى أجل الشهر النازل منذ يومين فقط. نكز حمزة قائلا :

- أهذا وميض نجم أم أنني لا أرى جيدا ؟

التفت حمزة باتجاه مرمى رؤية مروان الحوّات ومعه التفت جميع الركاب يحدقون في ولع ولهفة رغم النعاس الذي كاد يفتك بأهداب أعينهم لثقلها وقلة حيلتها في الاستسلام مطمئنين لسِنة نوم تقص الجوع والعطش... فسأل حمزة :

- أين ؟

- هناك، على يمينك مباشرة، هناك...

هتف الفتى نبيل قائلا :

- لا... ليس وميض نجم، إنه ضوء منارة، ضوء منارة...

ويييييي... أنا متأكد، انظروا جيّدا، إنها تدور حول نفسها فتومض كل بضع ثواني، انظروا جيدا يا رفاق...

صاح الجميع فرحين : مرحى مرحى، لقد نجحنا، لقد نجونا، لقد وصلنا... الحمد لله... متعانقين يهنئون بعضهم بعضا بلقائهم الأول على ضفاف شواطئ إسبانيا... مستعيدين طاقتهم ونشاطهم كأن الجوع والعطش لم يهتديا إلى طريق بطونهم وأجسادهم يقرضهم، بعدما وهنت سواعدهم وعجزت أفواههم حتى عن ابتلاع ريقهم...

– اهدؤوا يا شباب، لا تحدثوا أي ضجيج أو جلبة، ولتعلموا أننا مازلنا بعيدين عن اليابسة، وربما نصادف في طريقنا إليها دورية لحراس السواحل، فالليل لم يستقر بهم بعد ولم يحن أوان تسلل النّعاس إلى أجفانهم وركود الحياة في اليابسة...

وجّه الحوّات كلامه للجميع، لتهدئتهم وإعانته على التخطيط لمغادرة الزورق إلى اليابسة في أمان... وتدخّل حمزة في الحال مرشدا الشباب إلى الخطة الآتية :

– يا جماعة، علينا أن نعتمد على سواعدنا لبلوغ الشاطئ، فليس لدينا ها هنا حلّ غير ذلك، إذ علينا الانتشار في البحر والعوم دونما لفت الانتباه، كما علينا أن لا نجتمع، ولكل سبيله إذا وصلنا الحافة، اتفقنا ؟...

– أنا لا أجيد السباحة جيدا...

صرّح الفتى نبيل الذي تقيأ سابقا، وشاركه التصريح صديق ابن عمه...

– هذا من شأنكما، عليكما تدبر حلّ، لا أستطيع أن أقترب أكثر من ميلين إلى ميل ونصف من الشاطئ... ولكما أن تستعينا

بصدريات الإنقاذ التي تلبسانها، فهي ستعينكما على معانقة الماء وتلافي غرقكما. (أجاب الحوّات ملزما الجميع بتحمل مسؤولية مصيره من اللحظة).

****

بعد ساعة من الزمن، سمعت المجموعة صرير محرك مركب بحري، إنها دورية حراس السواحل الإسبان ؛ دخل الجميع إلى الماء حتى لا تلمحهم الدورية، مدارين أجسادهم المغروزة في الماء خلف الزورق كنعامة توارت من صيادها بدس رأسها في التراب... فيما بقي الزورق يتأرجح فارغا على سطح الماء.

– أفّ... الحمد لله، مرّت علينا بسلام، احذروا يا أصدقاء فليس كل مرة تسلم الجرّة وما عليّ إلا أن أقول لكم حظا سعيدا... الوداع...

قال مروان الحوّات آخر كلماته وانطلق سابحا يفرق الماء عن أمامه بذراعيه القويتين، تبعه مراد وحمزة، وخلفهما سبح عزيز ثم كمال في عناء شديد لهزالة جسمه وقوة جوعه وعطشه.

غادرت كل المجموعة الزورق الذي تركوه وحيدا يتأرجح بين أحضان المياه المتموجة نتيجة الجلبة التي أحدثها عومهم فِرقا من ثلاثة إلى أربعة، تأخر فيها عن الرّكب الفتى وابن عمه وصاحبهما.

مع بلوغ مراد وأصحابه الثلاثة صخرة بحرية مغروسة على الشاطئ، جذعها في الماء ورأسها في السماء، تسلقوها في عناء متخلصين من عتمة المياه، ومع قسط راحة استرقوه على ظهرها لتخفيف خفقات قلوبهم السريعة، سمعوا فجأة صوت صفير إنذار صادر عن قارب دورية حراس السواحل التي حامت قبلا حولهم، التفتوا إليها فلمحوا أضواء كثيفة مصوّبة نحو الفتى الذي تقيأ وصاحبه، أما ابن عمه فقد أخذ نفسا عميقا وغاص في قعر

البحر يبغي الإفلات من قبضتهم، وفي أثره باشرت هذه الفرقة ملاحقته بعد انتشال الشابين من الماء شبه غريقين وغلّ أيديهما إلى ظهورهما وأرجلهما إلى بعضهما، فيما واصل الحوّات بفرقته مسيره على اليابسة هذه المرة، فارّين من قسورة الحرّاس إلى غابة الصنوبر المقابلة للشاطئ، بعد أن تسلقوا هضبة عري ظهرها الفاضح لمن يدب عليه، غير آبهين لمصير بقية الركاب الخمسة. فالظروف لا تسمح بالالتفات للوراء طرفة عين.

في جوف الغابة توقفت مجموعة الحوّات تسترد أنفاسها لبرهة من الزمن، ثم واصلوا طريقهم بعد أن انشقوا فرقتين، فالحوّات اصطحب كمال ليتوجه به إلى أحد معارفه بضواحي مدينة "ألميريا" الإسبانية الساحلية التي لا تبعد كثيرا إلى اتجاه الغرب عن موقع تواجدهم، فيما اخترق الثلاثة مراد وحمزة وعزيز طريقهم بين أشجار الغابة شمالا في وجل بيِّن أغناهم عن التساؤل عن كنه الاتفاق المبيّت بين كمال وصاحبه فقط دون البقية، رغم أمد العلاقة بينهم جميعا... منحرفين عنها بعد مسيرة ساعتين إلى حقل من الكروم التي لم يتبينوها إلا بإطعامها.

****

أيّام هوجاء في إسبانيا

اليوم الاثنين، الساعة الحادية عشرة صباحا، الجو رطب والسماء صافية مع سحب بيضاء تعانق الفضاء. طيور النورس تتراقص أسرابا أسرابا مندفعة من اليابسة صوب الشاطئ البحري غير البعيد، أفاق الثلاثة حمزة ومراد وعزيز من غمضة عين أخذتهم عن تعب ليلة شاقة انتهت بسباق نحو المجهول، في ممرات منحنية عاتمة مقطوعة الأوصال بما اتصل من عشب التفّ بجذوع الأشجار الوارفة... ثقل أجسادهم المحمّلة بالملابس المبلّلة التي زادت من وزنهم، المحمولة على أقدام أرجلهم جريا ومشيا فحبوًا وتزحلقًا وتسلّقًا أمام كل طريق ممدود أو منعرج أو مرتفَع أو منحدر أو عقبة، لما يربو عن الساعتين، جاءت على آخر رمق لأنفاسهم التي تقاطعت لهثا لنفاد طاقتهم، فخلدوا مستسلمين لنوم عميق افترشوا له الأرض والتحفوا السماء متوسّدين جذوع أشجار الكروم التي غطتهم بظلالها ووقَتهم نور شمس الصباح لوقت يسير.

هذا الجهد المضني لم يذهب سُدًى، فقد مكّنهم من الابتعاد عن الخطر، والظفر بالنجاة من قبضة حراس السواحل وكلابهم البوليسية الملازمة لهم في أسفارهم بالغابات والسفوح الساحلية المتاخمة للشواطئ، في رحلات ماشية دؤوبة، منقبين عن آثار الهاربين من

قفر بلاد إفريقيا بحرا متسللين إلى برّهم، فرارا إلى جنات أراضيهم، فهذه الكلاب مدربة على مهام التقاط شتى الروائح الغريبة، فقد تمرست وتفرست بالشّم تمييز شذا الغرباء من خلال بصمات أحذيتهم عندما تلامس تربة إسبانيا، وذوق بقايا ملابسهم، من تلك التي تخلص منها بنو بلدهم.

****

وجد مراد وصديقاه أنفسهم محاطين بحقول شاسعة من كروم العنب بشتى أنواعه، ممتدة إلى هكتارات مسطّرة في خطّ فنان رسّام أو مهندس بارع، مربّعات كبيرة تفصلها شجيرات الذرة. التهموا ما استطاعت أيديهم أن تطاله وبطونهم أن تسعه من عناقيد العنب الطازجة المشبّعة بالماء، في نهم ينمّ عمّا أصابهم من وهن السّاغب الظّامئ، غير آبهين بأدوية تسمّ الآكل من الديدان والحشرات الضارة، ريثما انتفخت بطونهم بماء العنب، فنفضوا عن أجسامهم ملابسهم الرثّة المبتلّة، وتلفعوا بألبستهم النّقية والجافة التي كانت مدسوسة في حقائبهم، ثم حفروا حفرا صغيرة دفنوا فيها ما لا يحتاجونه من ملابس، حتى لا تشي بهم روائح أجسادهم العالقة بها إلى أنوف الكلاب البوليسية.

سأل حمزة عن مروان الحوّات وكمال، فلم يجد لسؤاله من جواب لدى مراد وعزيز، فغمغم في حنق وضيق ألمّ به قائلا :

– فعلها ابن الكلب، غادر دون أن يخبرنا إلى أين هو ذاهب... صدقت يا مراد، لا يأتينا خير من سكير أبدا... وكمال ؟؟؟ أرأيتم خبث نيته لقد أخفى عنّا جميعا نيته وتآمره مع الحوّات...

طأطأ مراد رأسه في إشارة بتأييده الرأي، ثم استطرد في القول :

– ربنا يسهل عليهما، ارتحنا من الحوّات ونكده... أنا صراحة لم أكن مرتاحا لصحبته ورفقته، المهم... ما العمل الآن ؟ ما يهمّنا الآن هو كيف السبيل إلى الابتعاد أكثر عن هذا المكان ؟ وما هو الطريق الصواب والسهل للولوج إلى فرنسا ؟

– أولا علينا معرفة موقعنا من إسبانيا، ومن ثمّ يمكننا التصرف... (أجاب حمزة).

– إذن فلنمشِ من هنا... (قال عزيز).

انزلقت المجموعة من حقول الكروم متحاشية الظهور للعيان، مستظلة بظل الأشجار المتاخمة للحقول التي تخفيهم عن الأعين الحارسة من بعيد أو قريب، في حين حرك حمزة غصن شجرة تميل جانبا ليتصفح الطريق بين الحقول مرتقيا فوقها، كأرنب وجل يترقب من جحره، لا ترى إلا رأسَه وعينيه تدوران في الجوار فاحصة حركة ثعلب ماكر يتربص به، إلى أن بلغوا بيتا راقيا، بنيانه متسق اتساقا مبهرا، أسواره وسقفه من خشب، مبنيّ كتحفة فنية رائعة في الجمال، على هضبة مطلة على حقول خضراء مليئة بأشجار الفواكه، ينساب خلالها نهر من ماء طيّب مستساغ... تذكّر مراد مثل هذا المنظر الساحر الذي ألف رؤيته في التلفاز، إنه يعيش الحقيقة التي كانت حلما يراوده في البلاد. أحسّ للحظة أنه ولج بوابة جنته المنتظرة، ولم يبقَ له على بلوغ أنهارها والاغتراف منها شرابا مختلفا ألوانه إلا أيام قلائل.

****

مع الدّنوّ من وجه البيت الخشبي، استقبلهم كلب ضخم هرم ذو شعر بني كثيف، بلغت صيحاته آذان صاحبه يبلّغه عن غرباء في

ساحته. قابلهم من شرفة المنزل رجل كثير اللحم والشحم، يسبقه بطنه، أحمر الوجنتين، معتدل القامة، يضع نظارات شفافة، يعلو وجهه وجلد يديه برص، يحمل عصا خشبية ملساء، يرتدي بنطلونا من الجينز وسترة مربعة بالأحمر والأزرق، كما يداري صلع رأسه بقبعة لرعاة البقر الأمريكان، يبدو في حالة صحية جيدة رغم سمات التقدم في السن البادية عليه.

استبشرت المجموعة خيرا في لقاء هذا الفلاح الإسباني واستأنسوا برقته في السؤال ولطافته المرتسمة على وجنتيه، متوسمين فيه مغنما من طعام وفراش، فمن شيم الفلاحين وأبناء البادية في أي مكان بالمعمورة تميّزهم بالطيبة والكرم والجود على من دقّ بابهم سائلا، بلا مقابل ينشدونه.

طرح الإسباني سلامه على مراد ورفاقه، سائلا عن مصدرهم وقبلتهم، محدقا فيه بنظرة إعجاب واستلطاف كأنه يعرفه من قبل. لم يرتح مراد لهذه النظرة التي تحمل من الشذوذ ملامح بيّنة، غير أنه بادره بإجابة ذات رقة مماثلة، كونه الوحيد المتعلم فيهم، والفاهم للغة الإسبان.

فمن ذكاء مراد حرصُه الشديد، في ليالي خلوته بغرفته، على تدارك أي نقص قد يخلّ بنجاح رحلة عمره. كان قد قرأ مما قرأ حذره مراجعا حسابه للحظة مثل هذه وموقف لا يُحسد عليه كالذي هو فيه، لا يدري ما عواقبه لو لم يردّ على مخاطبه، فقد عمد مؤخرا إلى مذاكرة ما حفظ من الكلمات الإسبانية التي تعلّمها أيام الجامعة كثقافة عامة، عاملا بمبدإ : « من تعلم لغة قوم أمن شرهم »، فها هي ذي الكلمات التي تلفّظها عرجاءَ بلا شكل واضح أو رسم حسن بين شفتيه، تعينه في رحلته على التعامل مع الإسباني الذي فهمها بعد انتباه شديد ملفت.

الكلام في بلاد أوروبا تطغى عليه اللغة الإفرنجية، أمّا إسبانيا فلغتها الرسمية مستمدة من تسميتها، بعدما كان سكان هذا البلد تحت رحمة وهيمنة لغة القرآن الكريم عقودا مضت إبّان الفتوحات الإسلامية، تحت قيادة الفارس الباسل طارق ابن زياد، الذي تعدّى حدود البحر الأبيض المتوسط فاتحا، رافعا لواء التوحيد، فألّف فيها المسلمون حضارة عريقة لا تزال أطلالها وقصورها الشاهقات تحافظ على معالمها التاريخية الجذابة للأفئدة، الساحرة للعقول والقلوب، تستقطب الدارسين والسائحين يأتونها زائرين من كل فج عميق، ليشهدوا ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من رقيّ في ذلك الزمان الغابر.

استفسر حمزة من مراد قول الإسباني فشرح له، ليملي عليه ما يقوله :

– نحن غرباء جئنا من بلاد الجزائر عبر البحر في سفر شاق أنهك قوانا وأفرغ أوعية بطوننا واستنفذ جهود أجسادنا، فجنحنا إليك في طريقنا إلى فرنسا، متوسمين إعانتنا على حاجتنا مع قبول استضافتنا عندك لقضاء ليلتنا، إن كان بمقدورك تحمل مبيتنا عندك.

****

تبسّم الإسباني فرحا، بعد سماع مراد يتحدث الإسبانية وهو يتلعثم، باذلا جهدا مضنيا في إيجاد الكلمات المناسبة وترتيبها في جمل إسبانية صحيحة تترجم كلام حمزة، ثم فتح ذراعيه السمينتين وشفتيه العريضتين حتى أغمضت عيناه من هذا الحديث، مشرعا لهم باب بيته، وفيه ثلاث غرف متقابلة بعد عبور غرفة الجلوس غير المحجوبة عن المطبخ، والمفروشة أرضيتها بزربية رثة، فالمنزل لم يكن يحتوي بداخله على أسباب الرفاهية كما تخيلها المهاجرون

الثلاثة، عدا أريكة غرفة الجلوس المجوّفة في وسطها لاهتراء صوف بطن مقعدها فأصبحت نخرة، لا تقوى على تحمّل وزن سيّدها المقيم بمفرده رفقة كلبه « شانيو » الذي اتفق مع صاحبه في الترحيب بضيوفه ملوّحا هو الآخر بذيله يمينا وشمالا مفردا لسانه من شاربيه المتدليين لاهثا.

تتوسط غرفةَ الجلوس طاولةُ طعام كبيرة مصنوعة من خشب الصنوبر، تعلوها زجاجة نبيذ أحمر وكأس كبيرة، تلتف حولها أربعة كراسي مقاعدها خشبية بسيقانها وظهرها الحديدي المزركش، تقابل الأريكة طاولة صغيرة عليها فنجان قهوة، يحمل جدارها المعاكس تلفازا من الحجم المتوسط وهو مسمّر إلى الحائط بلا سيقان أو طاولة، يبثّ القناة المحلية الإسبانية، وإلى الأمام أربعة أبواب، ثلاثة لغرف البيت، إحداها خاصة الإسباني، والباب الرابع للحمّام ودورة المياه.

اجتمع الضيوف بسيّد البيت على مأدبة غداء خفيفة حضّرها الإسباني وهو يغني كلاما يطربه ويزعج البقية، وعلى الطاولة الكبيرة التفّ الأربعة يلتهمون بشراهة الخبز الطريّ وسلاطة الطماطم والبصل مع الخس، أما الطبق الرئيسي فتزعمته دجاجة إسبانية محمرة بالزبدة البلدية في الفرن الكهربائي، تنتظر قواطع وأسنان وأضراس الجماعة التي بدأت أفواهها تسيل لعابا من شدة شهوتهم إليها.

عكّر مراد رغبة وشهيّة صاحبيه المتلهّفة لنيل نصيب من الدجاجة المحمّرة، فقد عزف عنها لإيمانه أن الأوروبيين غير المسلمين لا يذبحون الدجاج بل يصرعونه ويقطعون رأسه، وهو في عداد الجيفة والميتة التي لم يُذكر اسم الله عليها، فهي محرم أكلها على المسلمين، ورغم صرف حديثه إلى صاحبيه حول هذه النقطة

الحساسة، إلا أنهما، ومن شدّة جوعهما وقلّة إيمانهما، نعتاه بالخبل والهبل ونكران النّعم، معلّلين حاجتهم لذلك بالقاعدة الفقهية « الضرورة تبيح المحظورات »، وراحا منكبّين على الدجاجة فأرديا ها كالصريم، أما هو فاكتفى بحساء خضروات وبطاطس مقلية بالبيض مع بعض الفاكهة، تحت وطأة اهتمام مبالغ فيه وملفت من قبل الإسباني، اشتاط منه مراد وتنكّر له صاحباه حسدا جسّداه في نبرة الضّحك الخبيث الملتفّ حول غيرة دفينة تحشرجت في صدريهما على حظه الملتمس في احترام الإسباني وتقديره له بالرغم من جهله هويّته وموطنه.

****

بعد ارتشاف فناجين قهوة ساخنة استجمعت كل ما فلت من تركيز بعقول الشباب نتيجة الصّخب الذي خلّفه التوجّس فرارا من قبضة حراس السواحل، راح مراد وأصحابه يدردشون مع الإسباني ليستوثقوا منه الأمان في إقامة ليلتهم عنده، مع الاستعلام عن مسار الطريق والتعرف إلى البلدات والمدن القريبة، حتى يتسنى لهم سلوكها لبلوغ الحدود الفرنسية الإسبانية في أمان ؛ فحدثهم بادئ الأمر عن بلدته الصغيرة « أغويلاس » وسهولها الساحرة بخضرتها وجنانها المفردة على المدينة الكبيرة، كـ « الأباردينا » الساحلية المتاخمة حدودها لمدينة « آلميريا » التي تعد أقرب نقطة بين ضفتي أوروبا وإفريقيا انطلاقا من شاطئ « الغزوات » بالجزائر، وذات جاذبية لا تقاومها الأنفس.

ولغاية في نفس الإسباني العجوز، زرع نوعا من الخوف والجزع في نفوس الشبان الثلاثة، من مغبة السقوط في أيدي رجال الشرطة

أو حراس السواحل، مع التحدث بإسهاب عن معاملتهم الخشنة للمهاجرين غير الشرعيين في مراكز التجميع والحشد قبل ترحيلهم إلى بلادهم الأصلية، كما عرّج على دور وسائل الإعلام المحلية التي بات مرادها الأنشد والأوحد، توحيد وجهات نظر السكان بالأرياف والمداشر المعزولة التي يلجأ إليها عادة الشباب الفارون إلى أوروبا عبر جسور البحر، مع تذكية أفكارهم العدائية وتأليبهم عليهم لنبذهم وتكثيف أسباب مكافحتهم على اعتبار أنهم شرذمة من الدخلاء المتشردين من شباب دول العالم الثالث الإفريقية (كما ينعتونهم)، مبرّرين ذلك بمحاولة هؤلاء، عبثا، استنزاف خيرات أوروبا وبثّ الرعب والإرهاب الهمجي فيها، للمساس بنعمة الاستقرار التي تهنأ لها نفوس أهاليها، مجنّدين بذلك كل الوسائل المادية والتكنولوجيا الحديثة وحتى المكافآت المالية، مقابل التبليغ عن أي شاب غريب عن المنطقة، دخلها بصورة غير مشروعة، مع عدّ الأخذ بأيديهم أو تقديمهم يد المساعدة المصنفة في قانونهم تواطؤا يكلفهم السّجن والغرامة المالية الثقيلة.

هذه الكلمات وقعت من قلب مراد موقع الجمر على الجلد، شرحها بلا تمهل لصاحبيه اللذين ألجمهما الصّمت والخوف من مغبة الوشاية بهم لدى البوليس، أو الطمع في دفعهم مقابلا ماليا نظير سكوته وتستره عليهم، ما قد يجعلهم عرضة للعودة إلى الديار بعد هجرها منذ يومين فارطين فقط.

في نبرةٍ ضعيف غير مستسلم يتودد إلى الرحمة والشفقة، تسلل مراد بناظره ليتفرس ما يجول بخلد الإسباني من نيّة خبيثة قد يضمرها لهم فتكشفها زلات لسانه أو تقلبات عينيه، وما فتئ أن

سأله عن رأيه في هذا الأمر، حتى أجابه بردّ بارد فيه من العبث بنفسيته ما جعل الشك يساوره تجاهه.

****

مع ميول شمس العصر سمعت المجموعة تعالي أصوات نباح كلاب يقصد أصحابُها بيت الإسباني الذي هبّ في عجلة ووجل إلى زربية غرفة الجلوس الممدة على الأرض، ورفعها ليكشف عن نافذة خشبية ذات يد حديدية شدّها إلى صدره بقوة فارتفعت فاتحة المجال لقبو أسفل البيت، وبإشارة مضطربة، أمر الإسباني ضيوفه بدخول القبو مع التزام الصمت. انزلق الثلاثة داخله كفئران فارّة من قط جسور، ليوارب خلفهم باب القبو، ثم أعاد افتراش الزربية مخلّفا وراءه شبح الخوف الذي تلبّس أجسادهم واستبد بهم، ابتلعوا ما أمكنهم من الريق حتى جفت حلوقهم، كما نزلت من جبين كل واحد منهم قطرات من العرق البارد التي تصببت عليهم كأن موعد منيتهم قد حان، ملتمسين معية العليّ القدير جلّ جلاله، متضرعين له وحده سبحانه وتعالى أن يصرف عنهم كيد حراس السواحل وأن يسخّر الإسباني حتى لا يشي بهم، فقد أصبحوا طعما سهل المنال وغنيمة جاهزة يقدّمها الإسباني عربون مكافأة للجنود الذين بدورهم سيسوقونهم قربانا لمسؤوليهم فيظفروا بجائزة نظير مجهودهم المهني.

تلقّى الباب الرئيسي للبيت ضربات قوية بصدره، رجّت لها النفوس والجدران، دفعها الإسباني وكلبه الذي توازت أذناه في السماء كأنها أجهزة رادار تلتقط اتصالا لاسلكيا، وقد جذبته أصوات أقرانه خارجا، فتبع سيده الذي فتح الباب وهو يصرخ زاعقا في وجه الطارق، فإذا به يصطدم متفاجئا بستة جنود من حراس

السواحل، يتبعون ثلاثة كلاب بوليسية موثوقة أعناقها بأحزمة إلى أيديهم محدثين زوبعة من الجلبة والصخب، مدججين ببنادق رشاشة وزُمّت إلى خاصراتهم مسدسات بأغماد سود ، يحملون بعض الملابس البحرية الملبّدة بالأتربة.

سأل الحراس الإسباني عن احتمال التقائه بمجموعة من الشباب قد عبروا الحدود خلسة عبر الشاطئ، مردفين أنهم ألقوا القبض على خمسة منهم فجر اليوم، اثنان منهم في الشاطئ، وثلاثة بالميناء بينما كانوا يحاولون اجتياز الطريق الرئيسي للاختباء في الغابة، غير أن فرقة من الحراس تمكنت منهم بعد ملاحقة بوليسية عسيرة.

بينما كان رئيس الجند يتحدث إلى الإسباني، كان مراد يسترق السمع للصوت الذي كان يتردد بالأعلى فعرف أن خمسة من أصحابه قد فشلوا في رحلتهم، غير متيقن من هوية الناجيَين الاثنين، أهما الحوّات وكمال ؟ أم آخران لم يتعرف عليهما ؟

واصل الحارس حديثه قائلا أنه بفضل الكلاب المدربة تمكنوا من العثور على هذه الملابس بحافة حقل الكروم خاصته، متسائلا إن كان قد لفت انتباهه عبور أشخاص غرباء، فيما ثبتت الكلاب الثلاثة نباحها الصادع المبهرج للمكان صوب الزربية المفترشة بأرضية البيت، محاولين فك وثاقهم والانطلاق صوب الرائحة التي علقت بأنوفهم من الملابس المعثور عليها، غير أن الكلب « شانيو » رد على نباحهم حانقا، فلم يفهم الحراس لهجة كلابهم وأمروهم بالصمت منصرفين من البيت، بعد أن أسدوا النصح للإسباني بضرورة التبليغ الفوري إن صادف غريبا مهاجرا في الجوار.

وارب الإسباني الباب عن الحراس، وفتح قبو بيته ليفرج عن ضيوفه فانتشروا فوق أريكة غرفة الجلوس ينفثون غبار القبو العالق بملابسهم، ليعمّ الأمان نفوسهم وتعود إلى قلوبهم الراحة والطمأنينة

التي زادت من تزكية ثقتهم بالموقف الرجولي الذي وقفه الإسباني معهم، مثنين على شجاعته وثقته بهم والوقوف إلى جانبهم، معتبرين دوره البطولي والرجولي دَينا على عاتقهم محمول سداده.

أمضى الثلاثة مساءهم في بيت الإسباني، فيما ركّز على مراد في الحديث المطول والدردشة التي تبعثرت مواضيعها وعناوين محطاتها، كأنما وجد ضالة شردت عنه، افتقدها منذ مدة بهذا البيت الخشبي الذي هدأت فيه جميع الأصوات مع نزول ليل شاحب باهت الظلمة يروي حكاية سكون هذا المكان الريفي المنزوي في هذه الواحة الخضراء الساحرة المقتاتة على رذاذ الجو الرطب المنبعث من نسيم البحر، يتنشق نفحه العليل، مصاحبا لغروب الشمس البريء الهادئ، كأنها تأوي إلى مخدعها بعد قضاء يوم صيفي مشمس أنهكها فيه المصطافون بصخبهم وجلبتهم ومتعة صغارهم على سطح شواطئ الرمل الذهبية.

بينما استعد أصحاب مراد للنوم بعد أخذ حمام ساخن، انفرد الإسباني به في غرفة الجلوس يراوده على كأس من الرّاح، غير أنه لم يستسلم لعرضه، فترك له فرصة الانفراد بزجاجته ومداعبة قدحها، حتى بدأت آثار الثمالة تظهر عليه، لذبول عينيه وسقوط لسانه وتلعثمه في الكلام مع عدم مقدرته على التركيز الجيد أو التحكم بأنامله السّاقية.

لما يئس مراد من الصبر عليه، انساق وراء نوبة نعاس هائجة غزت جفنيه، كشفتها تثاؤباته المتتالية، فاستأذنه للهجوع إلى مخدعه لتناول قدح نومه السائغ، فبعد مراوغة حثيثة من الإسباني ساقه أخيرا إلى غرفة مقابلة لغرفة صديقيه، لصيقة بغرفته، الفاصل

بينهما باب خشبي موصد، وفي الرواق مرّ على صاحبيه يتفقدهما قبل ولوج غرفته، فوجدهما يغطّان في نوم عميق كقط أقرضه قر الشتاء فانتشلته حرارة مدفأة إلى حيث يبث شخيرا ناغما...

****

تمدد مراد على سرير الغرفة الحديدي الوحيد المتسع لشخصين، مستلقيا على ظهره، وودّعه الإسباني الذي أطلعه على سبيل الفضول، وهما في طريقهما إلى الغرفة، على محتويات غرفته المداراة جدرانها بصور فحول الشباب ذوي العضلات المفتولة من كل الأشكال والأحجام، المرتدين للملابس الداخلية الضيقة، فساور مراد شك كبير في دنوه من اكتشاف حقيقة شخصية هذا الإسباني العجوز، الذي تبدو عليه سمات الشخص المخنث أو المريض نفسيا، فانصرف إلى غرفته دون أن يسأله، أو يبدي إعجابه من امتعاضه.

جاش النوم على مراد فغاص فيه دون تردد منغمسا من رأسه حتى قدميه كجيفة رماها السّيل من عل، غير أن الإسباني الذي ثمل عن آخره، ساوره شيطان الشهوة بالانقضاض على فريسته وهو في كراه الذي زفّ له حلما لذيذا بالجنة المرتقبة... وفي أثناء سباته الذي لم يكن ثقيلا وممتعا بسبب تغير مكان مضجعه، أحس مراد بين نومه ويقظته بشيء يسير على جسده، فانتبه انتباه السكران الثمل الذي لا يقوى على صد أزيز ذبابة، وفجأة استفاق فزعا في وجل، يدفع عنه الشيء المتلمس لجسده من صدره إلى أن بلغ وسطه، وإذا به يصطدم براحة يد الإسباني الضخم وهو يهم بالانقضاض عليه، ظانا منه أنه يحاول سأته، فدرأه عن نفسه بعنف شديد وقوة، متعصبا لاضطراب انتابه وعقله غير مستسيغ للموقف الذي انحشر فيه، فأسقطه أرضا...

الإسباني مغشيّ عليه، لا يحّرك ساكنا، فتعثُّر رجليه جراء الصدّة القوية التي تلقاها من مراد، جعله يسقط على قفاه الذي ارتطم بحافة كرسي حديديّ قرب السرير، مخلفا جسمه المترهّل المشحّم هزّة رجّت لها أركان البيت وسقفه.

هرع مراد مسرعا إلى الباب يفتحه وأيقظ صديقيه اللذين تهوّلا مما سمعا، فألقيا نظرة على صاحب الدار الذي وجداه منشورا وسط الغرفة كأنه جيفة نتنة مبسوطة لفظها البحر إلى الشاطئ، وآثار بقعة بلل تكسو سرواله حتى صدره من فرط البول، كما انبعثت في الغرفة رائحة سدّت لها الأنوف من قرافة غائطه الذي دفعه تحت سرواله.

فرّ الشباب إلى ملابسهم وأحذيتهم يرتدونها بخفة وجلين، مرتعدين من هول الجثة الهامدة التي ظن مراد أنه أتى على أجلها. خرجوا هروعا إلى وجهة لم يتسنَّ لهم تبيّن طريقها لحالك تلك الليلة القمراء التي حجبت سحبٌ عالية أنوارها عن الأرض.

أثناء الطريق انفجر مراد بكاءً وهو يعضّ يديه ويضرب رأسه ويندب خديه، ثم يشهق ويزفر مستغفرا ليعاود الكرّة على مسمع ومرأى صاحبيه اللذين لم يتحملا حجم الورطة التي أوقعهما فيها، بينما هو غارق في همّه، غير آبه ولا مبالٍ، فقلبه يعتصر ندما على فعلته الشنيعة التي أجرمها. لقد تسبب في ذنب هو عند الله عظيم، لم يقصد فعله متعمدا...

بحاشية منتهى الحقول وبداية الغابة توقفت المجموعة، والتفت حمزة بلسانه ذي الكلام المقنع إلى مراد في حزم هدّأ من روعه وأجهز على قنوطه، مؤكدا له أنه دافع عن نفسه ودرأ عنها سوءا كان يضمره الإسباني له منذ الوهلة الأولى، مردفا أنه ربما يكون قد أغمي عليه

فقط، لذا نصحه بصيغة أمر صارم أن عليه التفكير في طريق الهروب والابتعاد قدر المستطاع عن الساحل قبل أن يشي بهم لدى الشرطة المحلية أو حراس السواحل، فتتبخر أحلامهم وأمانيهم.

استأنس مراد بكلام صديقه الذي أحسه حقنة من « المورفين » أو « الفاليوم » خدرت ألمه، أو جرعة دواء أعقرت علّته واستأصلت عذابه، مواصلين مسيرهم في جنح الظلام، مطبقين على أنفسهم بصمت رهيب تخللته تمتمات مغمومة غير مفهومة... منتبهين لكل متحرك من الإنس والدواب، متلافين الاقتراب من المساكن المتناثرة في الهضاب، مستدلّين في تلك العتمة بأضواء الأعمدة الكهربائية العمومية المتاخمة للبيوت، ونور القمر إذا عجّلت السحب الحاجبة أنوارَه سفرَها عن وجهه المضيء، إلى أن بلغوا الطريق العام الذي يبعد عن بيت الإسباني ساعة عدو مختزلين الطريق باعتماد ممرات تمتد بين حقول الكروم والفواكه التي تنتهي إلى بعض أشجار الصنوبر الخفيفة المعشوشبة أرضيتها، المنتشرة على ضفاف نهر يعكس وجه القمر، يمتد رأسه إلى سفح الجبل ويصب ذيله في الشاطئ.

****

بدت خيوط الفجر الأولى لمراد وأصحابه مع وصولهم مشارف قرية صغيرة تسمى « بورياس » تابعة لمدينة « لوركا » المتاخمة لغابة كثيفة، لا يتعدى عدد مساكنها الخمسين، يتوسطها مقهى مفتوح الأبواب، يلتصق سوره بحانة ومطعم. ولجه الثلاثة واستطعموا حلويات وحليبا طازجا مع فناجين قهوة بسيجارة، فقد أنهكهم سير ليلة كاملة في طريق ملتوٍ به كثير من المرتفعات والمنحدرات، تحفّه الأشجار الكثيفة من كل مكان، خالٍ من السّيّارة.

قبالة المقهى تنتصب لافتة لمحطة الحافلات، سأل مراد عن وجهتها، فأجابه القهوجي أنها محطة المسافات البعيدة وهي تنتهي

إلى « مدريد » انطلاقا من « ألميريا »، تقتحم في مجال سيرها « لوركا » ثم « مورسيا » لتنعطف جنوبا فتبلغ « ألباسيتي »، متجهة إلى « لارودا » ثم مفترق « أوكانا » وبعده تلج مدينة « أرانجواز » ثم إلى « ليڤانيز » كآخر محطة قبل بلوغ مدريد.

– كم تبعد العاصمة على هذه المدينة ؟

– حوالي 479 كلم يا سيدي، يمكنك أن تجتازها بسيارة صغيرة في وقت لا يتجاوز 5 ساعات، أما بواسطة الحافلة فهي تتعدى العشرة ؛ نظرا لخطورة منعرجات الطريق التي تمتد عبر سفوح السلاسل الجبلية والمناطق الغابية الكثيفة.

– أيمكنك أن تخبرنا متى ستنطلق أول حافلة ؟

ردّ عليه الفتى القهوجي بلا تردد :

– نقطة الانطلاق الأولى من « ألميريا » قبل الفجر، وستصل إلى هنا في حدود الخامسة والنصف صباحا، أي بعد ساعة من الآن.

سرّ مراد بهذا الردّ الذي أبهج صاحبيه به رغم ترجمته العرجاء، باعثا غبطة جليّة الملامح في نفسيهما، لاسيما عزيز الذي اعتزم البقاء في إسبانيا لفترة ريثما يقرر وجهته من جديد، فهو سيتصل بابن خالته المقيم بالعاصمة منذ خمس سنوات، أما مراد وحمزة فقد اتفقا على مواصلة المسير عبر الحافلات أو الميترو أو القطار متجهين إلى الحدود الفرنسية، معولين على انتهاج توغلهما بالأراضي الإسبانية كهداية راجحة تحول دون إدراكهما من قبل حراس الحدود والبوليس نتيجة الجرم المرتكب على الفلاح الإسباني، كما يسعهما الاندماج في أوساط المجتمع الإسباني المتمدن ؛ فالمدينة بما تحمله من ضوضاء وبهرجة، لا تتيح الفرصة لقاطنيها للانتباه لغريب، أو للشرطة سهولة التعرف عليهم أو ملاحقتهم ووضع اليد عليهم بلا عناء... ففيها يكثر المهاجرون القادمون

من أصقاع العالم سائحين، باحثين عن العمل، دارسين، لاجئين، مقيمين، عابرين وغيرهم. كما أنّهما يتوقّعان الالتقاء لا محالة بجزائريين أو عرب قد يستدلّون بهم فيهدونهم إلى سبل تبلغهم غايتهم لعبور التراب الإسباني في أمان.

في الوقت المحدد أطلّت على المحطة حافلة طويلة عريضة من نوع مرسيدس، ذات نوافذ زجاجية كبيرة، تقبع خلفها رؤوس كراسي حمراء وصفراء، يقودها سائق أسود البشرة، طويل الهامة، عريض الجسم، جاحظ العينين، أصلع الرأس عدا شعيرات تطلّ من فوق أذنيه حتى قفاه، غليظ الشاربين، يوحي شكل جسمه أنه إفريقي المنبت. ركنها على حافة الطريق وسط المحطة فاحتلّتها من أولها لآخرها، وامتطاها الثلاثة بعد أن اقتطعوا تذاكرهم إلى مدريد، مندسين في تمهل الحذِر بين كراسيها شبه الفارغة من الركاب عدا ثمانية : ثلاثة كهول وزوج عجوز مسندين رئسيهما إلى حافة المقاعد في الزاوية المحاذية للنوافذ يغطان في نوم عميق كأنهما بغرفة فندق خمسة نجوم، مسدلين الستار عن أعينهما كأنهما ما ذاقا طعم النعاس لليال طوال... وفي الخلف تماما اصطفت ثلاث شابات متوسطات العمر، إسبانيات البشرة، يتبادلن حديثا إسبانيا بلكنتهن المحلية غير المفهومة، يرمقن الشباب الثلاثة من حين لآخر بنظرات تخص الغريب في التفحص.

حجز الثلاثة لأنفسهم مقاعد متفرقة قبالة النوافذ المطلة على جانبي الطريق وسرح كل منهم في استسلام للمجهول، يسبحون كل على هواه في حلم جميل أو تخطيط لغد قريب أو استرجاع لذكرى بالوطن الأم، أو إعادة ترتيب للأفكار.

****

بقايـا نار الفرقة ولوعة الاشتياق

مكثت الحافلة بالمحطة خمس دقائق، لتفارق القرية منطلقة وسط الغابة التي يقسمها الطريق إلى نصفين. أغمض مراد عينيه مسندا رأسه على راحة المقعد وراح يفكر في أمه، وأختيه، وعشيقته نورة، ماذا يفعلن الآن ؟ كيف حالهن ؟ هل هن يفكّرن فيه ؟ أسئلة كثيرة راودته... فهو لم يسبق له، منذ أن دبّ على الأرض، أن فارق حضن أمه، ولم يغب يوما عن دارهم إلا بعد أن أصابه مرض البطالة، فكان يختلس من حين لآخر ليلة أو ليلتين إلى جوار البحر في رحلة صيد مع رفقائه كسعيد وآخرين من خيرة شباب بلدية تاج الجنة.

هذا الثلاثاء، لم تنم الأم ليلتها الفائتة، ولم تستطع طرد وساوسها ومخاوفها بالرغم من قيام ليلتها بين يدي الله، فمع تبدد الليل ببروز الخيوط الأولى للفجر، التحفت إزارا أبيض وتلفعت برداء أسود وانطلقت إلى دار ابنتها مريم، لتفاجئ صهرها بضيافتها المبكرة على غير المعتاد. اجتمعت به وواجهته بما اضطربت له، غياب ابنها عن البيت ليومه الثالث، وهي الفعلة التي لم يقدم عليها قط، فطمأنها مؤكدا استعجال السؤال عنه لدى أصحابه بدءا بسعيد الذي هاتفه، غير أن انشغاله لم يجد عنده أي رد إيجابي.

زادت حرقة الأم على فلذة كبدها... عانقتها ابنتها وهي تمسح عنها دموع الحزن والشوق، مقسمة بالحلف الغليظ أن تبقى ليلتها حتى يستبين بعلها أخبارا جديدة عن مراد ، مسترسلة بالكلام الطيب المواسي لجراحها والمريح لنفسها برهة... لتستعيد على جناح السرعة دموعُها الجري على خدها منهمرة دونما رادع أو حاجز يجففها...

****

أمّا نورة، فها هي ذي تمكث ليلتها الثالثة في سرير منفرد بغرفة الإنعاش للمستشفى المركزي، بعد أن كشفت لها رسالة مراد – التي قرأتها حتى بلغت عبارة « فلا ضير إن افترقنا... » – نيته الكامنة، لتفهم أن الفراق كان غاية ينشدها، وأنها بما حملت له من هدايا وأحاسيس جيّاشة، كانت تقدم له ثمن معاشرتها ومجالستها، كما يقول المثل : « الحب الذي يتغذى على الهدايا لا يشبع »، فخيبتها الأليمة ألّمت بجسدها وأفقدتها الوعي عن الحياة... تتناولها قنينات "الصيروم" وجرعات "الفاليوم" المغروزة طي إبر بأوردة ذراعها كل ساعة. حالتها النفسية والجسدية استعصى تشخيصها على الأطباء المحيطين بها. عيونها تغسل خديها وقلبها الرهيف يتمزق حرقة على فراق حبيبها وأملها في الحياة، فليلة عرسها التي لن تأتي زادتها موتا فوق موت وألما فوق ألم، ورسالة مراد تعدّ آخر بقايا حبها المشنوق...

زارتها صديقتها الحميمة التي أسرّت إليها من قبل بحبها له، وجلست إلى جنبها قبالة وجهها تحدثها عن جراحها محاولة مواساتها لتؤنسها في وحشتها، برغم عدم علمها أو تأكدها إن كانت مصغية إليها أو غائبة عن الوعي، فراحت تقول :

– هوّني عليك يا صديقتي، مراد ليس كل شيء في هذه الحياة، حقيقة أنت أحببته وعشت معه أياما جميلة كانت مملوءة بالأحلام اللذيذة والأماني... لكنه شاب يصغرك سنا، انتهز وحدتك ورقّة قلبك فأخذ منك ما استطاع ثم هجرك دون سابق إنذار... أنت امرأة قوية بما جابهتِ من المآسي والمحن العاطفية، ما يخوّلك تخطّي هذه التجربة وموارية بابها إلى الأبد وفتح نافذة أخرى تعود عليك بالخير، فالحياة لن تنتهي بفراقه. ربما هو يتمتع الآن بوقته إلى جوار أخرى من أمثاله، وأنت تخنقين أنفاسك جهشا بالبكاء عليه صباح مساء... أقسم أنه لا يستحق أن تحزني عليه ولا حتى أن تلتفتي إلى شبحه، عليك أن تبقي قوية واقفة كما عهدتك، كما لا يجب أن تنهاري أمام الأعداء حتى لا يشمتوا بك.

– لكنني أحبه ووعدني بالزواج... (أخيرا نطقت نورة مجهشة بالبكاء).

عانقتها صديقتها عناقا حارا وراحت تسترسل في الحديث إليها، تنفث عنها غبار الألم وتنتشلها من براثن الدمار وتنزع عنها ثوب الحِداد على فراق الحبيب، تؤكد لها وجوب تجديد عزمها وأن تثأر لنفسها بمحاولة نسيانه ومباشرة الوقوف من جديد على قدميها لتستعيد حياتها وتستمر فيها رافعة رأسها كعادتها.

استرجعت نورة أنفاسها معتدلة في جلستها على السرير برغم صداع جارف ألمّ برأسها، ومسحت دمعها ثم طلبت كوب ماء، شربته دفعة واحدة، كأن صديقتها ناولتها ترياقا شَفاها من أول رشفة... استغفرت ربها واستغرقت في ذلك للحظات، متمنية لحبيبها أن يجد من هي خير منها ومن ترعاه وتحبه مثلما أحبته هي... مجيبة

نفسها في سريرتها قائلة : هيهات أن يلقى قلبا عطوفا حنونا عاشقا ومحبا كقلبي الذي ليس مثله قلب ولا في الأحلام.

غادرت مساء يومها المستشفى مرفقة بصاحبتها، وفور ولوجها بيتها فتّشت عن الرسالة التي أردتها طريحة الفراش كأنها تبحث عن شيء غالي الثمن، فعثرت عليها غير مبارحة مكانها أسفل الأريكة التي مرّ بها مراد في آخر زيارة له، معجونة مرمية أرضا، فانتشلتها وجرتها إلى حيث موقد المطبخ لتشعلها بلهيب نار الولاعة ثم رمتها في حوض الغسيل متأملة النيران وهي تتآكلها من كل جانب حتى احترق فيها آخر حرف ليتناثر رمادها مستسلما للفناء... كأنها ألقت عليها صلاة كصلاة البوذيين والمجوس على موتاهم الذين يحرقونهم أو يرمون بأجسادهم المربوطة إلى ثقل حديدي في قعر نهر كبير أو في عرض البحر.

أحرقت آخر تذكار لمراد. قرّرت فجأة أن تنسى كل شيء... قررت أن تستفيق من غيبوبتها وغفوة روحها وتمحو من ليلها ونهارها أحلامها الوردية، وأن تعيش واقعها مهما كلّفها الأمر من ألم ملمّ ومهما سبب لها من حزن مضنٍ. لكن... قلبها الرقيق يأبى عليها قرارها، فتعود للدمع تذرفه حدقاتُ عينيها الواسعتين، تختنق من جديد. ربّتت صديقتها عليها قائلة :

– يجب أن تتخلصي من شعثائك، خذي لك عطلة وسافري إلى مخيم صيفي قريب أو بعيد بمستغانم أو وهران أو بجاية، فهو أرقى وأنقى وأجمل. اقضي أسبوعا هناك، ستجددين حياة روحك وستتمكنين من تخطّي هذه العقبة وطيّ حلوها ومرها في كيس النسيان، وارميه في جوف البحر.

أومأت نورة ملمحة بسداد هذا الرأي وملاءمته حالتها النفسية المتردية، فقررت حالا تنظيم السفر في رحلة استجمام رفقتها إلى المخيم العائلي بالعيون في ولاية وهران، فهو يوفر كل أسباب الاسترخاء الذهني والجسدي لجمال موقعه وسكينته وخضرة ساحاته الزاهرة ومرافقه الراقية وخدماته الرفيهة.

****

استفاق مراد على أصوات أبواق الحافلة التي وصلت إلى محطة « آلباسيتي » على الساعة 30 : 12 زوالا، أين اصطفّت في أرجائها المتاخمة مجموعة من المطاعم التي نشرت طاولاتها وكراسيها أربعا أربعا أمام مداخلها. ركن الأصدقاء الثلاثة إلى أبخس أثمان الوجبات المقدمة لقلة مالهم الذي لا يزيد عن 200 أورو مجموعا، فالتذاكر استنفدت مالهم... التهموا سندويتشاتهم ثم أغلقوا شبعهم بفناجين قهوة ارتشفوها بسيجارة امتصوا دخانها ثم نفثوه زفيرا على عجل، ليواصلوا مسيرهم إلى مدريد.

الرابعة مساءً، في زحمة بشرية لا نظير لها بالعاصمة التي يقطنها أزيد من 3 ملايين ونصف من المواطنين، فهي تعد من أكبر المدن العشَرة بإسبانيا التي يُقدّر تعدادها البشري بما يربو عن 47 مليون نسمة في آخر إحصاء لعام 2011، يتوزعون على مساحة إجمالية تقدر بنحو 030 504 كلم^2، معظمهم متمدنون ومتحضرون، ما يبسط على بهرجتهم نظاما يتجلى من انسيابهم الآلي في طوابير مختلفة تنظمها القوانين السارية والتنظيمات المعمولة بلا رقيب متربص بالمخطئين أو عصا حارس.

****

تصطف حول محطة مدريد المركزية حافلات من مختلف الأحجام والأصناف والوجهات في نظام محكم. نزل الأصدقاء الثلاثة دهشى الأبصار، تائهين في الزحمة، مبهورين من عتوّ بنيان المحطة... دخلوا أبوابها الزجاجية الواسعة العالية، فازدادت دهشتهم لما رأوه من أضواء سطعت بالأعين كشمس الصباح، ما أخذهم إلى النهار بلا رجعة إلى سكون الليل وظلمته، منغمسين بين ثنايا حوانيتها يتمتعون بشتى أنواع المأكولات والمواد الغذائية والحلويات والألعاب المعروضة شمّا ولمسا كسلوك المتفحص للبضاعة، معبئين أجمل الصور للوافدات من الفتيات والنساء الإسبانيات المتبضعات، المتبرجات بفداحة كشفت فيها مواطن عفتهن وأنوثتهن وهندسة أجسامهمن وما حملت من لحم منحوت وغير منحوت من ألوان البشر، بادية وراء ألبستهن الخفيفة الرهيفة القصيرة الزاهية الألوان... فالعلمانية السافرة ضاربة أطنابها بهذا البلد العريق تاريخه الساحر جماله، وهي مجسّدة بلا منازع في أجساد أبنائها وبناتها وسائحيها، فنصوص الحرية المطلقة المصانة دستوريا أخذت منحى انحلاليا بلغ أبعد حدود المجون الإنساني في هذه البقعة الجغرافية من الأرض، التي ينتشر بعقيدة سوادها الأكبر الدين الكاثوليكي بنسبة 76 في المائة، بينما غير المتدينين 13 بالمائة، أما الملحدون 7.3 بالمائة، لترتب اليهودية كديانة في ذيل المعتقدات بنسبة أقليات بلغت 0.3 بالمائة، فهذه الدولة في مصف أكبر الدول العلمانية.

أما الدين الإسلامي الحنيف فنسبته تتأرجح بين 03 و 04 بالمائة من تعداد السكان، رغم المآثر التاريخية والأطلال الشاهدات على بلوغ رسالة الإسلام لهذا البلد الأوروبي، غير أن الاستعمار الأوروبي الذي اجتاح شمال إفريقيا مكّن من طمس معالمه وتشريد معتنقيه، والزج بهم إلى النزوح لبلاد أخرى خارج إسبانيا لتحتل المسيحية

الكاثوليكية مرتبتها الأولى في الديانات التي انتشرت بهذه البلاد مع استيطان أجناس عديدة بها منهم أوروبيون وأمريكان وأفارقة وآسيويون...

****

شدّ مراد انتباهه إلى اللوحة الإلكترونية يقرأ بياناتها المتعلقة بالخطوط الوطنية ومواعيد انطلاق حافلاتها وأرصفة ركونها، في حين راح عزيز وحمزة ينزلقان إلى سوبرات تشهد ازدحاما كثيفا، فاستطاعا من خلاله أن يحصدا غانمين علب لحم مصبَّر لم يعبآ بمصدره (أهو دجاج أم ديك رومي، بقر أو غنم أو لحم خنزير، أم جيفة أخرى...) كما لم يستبينا من البيانات المطبوعة بلغة غير مقروءة من طرفهما، لأية فئة موجه محتواها، أهو للبشر أم للحيوانات مناط بأكل الكلاب والقطط، المهم أنه محصّل بلا مقابل، متنصلين من مراقب تذاكر الشراء وكاميرات المراقبة المنتشرة في كل زاوية، بحيلة صبيانية انطوت عليها صيحات أمعائهما السّاغبة، فيما تمكّن مراد من تحديد الرصيف السابع للخط الرابط بين مدريد العاصمة ومدينة « جاكا » المتاخمة للحدود الفرنسية مرورا بمدينة « زاراڤوزا ». الحافلة الإسبانية ستباشر انطلاقها على الساعة الثامنة والنصف مساءً، في مسيرة 454 كلم.

وجّه مراد صوت ندائه لصاحبيه، فالتحقا به وهما يزفّان إليه بشرى ما غنماه لعشائهم، ليتوجهوا إلى شباك التذاكر، فاقتطعوا اثنتين بمبلغ 60 أورو، فيما أخذ عزيز 30 أورو كمصاريف جيبه الخاوي بطنه، أين ودّع صاحبيه متمنيا لهما حظا موفقا، وهناك قام بإجراء اتصال هاتفي مع مستضيفه الذي ردّ عليه في الحين، طالبا منه عدم مبارحة المحطة لحين اللحاق به... فيما واصلوا تجوالهم في أرجاء المحطة حتى بلغوا وقت الانطلاق، أين اتخذ مراد وحمزة

مكانا لهما بالحافلة التي انصرفت في موعدها المحدد، منسحبة من زحمة مدريد وبهرجتها شيئا فشيئا، بينما أقبل الليل عليها كعادته يحط بظلاله على أرجاء المدينة التي احتمت من كفر الليل بأضواء مصابيحها المعلّقة على رؤوس راكعة لأعمدة شامخات مختلفة الأشكال والألوان، أمّا عزيز فانتظر ابن خالته الذي وافاه في وقت متأخر من المساء ورحّله إلى مقر إقامته.

على الساعة العاشرة ليلا، توقفت الحافلة عن السير بمحطة وقود للتزود بالمازوت، بينما استل الركاب وقتهم لتناول العشاء بعد التخلص من بقايا الغداء من فضلات تحملوا لقذفها عناء طوابير بشرية اصطفت على أبواب ثلاثة مراحيض أحدها مخصص للإناث، ثم التزود ببعض الشراب والزاد لمواصلة رحلتهم.

اقتنى مراد وحمزة قطعتي خبز تناولاهما محشوتين بما غنمه حمزة في محطة المسافرين بمدريد... وفي هذا الموقف الرائع الذي استسلم أصحابه لأبواق بطونهم وهي تتصايح لهفة إلى ما حملت الأيدي من طعام، غابت فلسفة مراد الدينية وفتواه المعتادة حول حدود الله وحلال الغنيمة من حرامها، فالحاجة أم المعجزات وهي مفتاح الخطيئة... لينهال وصديقه على حظهما من الخبز بما أوتيا من مقدرة على القضم والطحن والبلع المصحوب بجرعات الماء التي تسهل مجرى الطعام المهروس بالحلق والبلعوم حتى يصل جاهزا للتحليل بالمعدة، ففاقتهما لم تتح لهما فرصة لاقتناء قنينة عصير... والماء هو الحياة أولا وقبل كل شيء... والمعين على بَرَدَة البطون من فرط الأكل وانتفاخها.

****

بينما انهمكا في الاستمتاع بدخان سجائرهما المتقدة كنافورة مدفأة بخارية تسكب أقداح البخار المنبعث من فوهتها أعلى

المنازل وسطوحها المحاطة بكومات الثلوج في الشتاء القارس كبُرَد التحفها الشيوخ درءًا للبرد ولفحات النسيم، بصحبة فنجاني قهوة ساخنة... ركنت قبالتهما سيارة شرطة مزركشة بألوان البوليس الإسباني، لافظة من أبوابها الأربعة ما احتوته جعبتها ؛ ثلاثة أعوان شرطة ذوي بنية قوية وهامة شاهقة، رمقوهما بنظرة تفحص وتساؤل هنيهة، ثم همّوا إليهما متوجهين لقطع شكوكهم باليقين.

تسمّر مراد وحمزة وتشتتت لديهما كل سبل التنصل من ناظرهم، لولا أن حالت دونهما عجوز تقربت منهم تسألهم عن ضالة لها، فانتهز الصديقان فرصتهما ولاذا بالاختباء بين ثنايا المحطة التي اكتسحتها ظلمة الليل بسواد قاتم لا يسمح بالرؤية الواضحة التي عتّمها وعسّرها انتشار الضباب بهذا المكان العالي الرّطوبة... إلى أن غادر رجال الشرطة مهرعين إلى سيارتهم التي انطلقت جانحة كحصان عربي أصيل يأبى الوثاق، بعد تلقيهم نداءً من المحطة عبر اللاسلكي، فتنفس مراد وحمزة الصّعداء مغادرين محطة البنزين على ظهر مركبهما الذي تابع سيره شرقا صوب الحدود الفرنسية في طريق جبلي ملتوٍ ومظلم لا ترى منه إلا ما تكشفه أضواء الحافلة أمام سائقها مخبرة عن كل إشارة مرورية مغروسة في جانبي الطريق، بسرعة خفيضة استسلما فيها لنوبة رقاد انتابتهما فجأة، تحت رحمة انحدارات وانحناءات المسار المقترنة بشخير محرك الحافلة المهيمن على سكون الركاب ؛ فإسبانيا معروفة بتضاريسها الجبلية الشاهقـة وطرقها الوعرة والمحلزنة.

****

الحدود الإسبانية-الفرنسية : العتبة الحاسمة

- إلى حد الساعة مازال الحظ في صفنا... (قال حمزة).

طأطأ مراد رأسه وهو يحدق بعينيه المبتهجتين للنتيجة المحققة من سفرهما، ملتمسا النصح لصاحبه يذكّره توخي الحذر والحيطة القصوى، متوسما الفلاح لرحلتهما.

أجابه حمزة بعد همزة من الصمت والتأمل في الظلام الدامس خارج الحافلة، وهو يحدق في الخطوط المتقطعة المرسومة على حافة الطريق، كاشفا عن مكنون نيته الحقيقية المبيّتة من سفره إلى فرنسا، بالإفصاح عن قبلته التي ستنتهي في إيطاليا أين يريد بناء مستقبله.

شحب وجه مراد الذي لم يعر حسابا لمثل هذه اللحظة، فهو لم يحدّث سريرته عن خوض غمار تسكعه بهذا البلد الأجنبي الغريب وحيدا دون أنيس يأتمنه على حياته خصوصا ما أبداه من مؤازرة وتضامن معه لما أصابه من انهيار نفسي جراء حادثته مع الإسباني... فحلّ به إحباط شديد ألزمه الصمت لفترة، انزاح عنه بعد أن كسر حمزة الصمت بكلمات تحمل طيها نبرات الجديّة والوفاء والإخلاص، تقدّم اعتذارا ضمنيا، قدّمه له بين ثنايا مزاح بَاسم، بعدم مفارقته حتى يطمئن عليه بفرنسا.

المحطة الأخيرة بلغها الصديقان على الساعة الثانية وخمسين دقيقة ليلا. كل المحلات مقفلة عدا حانة جانبية استندا إلى سورها في انتظار تجدد الحياة بأزقة مدينة « جاكا » الحدودية الهادئة التابعة لمدينة « هويسكا »، التي تبعد عن مدينة « إيردو » الفرنسية بسبعة وثلاثين كيلومترا فقط، يمكن بلوغها على متن مركبة صغيرة في مدة سير لا تزيد عن خمس وثلاثين دقيقة.

في دردشة ملؤها التثاؤب والنعاس المتسلل إلى أجفان مراد وحمزة، تبادلا الآراء والسبل في كيفية تخطي الحدود الإسبانية الفرنسية، فثبتا على ضرورة إيجاد دليل محلي يفقه المنافذ الحدودية غير المحروسة، وهذا الحل يستوجب مبلغا ماليا لا يقل عن 500 أورو للفرد الواحد ؛ لذا أقنع حمزة صديقه مراد بوجوب تدبر المال بأقصى سرعة، عن طريق امتهان سرقة خفيفة تسد حاجتهما، فاقتنع مراد بعد تردد شديد، شريطة أن يتحمّل مسؤولية الحراسة فقط، أما تنفيذ العملية واختيار الضحية والمكان والزمان المناسبين، فمن نصيب حمزة، لخبرته وباعه الطويل في هذا النوع من الجرائم.

بعد زمن طويل من الانتظار والتثاؤب الجارف لأثقال النوم المحمولة على الأجفان، طلع النهار الجديد على مدينة « جاكا »، انطلق في كنفه سكانها يدبون الواحد تلو الآخر منصرفين كل إلى شأنه، يتزايدون مع طلوع الشمس المتألقة في السماء رويدا رويدا، والصديقان يقلبان المارّة بأعينهما، يتفرسان جيوبهم وما حملت حقائبهم، متسكعين كالسكارى والمتشردين في أزقة المدينة، إلى أن بلغوا محاذاة بنك محلي مغروزة في قلب سوره الجانبي آلة للدفع الإلكتروني.

****

ترصد الصاحبان طريدتهما التي فضّلا أن تكون هزيلة لا تقوى على المقاومة، نظرا للحالة الواهنة التي أصبحا عليها بفعل طول السهر وكثرة التعب وقلة الراحة، كما يجب أن تكون الضحية مستعدة للاستسلام من أول وهلة، تنصاع للأوامر فورا وبلا نقاش، تجود بما تملك مقابل سلامتها، فالأوروبيون يخشون على أنفسهم أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا، بما في ذلك أبناؤهم ونساؤهم ودورهم، وهم دوما مستعدون للتقرب بما يملكون وما لا يملكون لمهاجم، افتداءً لأرواحهم.

قبع حمزة معانقا زاوية متاخمة لجهاز الدفع الآلي للبنك المحلي لساعة، بينما واجهه مراد في الزاوية المقابلة أين توسط الجهاز موقعهما، متحيّنين الفرصة السانحة... مكثا صابرين يترقبان حتى برزت لهما امرأة في عقدها الثالث، تحمل بيدها حقيبة يدوية حمراء علقتها على كتفها بعد إخراج محفظة صغيرة أظهرت منها بطاقة وقطعة ورق، وانكبت على الجهاز تدعك بأناملها أرقاما وأحرفا مستعينة بين الفينة والأخرى بورقة استرقت إليها النظر، ثم تنظر شاخصة إلى شاشته، تنقل إليها ما احتوته الورقة من أرقام، ثم استغرقت هنيهة حتى تلفظ الحائط أوراقا نقدية لفّتها محيطة البطاقة التي استعادتها بعدما غذّت بها ذاكرة الآلة أول الأمر، ثم انصرفت وهي تدس أغراضها في المحفظة التي اختفت في حقيبتها، متوجهة صوب الزاوية الفارغة من المارّة، أين يجلس حمزة القرفصاء خلفها...

انقض حمزة على فريسته كأسد وثب على غزال غض فأرداه ميتة تنهشها الضباع وتمزقها النسور، فبسرعة خاطفة استل من يدها الحقيبة الحمراء اليدوية وفرّ كبرق وامض بلا صوت مدوّ، إلى

الزاوية المقابلة أين انتظره مراد الذي انطلق هاربا قبله كأنه يرشده إلى سبيل الخلاص من الضحية التي خلصت إلى العويل والنواح على ما أصابها، بعدما تسمرت مكانها لدقائق من هول الصدمة، رافعة يديها عاليا في استسلام مهزوم، ترجو الغفران والخلاص، لتطلق العنان لحلقها صادحة بالصراخ والاستنجاد...

عثر السارق وشريكه طي الحقيبة على مبلغ 300 أورو لفّت حول بطاقة ائتمان وقطعة الورق المتضمنة كلمة سرّها الآذنة باستعمالها، مع قلادة ذهبية ذات وزن وهاتف خلوي رفيع استولى عليهما حمزة، فيما أخذ مراد البطاقة وأعاد استعمالها بنفس الآلة الحائطية، ساحبا ما بقي للمرأة من نقود بحسابها البنكي المقدر بـ 2800 أورو، وهذا بعد مدة لم تزِد عن الساعة من ارتكابهما لجريمتهما، فقد صدق فيهما من قال أن الجاني يعود أدراجه إلى مسرح الجريمة بعد ارتكابها، وقد فَعلَا فِعلًا لكن لارتكاب ذات الجرم بثوب آخر...

انبهر الصديقان لنتائجهما المحققة بسهولة وما أدرّته عليهما من ربح. هذا العمل الذي أقدما عليه سمّوه بطوليّا لأن هذه أول مرة يعبّئ مراد جيبه بمال مأخوذ عنوة من امرأة، لقد عهد أن يأخذ المال من نورة بطيب خاطر مدهون بحيله الخبيثة وتلاعبه بمشاعرها، أما حمزة فقد أقنعه بفتوى شرّعها لنفسه مفادها أن أهل هذه البلاد وكل أوروبا كفّار، لذا فأموالهم وما يملكون غنائم تحق للمسلمين وتحل لهم مهما كانت طريقة تحصيلها... ثم اقتاده بلا تمهل إلى إحدى محلات الملابس واقتنيا بذلتين جديدتين وحذاءين أسودين لامعين، فغيّرا مظهرهما الخارجي بعد التخلص من ملابسهما الأصلية، كما مكّنا بطنيهما من وجبات دسمة ساخنة غنية بالفيتامينات في

مطعم فاخر يحمل في طابقه العلوي فندقا، اكتريا به غرفة لقضاء ليلتهما تلك، فيما يتدبران دليلا يطير بهما إلى ما وراء الحدود، بعد رشوة قابض الفندق لعدم حوزتهما على وثائق هوية. فمن أهم الميزات الحميدة بأوروبا أنّ المال يمكّنك من شراء ما تشاء وتستعبد من تشاء من أهلها، فهم حقيقة عبدة المادّة ولها يسجدون ويركعون، وفي طلبها لا يملّون ولا يسأمون، ومن أجلها يقتلون ويذبحون وعلى شرفهم يدوسون، وفي سبيلها حياتَهم يبيعون...

المطعم الإسباني أسفل الفندق يضم طاقمه العامل شابّا جزائريا يدنو من الثلاثين سنة من عمره، نحيف الجسم مدقق الأنف أسمر البشرة، تعرّف عليهما من لكنتهما ليتصاحبوا على الفور، فالجزائريون على الراية يتحدون ومن أجلها لا ينقسمون وفي سبيلها يفنون، لا يهمهم الجزائري من يكون أو من أين أتى فهم في الغربة إخوة متواصون، وهذا ما عرفوا به وشاع عليهم من حميد الخصال بين أصقاع العالم كلها، فضربوا أعظم مثال في الاتحاد والولاء للوطن الأم ولألوانه الطاهرة الزكيّة في أحلك الظروف أو أسعدها.

****

على جانب من المطعم عرّف العامل عن هويته وموطنه، ما سرّهما كثيرا وطرد عنهما وساوس القلق من مغبة التعثر في حدود إسبانيا وفرنسا، فلاذا بالحديث إليه عن انشغالهما ملتمسين حلا ناجعا يداوي أرقهما ويهدئ روعة قلقهما وينهي عهدة شغلهما التي امتدت طول النهار بحثا عن دليل إلى ما وراء الحدود، فجالساه طارحين عليه ما جال بخلدهما من أسئلة ترمي إلى اجتياز العقبة

الحدودية في أمان وضمان، فدلّهما على الصواب لمعرفته بأغوار هذه العملية الخطيرة والحساسة ؛ فهو محترف مطلبهما المدرّ للمال بلا عناء كبير، شريطة دفع رسومات المرور المقدرة بألف أورو لكليهما، فاستجابا لمطلبه بعدما ألزمهما قلّة الحركة خارج الفندق تحسبا لمصادفة دوريات رجال الشرطة الذين يشددون البحث والتحري عن مجرم غريب عن المنطقة استولى على حقيبة خليلة رئيس شرطة المدينة.

كادت نظراتهما المتبادلة وحمرة وجنتيهما اللتين رسمتا معالم الخوف والرّيبة تكشفهما، فبادرا باعتزام المغادرة في صباح الغد موهمين صاحبهما بخشيتهما أن يصادفهما بحث الشرطة وتحرياتها الحثيثة إلى وضع اليد عليهما فيخيب مسعاهما، إلا أن الشاب الجزائري استحلفهما بقضاء ليلة أو ليلتين ببيته ذي الغرفة الواحدة الواقع في طرف المدينة الآمن من شرّ المتحرّين، على أن يتّقيا عيون هؤلاء، بإعدام حركة تنقلهما خارج البيت، لغاية الاتصال برسول الرحلة عبر حدود فرنسا، فنزلا عند رأيه المقترن بشرط دفع مستحقات الإيجار ثمنا لمكوثهما بداره، فصدق القائل فيه حين قال : « مصائب قوم عند قوم فوائد ».

لم يرتح الصديقان كثيرا لتصرف صاحبهما المادي، إلا أنهما أغرياه بمزيد من المال وحدّثاه بلغة فيها من الوعيد والتهديد ؛ ما حدّه عن الإقدام على أي تصرف متهوّر قد يأتي على أجله قبل أوانه، متحمّلا بقليل صبر استنفذه خلال فترة استضافتهما ليومين آخرين مدفوعي الأجر مقدما.

في مساء اليوم الموالي بلّغ الشاب زبونيه أن رجال الشرطة داهموا الفندق وفتشوا جميع غرفه بحثا عنهما، كما اصطحبوه إلى المخفر واستجوبوه عن إمكانية علمه بالمجرم الذي تعدى بالسرقة

على خليلة رئيس الشرطة... متفاخرا أمام صاحبيه بمعارفه ونتاج خدماته الجليلة التي يقدمها لعناصر الشرطة بالمطبخ، والتي شفعت له أمامهم فأخلوا سبيله بعد أربع ساعات من الاستجواب والسؤال، ما زاد من وساوسهما والشك الذي ساورهما وحزّ في خلديهما تجاه حقيقة منبت هذا الشّاب، الذي لا يعدو أن يكون مقلّدا للجزائريين وليس منهم، ملتزمين بحرص وحذر إضافي.

حمد حمزة ومراد لصاحبهما موقفه دون إفصاح عن ضيقهما وقلقهما، وسايراه بمكافأة مالية أخرى لإيمائه بالعرفان الكبير للجميل الذي أسداه لهما، مهدرين ما بقي لهما من نقود لم تتعدَّ 1000 أورو اتفقا على اقتسامها بعد تجاوز الحدود الإسبانية إلى فرنسا، بينما بقيا ماكثين ببيته يقتلان وقت فراغهما في الاستماع للإذاعة المحلية، التي بثت منذ يوم فارط في نشرتها المسائية الخاصة بأخبار الوطن والأخبار الجهوية، بلاغا بالبحث عن ثلاثة شبّان جزائريين اعتدوا بالضرب على فلّاح وسلبوا منه مبلغا ماليا معتبرا في جنح ليلة الاثنين إلى الثلاثاء، أدى إلى فقدانه وعيه ما ألزمه المكوث بالمستشفى ليوم كامل بليلته.

ابتهج مراد لهذا الخبر وصاح يحمد الله ويشكره رافعا يديه المحروستين بعينيه الناظرتين إلى عنان السماء تارة، ويقبل راحتيهما تارة أخرى ماسحا على وجهه. لقد هنأ باله أخيرا من هول ذنب عظيم حمله على كاهله حتى كاد يفقده صوابه، فكرِه اليوم الذي جاء فيه إلى الدنيا بسببه، لقد شغله عن مشوار حياته الذي وصمه أول الأمر بالخيبة لما أجرم... وها هو يتيقن مستمعا بإمعان، أن الإسباني الذي دفعه لم يفقد حياته بل فقد وعيه فقط، وبعد أن استفاق من غيبوبته، قام بالتبليغ عنهم والافتراء عليهم بالاعتداء

عليه وسلبهم ماله، وهو الخبر الذي حنق من أجله حمزة وغضب كثيرا، محدّثا صاحبه بلغة التهديد والوعيد للإسباني الذي نعته بشرّ النعوت والألقاب، متمنيا رد الصاع صاعين لخبث نيته وشرور نفسه المريضة، فأتى عليه يفش غليل غضبه بما حملته شفتاه ولفظه لسانه البذيء من كلام نابيّ وسوقي اعتاد نضحه في آذان من يسمع صخبه الذي يصم الآذان ويكسر جدران الحياء بين أوساط سكان بلدية تاج الجنة، فيما اكتفى مراد بالضحك والسرور والاغتباط بهذا الخبر الندىّ الذي ردّ إليه روحَه وزرع في نفسه الاستبشار بمستقبل حافل في فرنسا.

****

انقضى يوما الحجز غير الإجباري ببيت الجزائري الشاب، وها هي ذي نهاية الأسبوع على المشارف، فليلة الخميس إلى الجمعة كانت فاصلة الرحلة في عبورهما الحدود بواسطة شاحنة لنقل الخضروات، تخبآ في مقطورتها بين صفوف صناديق الخضر التي تم تحميلها بمخزن البضائع المحاذي لبيت الشاب القابع في طرف المدينة. وبإحكام التخبئة لم تكشف عنهما أجهزة السكانير لرجال المراقبة الحدودية لكلا البلدين، مكتفين في عمل روتيني بمراقبة وثائق سائقها المتواطئ مع صديقه الجزائري في مثل هذه العمليات، والذي دهن ذهن المراقبين وأغرى أعينهم بقنينتي راح من نوع رفيع (شامبانيا وويسكي) ليمرّ بسلام مع ضيفيه المردومين تحت كومات الصناديق.

بلغ سائق الشاحنة بهما طريقا فارغا بتراب فرنسا، يبعد عن الحدود بما يربو عن 25 كلم، ذا غابة كثيفة مشارفة لمدخل مدينة

« بـو » (Pau) الفرنسية، فتدحرجا منها مغادرين وهما في أوج لحظات سعادتهما لظفرهما بنجاح باهر تمهّد لهما فيه الطريق بسهولة لم يتوقعاها، برغم الإرهاق والإجهاد النفسي والجسدي الذي تعرضا له جراء هذه الرحلة المتخفيـة.

****

المضمار الوعر : مـــذاق الوحدة والغربة

« من لم يتعثـر لن يجيدَ تخطي الحفر »

تشير الساعة إلى الثالثة صباحا، الطريق فارغ من السيارات، تنبعث أنوار من بعيد، تنبئ عن اقترابهما من مولج مدينة لا تزال تغط في نوم عميق هذه الجمعة. جرّ مراد وحمزة رجليهما إلى أن بلغاها حيث تعرفا على اسمها من خلال اللافتة الإلكترونية الكبيرة التي تتوسط أعلى الطريق، راقصة أنوارها إشراقا وترحيبا : « مدينة PAU ترحب بكم ». بحَثَا عن مكان يأويان إليه، فاهتديا إلى نزل موارب الباب، دقدقا عليه ففتح لهما عجوز تجاوز عقده السادس بسنين، سألاه غرفة ليردّ عليهما بإيجاب بعد إغراق عينيه بمائة أورو، كفته للسماح لهما بقضاء ما بقي من الليلة فقط دون مراعاة التنظيم المعمول به في طلب وثيقة هوية، فحجزا واحدة من سريرين تمدّدا فوقهما منهكين وقد أرهقتهما الليلة الليلاء... غزتهما سريعا عواصف هوجاء من النعاس الآخذ للأرواح في سِنة من النوم، فلم يستفيقا إلا على بهرجة أحدثها الشارع المقابل بزحمة السيارات وأبواقها المتصاعدة في جلبة تردّدها جدران الغرفة ونافذتاها المطلتان على الزّقاق مفتوحتان.

على فناجين قهوة الضحى تقابل الصديقان حمزة ومراد يتجاذبان أطراف حديث مقتضب، فحمزة يجول بخاطره في مستقبل رحلته إلى إيطاليا غير آبه بمراد، فهو قد بلغ به فرنسا، يكفيه لحد الآن معيّته، كما أنه يمتلك 500 أورو نصيبه من الغنيمة، يستطيع تدبر شؤونه بها إلى أن يجد حلا لنفسه. أما مراد فهو يخمن في المدينة التي سيقصدها قريبا ليبدأ بناء جنته، غير أنه في هذا اليوم بالذات جال بفكره كثيرا في حال والدته التي فارقها منذ سبعة أيام وتركها وحيدة، متيقنا أنها تحترق تحت رحمة نار الشوق إليه وتتمزق خوفا عليه كل لحظة مرت عليها دون أن تراه، ناذرا وعدا لنفسه أن يهاتفها بعد ساعة.

فاجأ حمزة مراد بالكلام الذي زفّ القرار غير المنتظر قائلا :

– يا صديقي كانت رحلتنا شيقة وشاقة... والحمد لله... فالحظ كان طيلتها معنا وحليفا لنا...

– أجل، قد صاحبتنا دعوات الخير طول الطريق، ونسأل الله أن يسهّل لنا ما بقي من مسيرنا في هذه البلاد... (أجاب مراد).

– المهم... عليّ أن أقول لك الآن حظا موفقا، فأنا مازالت أمامي رحلة طويلة وغامضة، عليّ بلوغ إيطاليا كما تعلم، ولا وقت لديّ للانتظار...

– كيف ذلك ؟؟ أتريد أن تتركني هنا لوحدي ؟!

هذه اللحظة كان يترقبها مراد، لكن ليس بالطريقة التي انتهجها حمزة ولا بالسرعة التي سارت عليها ولا في الظرف والموقف الذي واجهه به، فمراد كان يتوسم في صديقه الوفاء بوعده الذي قطعه عليه في إسبانيا، بأن يطمئن عليه جيدا ثم يمضي لسبيله، غير أنه

خذله بهذا القرار الجائر، فها هو ذا يتركه بين جدران بلدة لا يعرف شمالها من جنوبها ولا مدخلها من مخرجها، كما أنه لا يدري كيف السير على أرضها إلا باهتداء الفؤاد وحدس القلب وترقّب الحظ إن حالفه وآزره.

– أنا لست وصيّا عليك يا رجل... اتفقنا أن نصل إلى فرنسا وها أنت ذا تبيت ليلتك الأولى في حضنها، والآن عليك تدبر أحوالك بنفسك... أنت هنا في مدينة زراعية، تستطيع أن تجد لنفسك عملا في جني محاصيل العنب أو الفواكه بسهولة، فاليد العاملة قليلة، لذا تدبر عملا يسيّر حالك المادي وسيمكنك من الاستمرار في العيش بسلام لغاية أن تواتيك فرصتك التي لا أظنها بعيدة المنال منك، لتلتقي بشريكة فرنسية قد تعشقك وتجلي عنك هم الفقر وبؤس الوحدة وغم الغربة، أو تحظى بوظيفة مناسبة وفقا لشهادتك الجامعية... أم أنني جانبت الصّواب ؟ إني متأكد يا صديقي من أنك ستكون أوّلنا الذي سيسوّي وثائقه وتفتح له السعادة أبوابها في هذه الجنة... توكّل على الله فقط يا مراد. كن حذرا في الأيام الأولى، حتى تتعرف على كواليس الشوارع والأحياء، لاسيما مداخل ومخارج المدن وطرق التنصل من البوليس قبل تسوية وضعيتك، واعلم علم اليقين أنهم إن اكتشفوا أمر إقامتك غير الشرعية وقبضوا عليك فأنت في عداد العائدين إلى البلاد.

أظلم وجه مراد فجأة وأفلتت بشاشتُه بما أحسّه من نكد كأنّ الدّنيا ضاقت عليه بما رحبت، فراح يتأفّف ويستغفر في آن واحد، يدير وجهه عن صاحبه الذي لم يعره اهتماما بالغا، ليهمّ حمزة بعد هنيهة بالنّهوض قائلا في حزم لا ترتجى منه رجعة في القرار :

– صديقي مراد... حظا موفقا، ونلتقي في البلاد يوما ما...

ثم مشى بخطوات ثقيلة بعد أن صافحه مراد ورأسه معلّق إلى عينيّ صاحبه يتفحّصهما، فما وجد فيهما من الشّفقة على حاله من إشارة، ثم تركه وعيناه تتبعانه حتى غاب عنه في زحمة السّير.

مراد بمفرده في بلاد لم يسأل عنها بعد، يقلّب ناظره يمنة ويسرة، شاردا بفكره في وضعه، ماذا يفعل الآن ؟ أين يذهب ؟ أي طريق يسلك ؟ ما العمل ؟؟؟

راودته أسئلة كثيرة، إلى أن احتكم إلى رأي رآه سديدا، إذ قرر أن يبحث له عن عمل ومكان يبيت فيه مستأنسا بمثل صيني يقول : « لا تظهر ذراعك المكسورة لعدوك »، مردّدا في سريرته هذه الآيات : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. فتسلّح بالشجاعة والهمّة، مستفيقا من غيبوبته التي أخذته الوحدة فيها بعيدا عن هرج الحيّ الذي كان تائها في إحدى مقاهيه المزدحمة.

****

دفع ثمن القهوة وباشر السّير يتفحّص المدينة يقرأ لافتات دكاكينها وأسماء شوارعها ككتاب لم يعرف له عنوانا يتصفح محتواه، متسلقا معاني عناوين فصوله بعينيه وذهنه، يقلّب عينيه بين صفحاته، يكتشف الأزقة ومحاور الطرقات وأماكن المقرات الحكومية ومؤسسات الدولة والمؤسسات التجارية والترفيهية والساحات العمومية والمحطات، إلى أن بلغ ساحة كبيرة ذات جنّات زاهرة وبساط أخضر ممتدّ على طولها، تفترشه العائلات السائحة وقت الظهيرة.

استقل كرسيا حديديا قبالة ثريّا صخرية يلتفّ حول عنقها ثعبان يخرج من فيه ماء عذب، تسبح أسفله في حوض مائي بعض البطّات وأوراق الشجر المتناثرة في تناسق شدَّ انتباهه... فجلس وهو سارح يتأمل البطات تارة، وتارة أخرى يغوص بناظره في تأمل أطفال يتأرجحون مرحين فرحين، على أرجوحة علّقت حبالها بغصن شديد مائل لشجرة كبيرة، شملت بظلالها بعض العائلات التي ألّفت مجموعات صغيرة تجلس إلى حصائر وكراسي بلاستيكية قابلة للانثناء، يتجاذبون الحديث على زجاجات عصير أو حلوى، كأنهم ثمار ناضجة أسقطتها نسمات الرياح من عنقودها فانتشرت حول الشجرة الأم. وأمامه جلست امرأة تناهز عقدها الخامس، تجر جروا ذا شكل جميل، تحمل جريدة تتفحصها غير آبهة بمن حولها.

انتبهت السيدة لمراد فراحت ترمقه بنظراتها محاولة لفت بصره، فقد أعجبها شكله وهامته الرجولية وارتاحت لملامح وجهه البريئة، كما لاحظت الانبهار البادي على عينيه من سحر ما يراه في هذه الحديقة التي تعدّ قِبلة سكان المدينة للاستجمام وقضاء قسط من الراحة والسكينة، فتفرّست فيه الغربة عن المكان.

لم يلتفت للمرأة، فعقليته الجزائرية تحرّم عليه اتباع النساء وعوراتهن، لاسيما أنّه مسلم ببلاد كافرة، فالعرف البلدي يستوجب عليه أن يتصرّف بأخلاق عالية، كما أنه وفقا لتجارب سابقيه التي حكيت له الناصّة على أنّ عليه الاقتداء بسكانها، غير مبال ولا مكترث لأحد ممّن حوله... إلّا أنّه لمح محاولاتها شدّ انتباهه من خلال كلامها الموجّه إلى جروها بصوت عال، مع ملاعبته برمي غصن صغير بعيدا، وأمره بإحضاره بعد أن فكّت وثاقه، لكنّ محاولتها باءت بالخيبة لتمكّن مراد من لجم نفسه عنها وعدم ثقته، فخاف

من مغبة إثارتها بما يزعجها أو يثير حفيظتها، مما قد يدفعها إلى طلب الشرطة التي ملأت المكان بزيّها المدني، الذي لم يتفطن له إلا بعد تذكر نصائح حمزة، فقرر الانصراف فورا، مستعيدا توجيهات صديقه بوجوب تفادي الأماكن العامة لانتشار البوليس فيها ؛ فخرج من الحديقة على عجل خائفا يترقّب، يمشي بخطى الحائر الذي لا يدري أين يصير موضع قدمه الموالي، إلى أن بلغه الليل بسرعة لم يحسب لها حسابا، فهرع إلى الفنادق يطرق أبوابها عساه يحظى بغرفة يقضي فيها ليلته، لكن دخوله غير الشرعي جعله غير مرغوب فيه بين أحضان أي فندق أو نزل.

****

مع التقدم السريع للّيل إلى المدينة التي خفّت زحمتها، انطلق في بحثه من جديد على مخدع بديل لا يشترط هوية، في ظلّ جهله التّام بمسار طريقه، فاقتادته قدماه إلى زاوية شارع معدوم الإنارة، حسبه يقصّر مسلكه إلى النزل الذي قضى فيه ليلته الأولى مع حمزة، فالشوارع والأزقة تكاد تتشابه مع بعضها، تكسوها ظلمة حالكة سكنت ذلك الرواق من الشارع المتشبع بكل أنواع القاذورات والفضلات والأوساخ المتناثرة في استعمار يتعذر معه المرور بينها دون نيل رائحتها النتنة وبعض آثارها، كما لم تكشف ستائر الليل المظلم المنسدل في هيمنة وطغيان على الشارع، لانعدام الإنارة العمومية، ما اعترى أسواره من صفرة النّسيان والهجران، ليصبح مرتعا للصوص والعصابات الجانحة عن القانون، المقتاتة على ممتلكات ضحاياها من المارة...

بمجرد أن تحرك مراد مهرولا وهو يغوص في ظلمة الزقاق، مهتديا إلى مخرجه ذي الأنوار المنبعثة من الزاوية المقابلة على بعد نحو 150 مترا، وبعد خطوه ما لا يربو عن العشر خطوات تلقّى نداءً بالتوقف جاءه من مكان قريب قاتم الظلمة على جنبه الأيمن، التفت فلم يرَ أحدا، فواصل سيره والوجل يعتصره حتى بدأت أسنانه تصطك من شدة الخوف الذي انتابه وبدأ يتلبس جسده كرداء مثبّط لخطاه التي تثاقلت موازينها بمجرد أن عاود ذات الصوت أمره بالوقوف، فوثب مكانه مستذكرا المثل القائل : « إن أردت السلم فاستعدّ للحرب »... غير أن ركلة مباغتة بعصا خشبية أثنت مؤخرة رجليه، ورفعت جسده عاليا نحو السماء وأردته طريح الأرض كنخلة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فما إن همّ بالنهوض لاستجماع توازنه، حتى وثب عليه شابان قويّا البنية لم يتبيّن ملامح وجهيهما، يحملان خنجرين بزغ بريقهما في عينيه، أحدهما وجّهه إلى رقبته مرتكزا بركبته على صدره، لافّا راحة يده وأناملها حول عنقه يسأته بقوة ضيّقت تنفّسه حتى كاد يهلك، أما الآخر فراح يفتشه ويتلمس كل أنحاء جسده حتى استنفد ما بجيوبه من نقود وما تحت سترته من وثائقه الشخصية التي كانت مدسوسة في كيس أسود محكم الإغلاق... وما إن فرغا من مهمتهما حتى اتفقا عليه يركلانه ويلكمانه بما أوتيا من قوة وهو تحتهما يصدّ ما استطاع منها ويصيح ألما ونجدة مستغيثا في يأس، مناديا بأعلى صوته حتى جف ريقه وخارت قواه، لكن لا حياة لمن تنادي وما من مجيب لدعواه...

فرّ الشابان المعتديان بعيدا منغمسين في الظلمة الحالكة، بعدما أنهيا مهمتهما بنجاح، اختتماها بما أمطراه من وابل الشتائم لمّا تفحصا وثائقه وتعرفا على جنسيته الجزائرية، فيما لبث هو مدة

تزيد عن الساعة ممدّدا أرضا يفترش بقايا زبالة ارتطم بها أثناء الهجوم العنيف عليه، أيقظته رائحتها النتنة من إغمائه، وآلام اللكمات والركلات تقرضه وتوجعه كثيرا، لينهض مبطئا سيره في تعرج وتمايل رابطا على بطنه، ممسكا برأسه ومستندا إلى حائط جانبي، يئنّ وجعا... إلى أن بلغ زاوية الشارع المنير.

واصل تحت ضوئه مشيه الثقيل الخطى في عسر مؤلم، لم يلبث مليّا حتى خارت كل قواه، فاتكأ إلى حائط وجلس مفترشا الأرض ضامّا ركبتيه إلى صدره وذراعيه يشدّهما إلى بطنه، حتى بدا ككومة قش مرمية أو كيس زبالة ينتظر عمال النظافة.

****

بات مراد على هذه الحال مفترشا بلاط الأرض ملتحفا فضاء السماء الصافية التي جاء ليلها بصقيع سكن أضلعه بردا، ما زاد كدماته ألما، وهو في خضمّ هذه الحالة المزرية يذرف دموع حزن وندم على ما أصابه في واقعه، ملتمسا العفو والغفران من والدته التي كانت تداوي شكاويه وتذمّره بافتراش الأرض زهورا حتى لا يثيره أي شيء، كأمير ذلّلت له الخدم الطّريق... وها هو اليوم يترامى كقشّة هوت بها الرياح في مكان سحيق، لا أحد يواسيه أو يؤنسه أو يداوي جراحه... بكى طويلا وتألم كثيرا وتحسّر على حالته، تذكر تضحياته ومعاناته ومساعيه التي اختلط حلالها بحرامها حتى يصيب مراميه التي تبخّرت أحلامها من أولى أيّامه، كأنّما عبست الدّنيا في وجهه مرة واحدة وأدارت ظهرها وولّت عنه بمرّها عن حلوها.

الهواء بارد والنسيم قارس صباح هذا السبت الذي يعدّ أول يومي عطلة نهاية الأسبوع بفرنسا، الساعة السادسة والنصف صباحا، لم تستيقظ الشمس كعادتها باكرا هذا النهار، كأنها في عطلة هي الأخرى، فسُحب السّماء حجبت أشعتها ومنعتها من بلوغ

الأرض، لتعِين بلاط الأرض على تعذيب جسم مراد الذي لم يسبق له أن ذاق قساوته وسطوته التي يهيمن بها على من ليس له مأوى. مازال المسكين متسمرا إلى السور منكمش الأضلاع، يمتصّ جسمه المتصلّب لفحات القرّ، لم ينم ليلته التعيسة، يحفّه الأسى من كل مكان... مرّ قربه أوّل رَجلين يتبادلان أطراف الحديث دونما إعارته أدنى اهتمام أو انتباه لحاله، غير أن أذناه التقطتا كلمات عربية كشف عنها مجرى حديثهما، تسلّقها باله منتبها، فرفع رأسه من بين ذراعيه، وتبعته عيناه المنتفختان اللتان فتحهما بعسر تقتفيان أثـر المتكلمين، قائلا :

– أنا أخوكم... أغيثوني لوجه الله...

التفت إليه أحدهما قائلا لصاحبه : « هل تعرفه ؟ »، وردّ الآخر : « لا أظنني أعرفه... وأنت ؟ »، فأجابه صديقه بالنفي بعدما توقفا هنيهة ليتجها صوبه.

اعتدل مراد في جلسته متوسلا إليهما وهو لا يكاد يقوى على التلفظ :

– ساعدوني لله، أنا بردان أتألم وجعا...

ثم أجهش بالأنين والدموعُ تتقاطر من عينيه في استسلام تام لقرار محدّثَيه.

****

أعانه العربيان على النهوض وأسنداه بساعديهما وهو يتوسطهما محاولا إرغام ركبتيه على حمل ثقل جسمه، وراحا يواسيانه ويطمئنانه حتى بلغا به مدخل عمارة تنتهي إلى طرف المدينة، فولجاها ليصعدا سلّمها على مهل إلى طابقها الثالث أين أدخلاه مسكنهما الذي يقيمان فيه.

لأول وهلة تلج فيها هذا البيت الخشبي بابه، تستشفّ كأنّ ساكنيه ليسوا بشرا، بل عبيد سُجنوا فيه وأعدموا من كل أسباب العيش البسيط السّاكن في كنف النظافة والتّرتيب. هذا البيت لم يشهد نقاوة أو اهتماما بشريّا منذ أمد، فالنظام فيه مخنوق، وصيت الفوضى العارمة مسموع ؛ الملابس المتسخة وغير المتسخة متناثرة في كل مكان وزاوية، أدوات الطعام من أواني وصحون وملاعق تقتات على بقايا ما علق بها من طعام حباتُ الخنافس والبعوض ذي الأذيال والأجنحة المعشّش في سطح البيت، ناهيك عن الكؤوس وفناجين القهوة وزجاجات العصير والنبيذ بأنواع شتى – منها الفارغة ومنها نصف المملوءة – مبعثرة في كل ناحية... كما تلمح قاعة المطبخ محتضنة فرنا أسودَ موصولا بأنبوب غاز لا ترى فيه بقعة تبيّن معدنه، أما الثلاجة فمائلة الأساس صدئة الباب وتقبع قرب النافذة المطلّة على العمارة المقابلة، وصالة الجلوس اجتمعت محاذية زواياها ثلاثة أسرّة تعلوها بطانيات ووسائد لا تطيق الأنوف اشتمام روائحها النتنة، تتوسّطها طاولة طويلة الشكل مجبّرة الأرجل بمسامير بارزة الرؤوس في سطحها، يقابل الأسرّة تلفاز مشقق الشّاشة مفقود الأقفال، أما الغرفتان المتقابلتان في الرواق، فيفصلهما حمّام بلا أبواب تفرض الحياء على والجه...

مدّ العربيّان مرادا على أنظف الأسرّة وهو في حالة يُرثى لها لم تخوّله تفحّص المكان الذي هو بصدد الاسترخاء والركون إلى الراحة فيه. جلس أحدهما بمحاذاته يطعمه شيئا من الحليب السّاخن الذي حضّره في عجل، فتجرّعه بصعوبة من أثر الخنق دون رغبة فيه كحمل وديع مطيع، والحزن يمضّه مضّا، فيما أحضر الآخر غطاءً رثّا

دثّره به وهو يرتعد تحته من شدة البرد. لم تدم فترة استفاقته حتى غفي عن الحياة مسافرا في كرى عميق. وارب العربيان وراءهما باب صالة الجلوس في هدوء ملؤه الشفقة على هذا الأخ العربي الغريب، ليفسحوا للراحة الهيمنة على جراحه مهوّنة عليه كربته.

****

تحديات النفس في مواجهة الواقع المرّ لفك العيلة وهجر الفاقة

« الرضا بالهوان مذلة »

استردّ مراد حياته مع الظهيرة، يكاد جسمه ينفطر من شدة الأوجاع التي التوى متألما من وقعها عليه، سمعه أصحاب البيت يئنّ، فاقتربوا منه مسلّمين عليه، تعلو وجوههم ابتسامة فرح لاستعادته عافيته، وراحوا يربّتون على كتفيه بعد مصافحته، ثم جلسوا قبالته على السرير المحاذي.

أما هو فبادلهم الابتسامة والتساؤل عن هويتهم يزداد غزارة وحشرجة في صدره، يحثّ لسانه على طرحه، لكنه في الآن نفسه حاول استرجاع ذاكرته للوراء... لقد تذكّر أنه تلقّى العون من شابين عربيين، والآن هم ثلاثة فمن يكونون يا ترى ؟

– مرحبا بك بيننا يا أخي...

افتتح الحديث أحدهم معرّفا عن نفسه وأصحابه قائلا :

– اسمي أحمد من الجزائر، وهذا أخونا عليّ من المغرب (على يساره)، أما عن يميني فعُمَر المغربي هو الآخر، ورابعنا الغائب حاليا لظروف عمله يسمى خالد وهو تونسي. وأنت، أيمكنك أن تعرّفنا بنفسك.

– مراد، أتيت من الجزائر رفقة فريق من الشباب عبر البحر بواسطة زورق، وصلت إلى هنا منذ يومين رفقة صديق لي غادر ظهر الأمس صوب إيطاليا، وكما وجدتموني بالأمس، فقد تعرّضت للاعتداء بالضرب من طرف شخصين لم أستطع تحديد معالم وجهيهما لظلمة الزقاق الذي مررت به، سلبا منّي أموالي وكل وثائقي التي كانت بجعبتي.

ثم صمت منكّسا رأسه في تأفّف ينمّ عن غمّ ألمّ به وحزن جاش عليه مرّة أخرى لمجرد تذكره الحادثة.

– هوِّن عليك ولا تحزن على ما فات، واعلم أنك الآن بين إخوانك ولن يصيبك أي مكروه، اِحمد الله أن المعتدين لم يقضوا عليك. لقد سلكت أخطر حيّ في هذه المدينة، ففيه تقبع عصابات المافيا والمجرمين الخارجين على القانون. (أضاف أحمد في رسالة طمأن بها أخا منبته).

– أشكركم يا إخوتي وأسأل الله أن يقدّرني على ردّ جميلكم...

– لا عليك، المهمّ أن تستعيد عافيتك ثم نتدبر لك عملا تعيل به نفسك إذا رغبت في البقاء معنا، وبعدها يفتح الله عليك بالخير إن شاء... (جاوبه عليّ بلكنته المغربية التي راقت لمراد).

أطلق الشباب العنان لألسنتهم يتجاذبون أطراف الحديث عن الأحوال بفرنسا بنقم وحنق يعتريه لوم الظروف وما جنوه على أنفسهم وما اقترفوه في حقّها من جرم سبّبته قراراتهم الارتجالية المبنيّة على أسس هشّة وأعمدة غضّة غير نابعة من يقين مدروس المعالم أو واضح الرّؤى، ما ساقهم إلى هذه البلاد الكافر أهلها، المستبدة إدارتها، الطاغية قوانينها، الظالمة عدالتها تجاه المغتربين بها...

كما تجاذبوا الأخبار الجديدة التي تتسرّب إليهم عبر اتصالاتهم القليلة مع أهليهم بالبلاد، وما يدور بها من أحداث ومستجدات في شؤون الحياة الاجتماعية هناك، كل حسب انتماء جنسه.

بعد فترة من الحديث الشّيّق المشحون بالأخوة والتضامن فيما بين هذه المجموعة التي جمعتها الأقدار في جوف بيت واحد من أجل هدف واحد هو التضحية القصيرة لنيل عيش رغيد طويل العمر، على خطى من سبقهم من المهاجرين، والرجوع إلى الوطن بحال مادي ميسّر... انفرد أحمد بمراد ليسأله عدة أسئلة أهمّها سبب هجرته ومخاطرته بحياته من أجل الزّيف الدنيوي والعبودية والتعاسة، كاشفا له عن مستويات جماعته بدءًا بشخصه، فهو حائز على شهادة ماجستير في الحقوق، والتي كان بإمكانه أن يشغل بواسطتها منصب أستاذ مساعد في الجامعة الجزائرية براتب لائق وسكن محترم وامتيازات لا تُحصى، غير أنّ تصوّره للجنّة الكائنة وراء البحر قصفت بهذا المستوى العالي إلى حضيض الحياة، لتجعل منه كنّاسا ينظّف ساحة سوق الجملة لمدينة « Pau » من بقايا الخضر والفواكه والأكياس وقاذورات الباعة. مسلسل يومي من حلقة واحدة يبثها حظّه التّعس من الثالثة حتى السادسة صباحا، هو ورفيقاه المغربي والتونسي، ذوي المستوى الجامعي، غير أنهما لم ينهيا دراستهما لظروفهما العائلية المزرية.

أحمد يروي لمراد معاناته بهذه البلاد، لاسيما ما اكتسب من تجربة نتيجة حياة مريرة وطويلة قضاها في شوارعها ومدنها لما يربو عن السّنتين، انطلاقا من مرسيليا التي يسكنها أكثر من ثلاثة ملايين مهاجر جزائري، فباريس العاصمة وليون ثم تولوز إلى نيس،

ليدركه السّأم من هرج هذه المدن الكبرى وزيفها الذي أيقن أنّه ليس له نصيب للعيش في كنفه، فجنح إلى هذه المدينة الصغيرة الهادئة بعدما تعرّف فيها على عليّ وعمر المقيمَين فيها بصورة غير مشروعة، ساعدتهما على البقاء فيها رشوتهما رئيس الشّرطة وبعض معاونيه كلّ شهر من حاصل عملهما الشّاقّ بسوق الجملة، فهم يقايضون من أجل المال أنفسهم وأبناءهم ونساءهم ومبادئهم، وهي أولى القواعد التي استشفها مراد في إسبانيا.

****

استطرد أحمد حديثه عن صديقيه اللذين ساعداه في الانضمام إليهما بالغرفة ومكان العمل، ما أعانه على إعادة ترتيب حياته ومحاولة تدارك خيبته قدر المستطاع بالتقشّف لتكديس بعض النّقود، يكوّن منه رأس مال يبني به مشروعا صغيرا في البلاد، فهو معتزم الرّجوع إلى أهله ولعنة أيّام غربته، لاسيما أن الأخبار المتواترة من البلاد تقول أنّ الدّولة التفتت إلى شبابها وشاباتها من أبناء الوطن، تقدّم لهم المساعدات المالية المغرية التي تصل إلى المليار سنتيم دفعة واحدة، والمادية من عتاد فلاحي وصناعي وآلات ومركبات وشاحنات باهظة الأثمان، بلا مقابل أو محسوبية أو بيروقراطية... تسهيلات مبهرة تطال الشباب الجزائري البطّال دون تمييز أو تفضيل، في سابقة لم يعهدها أيّ شابّ عاطل عن العمل من وطنه في العالم بأسره، دون أدنى جهد جهيد أو شرط مستحيل أو قيد مثبط.

هذا المشروع التنموي اتخذته السلطات في الجزائر حلّا مبدئيا للحدّ من ظاهرة البطالة واستئصال براثنها وتراكماتها على الشباب

المندفع حماسة نحو المجهول في هاوية التغرّب بين أحضان الأجانب الأوروبيين، بركوب البحر مسافرين نحو الضياع عبر تأشيرة الموت... مع دفع عجلة نشاطهم وتنوير مسارهم وإرشادهم إلى الصواب وفتح عيونهم على سعة وكرم الأم الجزائر، المدرارة على الدّوام رغم تهافت الطامعين عليها من الداخل والخارج (لاسيما الأوروبيون والفرنسيون على الخصوص لمعرفتهم الغابرة بخيرات بلاد المليون ونصف المليون شهيد)... بخلق مناصب شغل جديدة تناسب مراميهم مع تشجيع إنشاء مشاريع اقتصادية وتجارية مصغرة، وهو الإجراء الذي لم يحظَ به شباب أية دولة أخرى في العالم بأسره، كما أنها تنوي إلغاء شرط توفر وثيقة الخدمة الوطنية من ملفات التوظيف للشباب البالغين أكثر من 25 سنة... وتقليصها بالنسبة للبالغ سن الواجب الوطني إلى سنة واحدة فقط، مع فتح مناصب العمل على أوسع نطاق وفي جميع القطاعات الحيوية والإدارية والمالية بالبلاد.

– أنت واهٍ وحالم يا صديقي... غادرتُ الجزائر منذ أسبوع فقط، والوضع هناك ليس كما تتخيل ولا كما يروى لك. مازال كلّ شيء على حاله كما تركتَه لمّا هجرتَها. لقد طلبتُ الوظيفة منذ ثلاث سنوات في مئات المؤسسات والشركات، أبغي شغل منصب يلائم شهادتي الجامعية، غير أنّ عذر عدم تأدية واجب الخدمة الوطنية حال دون بلوغ مأربي.

– ألم تحاول الاستفادة من عطاءات الدولة وهباتها عبر الوكالة الوطنية لدعم وتشغيل الشباب (ANSEJ) ؟؟

– لا لم أحاول ولم أرغب أصلا في عطائها، فهي ربوية مائة في المائة، أفتى كثير من العلماء بحرمتها القطعية، وإني في غنًى

عن الحرام يا صاحبي... كان بودّي الحصول على وظيفة براتب محترم يكفيني الله به حلالي عن حرامي، أضمن به لقمة عيش هنيئة، لكن... (متأففا)... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

– أنت مخطئ يا مراد... الجزائر أمّنا وأرضنا، ومن حقنا أن ننهل من خيراتها، ومن حقنا أن ننال قسطنا من ريع مخزونها الصحراوي من الذهب الأسود...

– لكن من يخولك الدنوّ من هذا الريع الذي تتحدث عنه ؟ وأين هو أصلا ؟ لقد ضعنا هناك والسلام يا أخي...

– ربما لم تكن على اطّلاع تام بالتحولات والقرارات الجديدة التي بشّرت بها الدولة الشباب، لذلك أنت قانط على كل شيء هناك.

– ربما، لكن هل تحسب الدولة تمد دون أن تأخذ ؟؟؟ مستحيل طبعا.

– وهل يأتي بخلدك أن تحاسب الدولة ملايين الشباب المستفيدين من هذه العملية وتطالبهم بالتعويض ؟ مستحيل. قل لي : هل سبق لأمك أن طلبت منك أن تعيد لها مالا أخذته منها أو اقترضته ؟؟؟

– لا، لم يحدث.

– هكذا هي الجزائر... دائما تعطي ولا تطلب المقابل، لذلك هي مباركة وواقفة دوما برجالها ونسائها وشبابها... لقد أخطأنا في حقها كثيرا...

ثم راح يتأمل ما وراء النافذة من قطعة السماء التي تراءت لناظره، فيما أقطب مراد عن الكلام يحدّث نفسه بحقيقة ما قاله أحمد، يحثّ روحه على عدم التعاطي مع هذه المعلومات التي كان يجهلها صراحة، لأنه انشغل بالبحث عن الوظيفة فقط دون سواها،

وفي أماكن قلائل راكنا إلى وعود الكاذبين وحلف الخائنين من المحتالين والمنافقين...

****

في إنصات مشدود الانتباه إلى أحمد، بدأت ملامح الحيرة ترتسم على مراد ؛ ها هو في فرنسا يتنقّل من جنة غنّاء رسم حمزة حدودها وفحواها، ليطير في يومه الثاني على جناح اليأس والحزن إلى جحيم الحقيقة التي عاشها أحمد، يتخبط في شبكة من التساؤلات التي لم يجد لها حلا أو سبيلا للتنصل من ضجيجها الذي أحدثته بدماغه...

– كنت أنوي العمل في وظيفة تتوافق مع شهادتي الجامعية، لقد تبخّر حلمي، ماجستير يعمل كنّاسا في سوق خضر وفواكه، وجامعيان يرافقانه، فماذا أقول عن آخرين ؟ لا أظن أن الجزائريين كلهم تعيسو حظّ مثلي، أو مثل أحمد وعمر وعليّ، ماذا أفعل يا ترى ؟ من أين أبدأ ؟ أنا أعمل كنّاسا ؟ مستحيل... كيف لي أن أرضى بهذا ؟؟ في حياتي لم أمسك مكنسة... أين أنتِ يا أمي لتري ابنك الذي هرب وتركك ؟؟؟ أجدني أستحقّ ما حصل معي، فلو أطعت أمي وصبرت ومشيت برأي سعيد صديقي لما وصلت إلى هذه الحال... (حدّثه ضميره).

– لا تيأس يا مراد، هذه البداية فقط، وستُفتح أمامك الأبواب قريبا، لا تكترث لأحمد وصاحبيه، ربما لم يكونا في الطريق الصحيح، أو لمجرد أنهما يرغبان في استغلالك ينصحانك بالبقاء معهما والعمل ككنّاس بالسوق، استعد عافيتك وغادرهم لتشقّ طريقك إلى المستقبل الحافل، لا تأبه لهم ولا تأخذ كلامهم مأخذ الجدّ، فأنت واعٍ ومتعلم ولك حظ وافر ينتظرك...

غاب مراد – بما راودته به نفسه ووسوس إليه شيطانه الرجيم المخاصم ضميرَه وعقلَه – لبرهة من الزّمن مسافرا إلى حيث يرمي، ثم استعاد رشد ذهنه منتبها لنداء عليّ إلى العشاء الذي حضّره من معكرونة مع التونة الفرنسية، فبرغم عزوف نفسه عنها لمقته هذه الأكلة التي لم يحصل أن تناولها في بيت أمه، وإن حدث أن طبختها فإنه كان يقيم الدنيا ولا يقعدها بالعويل كالأطفال الصغار إلى أن تحضّر له طبقا آخر يشتهيه، مهما تكن حالتها المادية... إلا أنه ومن شدة الجوع في غياب أيّ بديل له، التهم طبقه وطلب المزيد حتى امتلأ بطنه، ثم ساوره، بعد سهرة مطولة مع أصدقائه الجدد، نعاس بعث به في سبات عميق لم يحسّ أثناءه بمغادرتهم المنزل لقضاء ساعات عملهم، ثم العودة في سكون الفجر للهجوع إلى مضاجعهم.

****

تعافى مراد من آلام جسمه في يومه الرابع، فاستأذن أصحابه الخروج للتّنزّه في أرجاء المدينة، فأذن له أحمد وعليّ بصحبتهما في نزهة مساء ذلك اليوم، وفي طريق الخروج اقترض مراد من أحمد بعض النقود بغية الاتصال بوالدته التي تحترق شوقا إلى سماع أخبار عنه.

– ألو... أمي... أنا مراد...

– مراد... ابني... هل أنت بخير ؟ أين أنت يا ولدي ؟ لم أنم منذ عشرة أيام.

– لا تقلقي يا أمي أنا بخير والحمد لله...

– الحمد لله والشكر لله. أين أنت يا مراد ؟ لماذا غبت عني كل هذه المدة ولم تخبرني أو تتصل بي ؟

– كنت مشغولا يا أمي وأنا الآن بعيد جدا عن البيت... المهم يا والدتي العزيزة اطمئنّي فإني بخير وعافية.

– أنا مشتاقة لك يا ولدي، فليس لي في هذه الدنيا نور لعيني غير وجهك الوضاء الذي اشتقت إليه...

– أنا كذلك يا عزيزتي اشتقت إليك... لكن يجب عليّ أن أصبر قليلا وأن تصبري معي يا أمي... هذه هي حال الخبزة...

– الخبزة ؟؟؟ ماذا تقول يا بني ؟ أتقول الخبزة وأنا لم أترك لك أي شيء تحتاجه ولم ألبّه لك ؟!

– أردت الاعتماد على نفسي يا أمي... أرغب في البذل لرد نصيب من جميلك يا حبيبتي الغالية...

– ما يهمني هو أنت فقط يا عزيزي... فأرض أبيك تنتظرك... بعها إن شئت وافعل ما تريد بمالها يا بني...

– لا يا أمي، الأرض إرثنا جميعا ولن تباع، بل سأشيّد على ظهرها مشروعا كبيرا وسأبعثك إلى الحج...

– يا ولدي... عليك بنفسك من كلامك هذا، ساورني شك في أنك تنوي إتيان ممنوع أو محرم...

– لا يا أمي... لا تقولي ذلك... حاشا لله أن أقوم بفعل محرم... أنتِ تعرفين ولدك يا عزيزتي... أنا تربية يديك...

– قل لي يا مراد... أين أنت الآن ؟؟ أريد أن أحضنك... (ودمعت عيناها...).

– أنا أيضا يا أمي... (واغرورقت عيناه بدمع دافئ...) لكني بعيد جدا يا غالية... تنفعني دعواتك فقط... أما مجيئي الآن فلا أظنني أفعل ولا أظنك تستطيعين أن تبلغيني...

– لماذا ؟؟؟ أين أنت ؟ قل لي... أستحلفك بالله أن تقول...؟؟؟

– أنا الآن أحدثك من فرنسا...

– ماذا ؟... فرنسا ؟ من أين لك بالمال ؟ وكيف ذهبت ؟ ومتى ؟ ومع من ذهبت ؟

– لا يهم، المهم الآن هو أنك تعرفين أين أنا، واسمحي لي يا أمي فأنا مضطر لإنهاء المكالمة لأنني لا أملك كثيرا من المال، سأكلمك مرة أخرى، المهم أوصيك بأمرين هامّين، أولهما أن تكثري لي من دعواتك المستجابة يا والدتي، والثانية أن تحفظي سري ولا تقولي لأحد أين أنا الآن، اتفقنا ؟...

وانقطع الخط...

– اتفقنا يا ولدي... لكن لا تطل عليّ غيبتك وحدّثني كلّ يوم، أحبك يا مراد، اعتنِ بنفسك... (مواصلة كلامها).

– أحبّك يا أمي، ربي يخليك ليّا... إلى اللقاء...

واصل كلامه محدثا سماعة الهاتف غير آبه للخط الذي انقطع... ومع الطنين الوارد منها، قبضها وضرب رأسها على آلة الاتصال ضربتين خفيفتين، ثم وجهها قبالة وجهه وانهال عليها بوابل من القبلات وهو يقول : أحبك يا أمي، أموت لأجلك يا عمري، ربي يحفظك...

المكالمة الهاتفية أطفأت أجيج نيران الشوق والحيرة لوالدة مراد، كبصمة أمل طبعها على قلبها الحنون فاتحا به نافذة لاسترضائها والتهوين على فؤادها، علّ دعواتها تشفع له ليستنير طريق الفلاح

في جنته من تحت أنقاض الحقيقة التي لم يستسغ مذاقها لحد الساعة، راغبا في تغيير منحى طالعه المشؤوم...

****

هبّت الأم إلى المطبخ، مهرولة من فرط فرحتها بما زفّه هاتف البيت هذا اليوم من صوت عزيزها الذي أطرب سمعها وأراح نفسها القلقة وهدّأ من روع لوعتها عليه، لإعداد قدر من الكسكس الخشن (العيش البلدي) بفخذ دجاجة، لتقدّمه صدقة جارية إلى الأطفال الراكضين في ساحة الحي لعبا، فقد جرت عادتها كغيرها من السكان والنّاذرين، إخراج الأطباق من حلويات وخبيز وتمر وطعام وغيرها، تقدّم صدقات للأطفال، فهم يسمّونهم ملائكة الأرض لبراءتهم، جليا لكل همّ أو خطب يخشون حلوله، أو مصيبة مرّت عاصفتها بردا وسلاما على من ألمّت بهم. فبالصدقات تدرأ البليّات وتستجاب الدعوات وتطرح البركات، وتتحقق الأمنيات ويبسط الله رزقه من غير حساب.

****

جولة سياحية لاستكشاف المدينة

« تعرف الدور بساكنيها »

ارتدى مراد بعض الملابس الخاصة بأحمد وخرجا معا، يرافقهما عمر، وتوجّه ثلاثتهم عبر الشارع الرئيسي إلى مقهاهم المعتاد الذي يشتغل به شاب جزائري يدعى سفيان. لقد تعوّدت المجموعة على الالتقاء من حين لآخر في هذا المقهى، لاسيما أيام عطلة نهاية الأسبوع، فهي قبلتهم الوحيدة للّقاء وتبادل الأخبار وتدارك أحلى ذكريات البلاد وعادات أهليها، في ارتشاف القهوة مجتمعين على طاولة واحدة، والانطلاق في الحديث العربي الشيّق، وتشارك النّكت والضّحكات التي تنسيهم لفترة وجيزة قهر الغربة وتخفّف عنهم وحشة الشّوق للدّيار.

أحسّ مراد بدخوله عالما جديدا، وهو بصدد اكتشافه على ألسن من اجتمع معهم حول طاولة جانبية تقبع في زاوية المقهى، مداراة عن أنظار الوالجين إليها، لاسيما أعين الشرطة الفرنسية، فالمقهى مزود بباب خلفي ونافذة عريضة تكشف الشارع المقابل جيدا. حول الطاولة سبعة شباب عرب في ريعان قوتهم، منهم جزائريون ومغاربة وتونسيون، يتشاركون في المصير، جمعهم هدف واحد، وهو الاغتراف من أنهار عسل الجنة الأوروبية، ومازالوا يحلمون ويمنّون

أنفسهم، كلّ حسبما رسم هذه الجنة وكما تمنّاها، راضين - في واقعهم المرير - ببخس العيش في تخفّ ووجل من اكتشاف أمر إقامتهم من قبل رجال البوليس الفرنسي، لقد اعتادوا مطارداتهم اليومية كأنهم قطط تجري خلف فئران البيوت وجرذان المجاري...

وجد مراد حول مجلسه السّبّاك والكنّاس والفرّان والفلّاح والقهوجي... إلخ، أرذل المهن بأبخس العائدات لا تضمن سوى لقمة العيش الزهيدة ومقابل الإيواء الذي لا يتعدى أن يتعلق ببيت مهجور معدوم الأثاث منخور الأسوار، أو مرأب أو كوخ جنب حقل فلاحي أو جناح بإسطبل خيول أو بغال أو بقر وغنم، أو خنازير... اعتادوا هذه العيشة التي استعبدهم فيها أبناء فرنسا واستبعدوهم عن المدينة بحجج واهية أهمها التواطؤ معهم والتستر على عدم شرعية إقامتهم، فيما احتوت المدن الكبرى من المغتربين شبابا ضاقت بهم السّبل فجنحوا إلى الاستيلاء على أموال غيرهم والاعتداء على المسنّين والعجزة واقتحام البيوت الواسع رزق أصحابها... أما آخرون فيقتاتون على بقايا الطعام المرمي بالمزابل وأكياس القمامة، وغالبية بطاليهم يحترفون بيع الحبوب المهلوسة وأنواع البودرات المسمومة بعد مخالطة العصابات وجماعات الرذيلة وأوكارها، إلى أن بلغ بعضهم مناصب مرموقة فيها، تصل لحد اعتلاء تاج البارونات وكبار المروجين لهذه السموم الشائع صيتهم والمبحوث عنهم في مختلف الدول.

ها هو ذا عليّ يروي قصته لأيامه الأولى بديار الغربة التي قضاها في شوارع باريس الموحشة، فأضنت حالته واقتضته الاقتيات على العلب المصبّرة مهما كان مصدرها والمبتغى منها، سواء الموجهة للقطط والكلاب أو البشر ؛ فجوعه لم يفرّق بين لذات الأطعمة

ونكهاتها ومذاقها... كما تناول في عديد المرات خبزا لا تقضمه إلا ضربات متكررة بحجر قلسٍ...

احتار مراد، يرى بعين الخذلان ما يدور بين أفواه المتحدثين حوله، فسأل في ذهول :

– ومن يعيش هنيئا في هذه البلاد ؟ أين هي الجنة التي حكى لنا عنها من جاء قبلنا ؟ هل أغلقت أبوابها ؟ أم أننا لسنا في المسار الصواب حتى ننال حظنا منها ؟

انفجر البقية ضحكا سافرا حتى اضطر بعضهم إلى ارتشاف كوب ماء كي تهدأ نفسه، ثم عمّ صمت رهيب على الطاولة، فلا تسمع حسّا ولا همسا، غير تنهيدات خفيفة بعد أن أزعجت المجموعة بعض الجالسين إلى طاولات مجاورة بالمقهى. ثم أجاب أحمد على اعتباره أعلاهم مستوى وأكبرهم سنا وأقدمهم غربة (مازال أحمد يحظى باحترام العرب والجزائريين لمستواه الجامعي رغم أن معارفه ومجالسيه لا يتعدّون على العموم مستوى التعليم الأساسي أو الثانوي ؛ ما يجعله تعيسا متحسرا دوما لما آل إليه حاله من هوان، متمنيا في قرارة نفسه الرجوع يوما إلى وطنه والاستسلام لوظيفة حكومية أو إقامة مشروعه المنتظر) :

– يا صديقي، فرنسا جنة يسلكها نهر كبير من عسل الحياة، لكنه بعيد المنال عن مطامعنا وأيدينا، إلّا أنه حلال سهل المنال على أولاد الحركى والقوميّة الذين عشّشوا في فرنسا بعد الاستقلال لما ساقت خيبتَها إلى ديارها، فتقلدوا المناصب واحتلوا الأرصفة والشوارع وجنوا ثمر خيانة وطنهم ووالديهم وأهليهم، لتنال ذريتهم من بعدهم رضا أمهم الثانية فرنسا، غير متنكرين لحليب ثدييها الممتدَّين إلى أقاصي صحراء الجزائر وبعض بلدان العالم الثالث بإفريقيا، فأضحوا أصحاب مشاريع كبرى ورجال أعمال هامين،

يستعبدون بني جنسهم، يسخرون من أبناء الرجال الذين شرّدتهم الحياة فجنحوا للسفر، مجبرين على اختيار سبيل التغرب عن بلادهم وذويهم لتحسين مستوى عيشتهم الضنكى التي تقلبوا في كنفها سنين طفولتهم وشبابهم، فرغبوا في التضحية بحياتهم وسنين عمرهم كي ينالوا قسطا من راحة الحياة وسعادتها في رفاهية ومال وفير... إن تبقت لهم حياة...

– لكن بصراحة، هيهات أن ننال السعادة بالمال يا صديقي... (ردّ مراد).

– إذن ما الذي فرض عليك الحضور إلى هنا يا سي مراد ؟ (سأله عمر بلكنته التونسية مستهزئا).

– أحضرني القهر الذي أحضرك من بلدك، جازفت بحياتي على قناعة مني أن الحل غير موجود في البلاد، فقد تقاسمها أصحاب البطون المنتفخة والعقول الفارغة، فعزفوا عن استقطاب المتعلمين ورغبوا في النساء الجميلات والشباب الجاهل من أبناء أصحابهم وأتباعهم، فباعوا اقتصادنا وشرّدوا مستقبلنا وأعدموا أحلامنا، فما رضيت بهذا الأمر... وهذا هو مصيري اليوم وإياك سيّان.

– لكن يا صديقي، مهما فعلت بك أمك فلن تضيّعك، أما زوجة أبيك، فإنها إن ابتسمت فانتظر صفعة من يد والدك.

– صدّقوني، لقد غُررت بفرنسا وما بفرنسا، هذا أسبوعي الأول بها ولم ألتقِ أو أصادف شيئا أسعدني، وما زادني غما، معاناتكم ومقاساتكم التي تروونها على مسامعي الساعة.

– حظّك أوفر من حظّنا، فقل الحمد لله أنك التقيتنا في أسبوعك الأول. من شأنك الاستفادة من تجربتنا يا صديقي قبل مواصلة طريقك...

****

هزّ مراد رأسه مستسيغا كلام عمر الذي عانقه عناق أخوين في ابتسامة رضا، مرتشفين قهوتهما، متبادلين رفقة بقية الجماعة القبلات التي طبعوها على رؤوس سجائرهم المحدِثة فوق هاماتهم سحبا من الدخان المنبعث من أفواههم... وفجأة كثرت الالتفاتات بعد إشارة صفير من سفيان القهوجي، فشدّ أحمد مراد من ذراعه وأزاح الكرسي عن ظهره، منطلقا إلى الأمام صوب الباب الخلفي، فيما تفرّق البقية كسرب حمام رفرف عاليا في جوّ السّماء فرارا من كلاب صيّاد. إنها دورية الشرطة...

كل شابّ فرّ إلى وجهة ساقته إليها رجلاه، لا يهمّ المكان الذي يلج إليه، المهم أن يتوارى عن أنظار البوليس، فإلقاء القبض على أحدهم، معناه التحقيق المعمق والسّوق إلى السجن لحين ترحيله إلى بلده، غير مبالين بأية ظروف أو دوافع قد يقدّمها المتهم، فالقانون مطبق بحذافيره ضدّ المغتربين خصوصا العرب المقيمين منهم بشمال إفريقيا المصنفين في خانة الخطر الأحمر الماس بأمن الدولة.

ركض أحمد ومراد يتبعه، بعيدا وبسرعة فائقة رغم بقايا الآلام التي مازال يعانيها جراء اعتداء الأسبوع الفارط، وفي زاوية شارع خفيف المارّة توقف أحمد يلهث وخلفه مرافقه الذي أنهكته هذه الهبّة التي لم يعمل لها حسابا. بعد قسط من الراحة انثنت فيه الظهور وركعت الرؤوس أرضا لتسترجع الصدور أنفاسها وترتب القلوب دقاتها وتستعيد نبضها العادي، تمشى الصديقان في طريقهما إلى أن بلغا سوق الجملة للخضر والفواكه، وهناك أطلع أحمد صاحبه على أحوال العمل ومهمته المتعلقة بكنس حواف الطريق المجانبة للسوق مع رفع القاذورات والفضلات التي يخلفها الباعة، فراح

مراد يتأمل هذا العمل وهو ينظر إلى وجوه الناس من متبضعين وباعة، لقد أسره عمل أحمد المهين في قرارة نفسه، إلا أنه بلع ريقه مرتين أو ثلاثة مترددا، ثم عقد العزم وانطلق لسانه طالبا منه التوسط له، كما وعده، لاستلام مهامه في هذه الوظيفة، فما كان من أحمد إلّا أن فاجأه بأن زيارته هذه كانت مفتعلة بغية الاطلاع على حقيقة رغبته في مباشرة هذه المهنة، حيث ضرب له موعدا للصباح الباكر حتى يبدأ أول يومه بالعمل.

****

على الثانية والنصف صباحا من اليوم الموالي، نهضت الجماعة ومعها استفاق مراد بعد عدة نداءات من أحمد وعليّ، وتبعهم إلى خارج البيت يجرّ جسمه الطويل وحبال النعاس الشديد تقيّده من كل جانب رغم غرفات الماء التي هاجم بها وجهه وقفاه.

تسلّم مراد مكنسة جديدة وحذاءً بلاستيكيّا وملابس مكتوب عليها في الظهر « نظافة » مع كمّامة تقي الأنف نتانة المكان، فباشر عمله مع أصحابه في ذلك الصباح الذي انتشرت فيه حبات الجرذان وبعض الكلاب الجائعة والقطط الهائمة التي تسللت إلى المكان كعادتها تبغي التبضع. كنست السوق وأرضيتها وأفرغت حاويات زبالتها في شاحنة كبيرة. العمل مرهق جدّا ومبكّر جدا ؛ ضاق مراد ذرعا بهذا الشغل وأحسّ أنه أحقر شخص فوق الأرض، فراح يهيم بفكره قائلا في نفسه :

– هذا أنت يا مراد تكنس أرض الأعداء وتسبّ أرض الأجداد التي رعتك وحمتك وآوتك. يا للمهانة ! كنتُ معزّزا مكرّما ببلدي، أعيش هنيئا وشرفي بين ذراعي، مصان الوجه، لم يكلفني حالي الذي كان أيسر بكثير من هذا، حتى الرضا بالاشتغال في أحد مكاتب البلدية، رغم محاولات مسؤوليها الحثيثة معي، وها أنذا

أكنس الأرض رغما عن أنفي، أحمل الزبالة وقذارة الإفرنجة بيدي، ورأسي مداس في الحضيض، أأستحق كل هذا الذل وهذه المهانة ؟؟؟ يا لحظّي مع جنّتي هذه ! هههههه... نسي حمزة أن يقول لي أن جنّة الاغتراب إلى جانب أنهار عسلها المصفى زبالة وقذارة، من حسن حظي أني أحملها بأبخس وأزهد الأسعار... المهم ساعة وفايتة...

لم يتحدث إلى أصحابه ذلك الصباح عدا الرّدّ على بعض أسئلتهم بالإيجاب فيما يتعلق بظروف العمل ورضاه عنه، مبديا بعض النشاط في تأديته، كاتما غمه عن غيره، كما هم يفعلون، فلا تلمح في وجه أحدهم علامات الرضا بهذه المهنة التي استباحوها لأنفسهم، بقولهم أن العمل مهما كان فهو شريف مادام يدرّ المال الحلال.

بقي على هذه الحال عشرة أيام أخرى، فبعد انتهاء ساعة عمله صباحا، ينام قليلا، ثم يتسكع مع أحد معارفه الجدد بالمدينة بعد الظهيرة. بدأت عيناه تنفتحان على المعالم الأساسية لهذا العالم الذي لم يعد غريبا عليه كما كان ؛ لقد تعرّف على المحلات الكبيرة والسوبيرات، وتفقه في كيفية تدبّر مأكله ومشربه وطرق التصرف والتعامل مع سكان المدينة، إلى غاية أن قابل في يومه الأخير شابا يسمى عبد الله يسكن مدينة تولوز، جاء لزيارة صديقه سفيان القهوجي الذي عرّفه عليه، فحكا له عن هذه البلدة الفرنسية العريقة، ومجالات العمل بها، لاسيما في التجارة، لكثرة العرب المالكين للمحلات التجارية هناك. فكّر مراد مليّا، ثم قرر أن يغادر إلى تولوز ليبحث عن عمل لدى أحد التجار العرب، علّه يحظى براتب أرفع من راتب الكنس الذي لم يتعدَّ 1500 أورو شهريا. بعد اتفاقه مع عبد الله، باشر أحمد بالأمر في ذلك المساء، فما كان

منه إلا أن استجاب لرغبته، فاتصل بمسيّر العمّال الكنّاسين، الذي دفع له أجرته، ليودّع أصحابه تلك الليلة التي سهروا فيها وأطالوا الحديث الذي سيأتي بعده فراق ربّما لن يتكرر بعده لقاء، فهذا هو حال الغربة وحال ساكنيها.

****

ارتقيا ميترو السابعة صباحا المتوجه إلى تولوز وأخذا لهما مكانين متقاربين. غاص عبد الله في النوم مميلا رأسه على مسند الكرسي، فيما اتكأ مراد برأسه على النافذة المطلّة إلى الخارج ليرى الطريق والمروج والأنفاق التي تمر بها هذه الآلة العجيبة التي ركبها أول مرة في حياته... أبهرته التكنولوجيا التي وصلت إليها وسائل النقل بأوروبا، كما سحرته المناظر الخضراء التي كانت تسابق الميترو وتتوارى خلفه، لتخلفها الباقيات من الأشجار والحقول المترامية الثنايا على مرأى العين...

ساعات سير لم يحسّها مراد متجوّلا ذهابا وإيابا في الرّواق يستكشفه، فكلّ شيء متوفر داخل الميترو من مأكل ومشرب، ولم تظهر عليه علامات السّأم حتى وصلا المحطة الأخيرة بمدينة تولوز، وفيها انغمس مع رفيقه في زحمة المسافرين، يسبق عبد الله ومراد يتمشى خلفه في ذهول وانبهار بما تراه عيناه لأول مرة من أمواج البشر المتناثرين في كل زاوية ومكان، يسيرون في انتظام محكم كأنهم رجال آليون، ومن جَمالٍ لبس كلّ شيء وقع عليه ناظره، حائرا في تنسيقه البالغ ودقته الفائقة، من شاشات توقيت الميتروات إلى المحلات البازغة أضواؤها والباهرة سلعها المتنوعة... كأنه عالم مثالي قائم بذاته، مكوناته غير التي اعتادها وعرفها طيلة حياته...

صعد مراد – وهو يسير خلف عبد الله – سلّما درجاته ترتقي بمتطيها لتطفو به إلى السطح، حتى وجد نفسه يطل على شارع من شوارع تولوز، مكتظ بالسيارات كثير الزّحام والهرج، فاكتشف اللحظة أنه كان منذ قليل يمشي في جوف الأرض، ليستنتج مرة أخرى مدى براعة الإفرنجة في استغلال المساحات المتاحة من أراضيهم، حتى باطنها لم يسلم من تكنلوجياتهم وتطورهم، استعمروه مذلّلين الحديد بالإسمنت سلاحا، وخلقوا روحا تجارية وصناعية ومرافق حيوية تشغل حيزا مميزا، استقطب فضول المجتمع وأغنى الناس أن يدبّوا فوق سطحها، بعدما أثملوا نفوسهم من المناظر الخلابة للمعمار الساحر.

انتبه في سريرته بعد وضع إسقاط مقارن، أين اهتدى إلى زاوية أخرى من زوايا مؤامرة الإبادة التي تتربص بالأراضي الزراعية واستغلالها في تشييد العقار ببلاده، ليعود إلى نقمته على مسؤوليها ومسيّريها الذين يتعمّدون – حسبه – محاربة التطور الحضاري للمجتمع، واستماتتهم في استغلال كل شبر من الأرض الصالحة للزراعة لإقامة عمارة أو ساحة عمومية، شاردين عن المناطق الصخرية الجاهزة للتشييد والبناء، لتدان بأكوام القمامات والحشائش الضارة وغير النافعة بتهمة عدم صلاحيتها للحياة. ساءه ما يرى من بُعد زمني وحضاري بين الدولتين، وكم يلزم من وقت حتى تتنصل بلاده من وصمة دول العالم الثالث وتلتحق بالركب الأول... ثم طرد عن نفسه وساوس النّقم مستعيدا نزعته الوطنية، فراح يعزّي نفسه بالقول : « مادام هناك رجال أوفياء واقفون بالجزائر، فإني متيقن أننا سنصل الركب ونتفوق عليهم يوما كما كنا في سابق عهدنا سادة البحر وزعماءه بلا منازع، لما كانت الجزائر دولة

عظمى في الشمال الإفريقي، أين سيطر أبناؤها على البحر الأبيض المتوسط وهيمنوا عليه من الشرق إلى الغرب، فعقارب الساعة مهما فرّت وولّت فإنها عائدة إلى نقطة انطلاقها لا محالة ».

– امشِ يا رجل... (صاح عبد الله).

– لقد أبهرَتني التكنولوجيا والتطور الذي وصلت إليه فرنسا ! (ردّ مراد).

– لا تنبهر كثيرا فأنت لم ترَ شيئا بعد...

– لماذا لا نكون مثلهم أو أفضل منهم ؟؟؟

– مستحيل ذلك يا صديقي، لأنهم يحبون بلادهم ومن أجلها يفعلون المستحيل، أما نحن فنحب أنفسنا ولا شغل لنا سوى مَلء بطوننا وجيوبنا... لا نعير لأرضنا اعتبارا، زد على ذلك غزو الغرب لنا ولأفكارنا وثقافتنا وآمالنا، فأصبحنا نهوى بلادهم ونعيش كإمّعة نرى برأيهم ونفتي بفقههم، بَيْدَ أنهم في وقت غير بعيد كانوا لنا أتباعا وكنّا لهم أسيادا... تحمّلوا بأسنا واستماتوا في النهل من علومنا مغترفين من ثقافاتنا وحوّروها لصالحهم ثم نسبوها لأنفسهم معتلين سدة العالم وحكمه، واستعبدونا فصرنا تابعين لهم. هكذا يا صديقي هو الحال، لقد انقلب السحر على الساحر واختلطت الموازين وترجحت الكفّة لصالحهم، والدليل وجودنا على أرضهم وصبونا إلى الارتماء في أحضانها بلا شرط أو قيد.

– لكننا نملك الحل... مازال هناك رجال أوفياء... (قال مراد).

– وما هو الحل في نظرك ؟

– البدء من حيث انتهينا.

– في ظل ما هو جارٍ ؟؟ لا أظن ذلك، فالمرض قد استفحل منذ

زمن طويل قد يكون فنيَ ومات ناشره، لكنه لم يترك مكانه فارغا، فقد زرع ذيلا من أذياله، سواء ابن له أو من عشيرته أو... أو... أحد معارفه، لقّنه ما يشاء من حيل الجور والنهب والتودّد إلى الطامعين حتى تعلّمه بإتقان، فتفنّن السرقة وامتصاص ضرع البقرة الحلوب... وهكذا دواليك...

– صدقت.... لكن إلى متى نبقى هكذا يا عبد الله ؟

– الله أعلم، لا يهمك الأمر الآن، لا تفكر فيما تركته وراءك. فكر في نفسك فقط وكيف تظفر بلقمة وتنتزعها من براثن الفرنسيين، فإنهم لا يتركون لأمثالنا سبيلا للتنفس إلا ما يسنّه السيّد لعبده.

– والله لن أعيش عبدا ولن أكون يوما عبدا لفرنسي حتى وأنا فوق أرضه وفي داره.

– أعرفك يا صديقي، جزائري حرّ، فدمك ساخن وثائر مثلي، لكن... أنصحك أن تترك ما يتصل بالجزائر في الجزائر، وإذا كنت تريد العيش في فرنسا فعليك أن تذوب فيها. هذا هو العرف شئت أم أبيت...

سكت مراد مليّا، ثم قال :

– إذا طالت العشرة بيننا يا صديقي، فسوف تعرف من يكون مراد...

نطقها من منطلق حميّة للوطن، مستذكرا بعض الأفلام الوطنية التي جسّدت وحشية الاستعمار الفرنسي وما عاثه من فساد وما اقترفه من جرم طال الشعب الجزائري الأعزل.

لَم يُثنِ الحديثُ الساخن مرادا عن التجوال بعينيه في عالي البنيان وفسيح الحدائق وشاهق العمارات والمعالم العريقة والتماثيل

المحفورة بالأحجار القابعة في مفترقات الطرق الكبيرة وأمام المباني والأطلال التاريخية، التي تروي سماتها المنحوتة بشكل ساحر عصورا غابرة وطأت فيها أرجل قادة عظام وزعماء كبار مدينة تولوز الفرنسية أو عَبرتها.

بلغ الصديقان إلى حي يشير بنيانه - ذو الأسوار المخربشة بعديد الكتابات والشعارات الفرنسية والعربية - إلى انتشار فضيع للفقر البادي على رثّ الملابس المعلقة بحبال وخيوط سلكيّة على الشرفات، وما ارتداه أطفال ساكنيه البسطاء. دلف الاثنان إلى عمارة من عماراته، وتسلقا السلالم إلى الطابق الأخير، فقابلهما عند باب بيت ذي غرفتين، شابّ أسمر البشرة رفيع الجسم، ببسمة عريضة، وعانق عبد الله الذي أهلّ عليه : « السلام يا صالح »، مصافحا مرادا مع الإيذان لهما ليتقدما إلى صالته.

****

مالت شمس المساء في تولوز... على شهقات إبريق قهوة ساخنة، وبعد صمت غير طويل انهمك فيه الثلاثة يرتشفون فناجين القهوة، انطلق عبد الله في الحديث قائلا :

- لماذا أنت صامت يا صالح ؟... هات ما عندك...

بقي صالح صامتا لبرهة، ثم أشار في صمت مومئا برأسه، غامزا بطرف عينه لعبد الله، مشيرا في سؤال صامت عن مدى ثقته بمراد، فأجاب عبد الله بصوته المعتاد :

- لا عليك، هذا مراد صديقنا ووليد بلادنا، تحدّث ولا تخشَ شيئا.

- لقد ضبطت فرقة التحقيق الجنائي المعلّم وصديقيه عبد القادر وفاتح.

– كيف ذلك ؟ ومتى هذا ؟؟؟ (تساءل عبد الله في دهشة كبيرة).

– البارحة فجرا عند مدخل السوبرماركت، لما تبادلا السلعة مع النيجيري.

– أكيد أنها مكيدة... أو ربما كانوا مراقبين سلفا...

– بالطبع... ألا تعلم أن اليهودي ذا الأصول الفرنسية "جو" باعهم سلعة مغشوشة الشهر الفارط وهددوا بقتله ؟ وأظنه من كاد لهم...

– والآن ما العمل ؟ (سأل عبد الله).

– قرّرت أن أغادر إلى باريس هذه الليلة، فلا ريب أنهم سيداهموننا في أية لحظة... ولا أظن "فاتح" يصبر على العذاب عند استنطاقه...

– أجل... أجل... وما العمل إذن ؟؟؟

– سأغادر الليلة، أما أنت، فلا أنصحك بالمبيت هنا...

رنّ هاتف صالح رنتين ثم توقف، وصلته رسالة مكتوبة، فتحها وقرأها ليشحب وجهه، فحمل حقيبة ظهرية كان قد وضعها إلى جنبه، ونهض متأهبا لرحيل مباغت، وهو يقول :

– هيا بنا يا جماعة...

– إلى أين ؟؟؟ (سأل عبد الله).

– لا أدري، المهم علينا المغادرة اللحظة، فقوات شرطة التدخل قد اقتحمت الحي، هذه رسالة تنبيه وصلتني من أحد العيون...

لم يجد عبد الله ما يقوله لصاحبه، إلا أنه تبعه نازلا سلالم العمارة في سرعة، وقفزَ الدرجات بالثلاثة إلى الأربعة كأن شبحا

يطارده... تبعهما مراد مبهم الفكر شارد الذهن لم يفهم شيئا مما قيل، إلا أنه تيقن أن صحبته لعبد الله جعلته طرَفا غير مباشر في قضية تورطت فيها الجماعة وكُشف أمرُها، كما أنه لا يظنّه أمرا هيّنا... غير أنه لم يسأل وخبّأ مخاوفه وشكوكه لتحيين فرصة مواتية لذلك.

استقلّ صالح أول تاكسي قابله، فيما فضّل عبد الله اصطحاب مراد إلى جهة مقابلة للشارع المحاذي للحي، واختصر الطريق للخروج منه بسرعة، ثم استقل سيارة أجرة هو الآخر ومعه مراد... وفي الطريق دار بينهما هذا الحوار :

– انظر يا مراد، أنتَ أمانة بالنسبة لي، وسفيان القهوجي عزيز عليّ كما تعلم، لكن أرجو أن تعذرني وتفهمني، عليّ أن أتركك الآن، لا يمكنني اصطحابك معي...

– لماذا ؟؟؟ ماذا هناك ؟؟؟ وماذا جرى ؟؟؟ أريد أن أعرف !

– كنت أريد أن أشركك معي في مجموعة من الإخوة العرب تعمل في سرية وثقة، نقوم بأشغال ومهام ونشاطات خفيفة تكسبنا الكثير من المال في وقت قصير، لكن أظنّ أن حظك عاثِر كثيرا وفرصتك للنجاح مازالت بعيدة المنال...

– كيف ذلك ؟؟؟

– نحن نبيع "الغبرة"، ومادام رئيسنا قد وقع، فيجب علينا أن نبتعد قليلا عن السوق حتى لا يشوا بنا وتكشفنا الشرطة...

– الغبرة... بمعنى البودرة أو الكوكايين ؟!

قهقه عبد الله حتى تنبه له سائق التاكسي، فاعتذر له وعاود الكلام إلى صاحبه :

– ينقصك الكثير لتتعلم أحوال الدنيا وتفهم لعبتها وتتعمق في كواليسها... خذ 2000 أورو، تدبّر حالك بها، وسنلتقي إن شاء الله، أودّعك الآن... (وأمر التاكسي بالتوقف).

– انتظر... انتظر يا عبد الله... (قال مراد).

– اعتنِ بنفسك يا صديقي...

ووارب باب السيارة لينطلق التاكسي سائلا مرادا عن وجهته، فلم يجب لأنه لا يعرف أصلا أين هو ذاهب، ثم قال : « خذني إلى الحديقة العامة » ؛ لعلمه أن بها أناسا كثيرين وهرجا ومرجا، فهناك بإمكانه الاختلاط بالناس علّه يلتقي عربا مغتربين.

****

إلى حافة حديقة كبيرة مليئة بالأشجار من مختلف الأنواع، مسيّجة بشباك حديدي مزدان ومنمق كأنه منحوت على جدار ورقة مزخرفة، ركنت السيارة وانزلق منها مراد، ليقف مواجها الحديقة متسمرا مكانه لفترة، يهيم بنظره في كل الأجواء. لقد اختلطت كل أوراقه، لا يهتدي إلى مكان يأوي إليه في هذا الليل الذي داهمه بظلمته فجأة... الأنوار كثيفة والمارة في جري غير معتاد كآليين ينقادون عن بعد، كل إلى غاية ينشدها إلا مراد...

جرّ رجليه داخل الحديقة العمومية، وأسند ظهره إلى كرسي خشبي، متأملا الناس حوله، حائرا في أمره نادبا هذا الحظ التعس. شبّك يديه يفكر في لا شيء، يعاود الحزنُ وأسى الوحدة مطاردته. لقد تذكر فجأة حادثة الاعتداء الوحشي الذي تعرض له، وذلك الضرب الذي لا تزال آثاره توخز جسمه ؛ فانتابه ذعر شديد من جديد، خشية أن تنال منه عصابة أخرى وتسلب منه أجرته و الـ 2000 أورو التي جاد عليه بها عبد الله الذي تركه في حيرة...

غيّر مراد مكان جلوسه، منسلخا من الحديقة إلى مقربة من مطعم ليلي يبيع السندويتشات، فاشترى واحدا مرفقا بزجاجة عصير

برتقال، تناوله بسرعة كأن الطعام يسابقه اللقمة تلو الأخرى إلى قعر بطنه الذي لم يحسّ أنه أقنعه بهذا الخبز المحشو باللحم المقدد، غير مبال لأول مرة بمصدره وطريقة تحضيره، غير آبه لحلاله من حرامه كما فعل أول الأمر... لقد بدأ يعتاد على حياة المتشردين. هو الآن يفكّر مليّا في إيجاد حل مناسب ليلوذ إلى وكر يقضي فيه ليلته.

****

شرّيرة في ثوب حسناء

« الطّمع يفسد الطّبع »

بينما هو تائه في جلسته لاهٍ بمضغ سندويتشه، باغته ظلّ عكَسَه المصباح الخارجي لسطح مدخل المطعم، حجب عنه النور، فرفع رأسه وعينيه تجاه الحاجب، فإذا بنظره يحدّق في فتاة حسناء، ممشوقة القوام، طويلة القامة، عريضة المنكبين، بارزة الصدر، واسعة العينين الخضراوين، ذات شعر أصفر قاتم مشدود كذيل حصان جَسور، ترتدي سترة جلدية تبرز نصف ثدييها، تكاد مواطن عفّتها تنكشف لقصر تنّورتها ذات اللون الأحمر البرّاق، مع صندال ذي كعب عالٍ، زاد من طول قامتها في انتصاب غير ذي عيب، ذات ثغر بَاسم صغير مدور كأنه خاتم ذهبي لامع من أحمر الشفاه الذي يحيط شفتيها الرقيقتين، ذات وجه ليس بطويل ولا عريض، يتوسطه أنف مدبب رقيق، كأنها آية من آيات الجمال المرسوم الذي لم يخالجه أي تحوير أو تغيير أو عبث لبشر...

دنت المرأة من مراد ببسمتها الساحرة، وسألته ولّاعة تحرق بها رأس سيجارة تداعبها بأناملها الرقيقة ثم تزمّها بين شفتيها الرفيعتين تعتصر مؤخرتها الحمراء... وبلا تريّث، سحب مراد ولّاعته

من جيبه مبادلا الفتاة ابتسامتها التي أنسته همومه وأجلت عنه أحزانه... وأفاق نفسَه من غفوتها محدّثا إيّاها أنّ ساعة الفرج يمكن أن تحين لحظتها الآن لتقلّه من هذا الغمّ والهمّ الذي هو فيه، فهو يعلم أن شكله الحسن وهامته المتفجرة رجولة وفحولة تستهوي النساء... أطرق رأس ولّاعته فأرسلت لسان لهيب انحنت الفتاة صوبه، في حركة مثيرة خسفت بعقل مراد وفؤاده، ثم راحت تستنشق إلى صدرها الدخان لتلمع جمرات الاشتعال في فوهة سيجارتها، ثم رفعت رأسها ناحية السماء زافرة دخانا كثيفا تخرجه من صدرها. إنها محترفة في أكل السيجارة وإثارة غرائز الرجال...

شكرت مراد الذي تلعثم لسانه في الرّدّ عليها، فأطلقت العنان لقهقهة تنبئ عن حالة سكر تعيشها بانتعاش سافر، ماسحة على جبينه بأناملها الطرية الغضّة، سائلة رفقته إذا رغب في سمر معها، فاستجاب بلا تردّد وأبان سعادته بهذا الطلب الذي لم يراوده حتى في أحلامه.

****

النساء الفرنسيات بارعات في استقطاب أعين الرجال وقلوبهم، فالحبّ عندهن محمول في الحقائب، مرسوم على الأوداج والأهداب، وبين السيقان النحيلات المكشوفات يتغذى، وفي الصدور البارزات مخدعه، وعلى قارعة الطريق أسواقه منتشرة، وفي الحانات ودور اللهو وشوارع بيع الهوى ينتشر كطحالب الوديان والمستنقعات، لا يرضيهنّ في ممارسة طقوسه المقدسة إلا بالاكتساح والهجوم الجنسي غير المحدود الذي يغدقن به على عاشقهن ومستهويهن وكل من رغب في كرمهن... لكنْ لهن مَثل شائع : « يبقى الحب ما بقي

المال »، فكل شيء في فرنسا بثمنه حتى الحب... لِمَ لا ؟؟؟ مادام للهواء والماء والموت والبكاء والضحك والثمالة والجوع والعطش والبؤس والخوف والأمان والانتحار ثمن بهذا المكان من الأرض... ففي هذه البلاد كل شيء تطوّر، حتى الكلب تطوّر وأصبح لا ينبح في غريب إن لم يتقاضَ ثمنا لنباحه، والقطط عزفت عن مطاردة الفئران، لأن الفئران لا تجد ما تقتات عليه، فغدت جوفاء عجافا لا تسدّ جوعها، فتعودّت القطط على المواء فقط لطلب وجبتها المفضلة من اللحم المقدّد المصبّر في علب محكمة الإغلاق محفوظة جيدا، تحفظ لها صحتها وعافيتها وتقيها شرور الفئران والجرذان وما تحمله من أسقام... لكن، ومن حظها العثر، أصبحت هذه العلب المصبّرة التي تحتوي أغذية كاملة غنيّة بالفيتامينات مصدرَ طاقة ووجبة جيّدة للمتشردين والبطالين والفقراء والمساكين، فلا ريب أن تندلع حرب في فرنسا بين المغتربين والقطط والكلاب حول أهلية البقاء... لكن البقاء يرجّح لصالح من يا ترى ؟؟؟ أللقطط والكلاب أم للمغتربين ؟؟؟ لا بدّ أن القطط والكلاب ستتحالف مع أسيادها ضد المغتربين... تساؤل محيّر... لا يجيب عنه أحد سوى القطط والكلاب، فهي الوحيدة المأذون لها بالكلام على طريقتها أمام المغتربين الذين لم يبقَ لهم مكان آمن يسعهم موطنا، إلا مجاورة الجرذان في مجارير المياه القذرة والإنصات لأصوات فضلات الفرنسيين – من براز وبول – المندفعة في أنابيب جوفيّة تحملها سوقا إلى شاطئ البحر...

****

ساقت الفرنسية مرادا في طريقها إلى مأواها، وهو يمشي ملتصقا إليها كأنها عشيقته المألوفة والمعاشرة منذ أمد، إنّها تفنّنت في السّيطرة عليه من رأسه حتّى قدميه، يسير معها وهو غير مصدّق

ما يحدث معه، فرحة عارمة اجتاحت نفسه وروحه، أنسته همّ يومه وضيق ليلته... وفي طريقهما إلى المجهول، أدركه بعض الكلام الممزوج بغنج بنات الشوارع الليلية :

– أيمكنكَ أن تعرفني على نفسك ؟؟

– اسمي مراد، غريب عن فرنسا، أبحث عن امرأة جميلة أبني معها حياة وأسرة...

– هههههه... أنت متسرّع جدا يا...

– مراد... اسمي مراد.

– آه يا مراد... أنت لا تعرفني حتى !

– لا يهمّ... يمكننا التعرف على بعضنا البعض على مهل.

– من أي بلد أنت ؟

– الجزائر، وأنت ؟

– أنا فرنسية بالتجنس، منبتي برتغالية، أما أمي فألمانية، أعيش بمفردي، أعمل في صندوق المعاشات كسكرتيرة.

– هل أنت مرتبطة ؟

– أبحث عن رجل مناسب لأرتبط به...

– ما أوصاف الرجل المناسب الذي تبحثين عنه ؟

– حسن الشكل مثلك، فحل وذو مواقف، يستطيع أن يتحملني ويحبني بإخلاص، ويقدر على توفير كل ما أريده.

– هذه شروط سهلة.

– أيمكنك أن توفرها لي ؟

– أكيد، لكن إذا أعجبك شكلي.

- ههه... لا بأس عليك...

- إذن اتفقنا ؟

- لا تتسرع يا رجل... مازال أمامنا وقت طويل...

صمت متوسما إقبال الفرج عليه، فالمرأة أبدت موافقتها المبدئية، وها هي ذي تحكي له قصة حياتها وتتجاذب معه أطراف حديث مشوّق جعله يطمئنّ لها، غير آبه بأي طريق تأخذه رجلاه وإلى أي شارع دخل ومن أين عبر...

وصلت الفتاة إلى حيّ يشبه الحي الذي دخله مراد مع عبد الله مساء ذات اليوم، غير أنّه لم يلتفت له لظلمة حالكة كانت تهيمن على الرؤية الواضحة لأزقته ومداخله وعماراته.

ولج رفقة الفتاة بيتا ذا رواق طويل ينتهي بسور صلب، على جانبي الرواق تتوزع ثمانية أبواب موصدة متقابلة، أخرجت الفرنسية مفتاحا من حقيبتها، فتحت باب ثاني غرفة على اليمين، دخلا سوية، وإذا به يجد نفسه في غرفة مفروشة تحتوي سريرا عريضا يتسع لشخصين، مغطى برداء إلى طرفه فراش، يقابله كرسيان خشبيان وطاولة صغيرة، مع تلفاز صغير الحجم معلق على السور المقابل للسرير، وفي الزاوية اليمنى المقابلة للسرير حمّام مكشوف.

تمددت الفتاة على السرير، ثم انطلقت في ممارسة طقوس عملها الذي تتفنن فيه، مسيطرة بصورة آلية على عقل مراد وعلى قلبه وفؤاده، فانساق بلا تمهل نحو شهوته التي جرفته إلى حضنها، فانغمس يغترف من أقداح حبها، كأنه ثور فك وثاقه منطلقا إلى حظيرة أبقار... حتى أنهكه التعب.

****

سافر في سبات عميق لم يستفق منه إلا على وقع طَرقات قوية صدرت عن باب الغرفة، تلاها صوت خشن كأنه أبواق شاحنة قديمة أو قطار بخاري، بلهجة فيها من الشتائم ما أفقده لذة ليلته الحميمة. نهض مسرعا يفتش عن ملابسه التي ارتداها على عجل، ليفتح باب الغرفة، فهاجمته عجوز شمطاء قريبة من الأرض، رأسها لا يتعدى صدر مراد، هرمة كثيرة الشّحم، كبيرة البطن، غليظة الشفتين، قليلة الشعر كأنها صلعاء، صرخت في وجهه تطرده من الغرفة، مطالبة إياه في ذات الوقت ببذل الكراء ثمنا لليلته التي قضاها بها.

لم يتمكن من استراق جملة مفيدة يلقيها على مسمع العجوز، فقد عاجلته في الدفع والمغادرة كون الغرفة مطلوبة والزبائن ينتظرون خارجا. وما كان عليه إلا أن ركّز على السؤال عن الفتاة التي كانت معه، غير أن العجوز لم تكن تحمل أية إجابة إلا قولها أنها لا تعرفها ولا يهمها أمرها، فهي زبونة كغيرها من الزبائن الآخرين، اكترت الغرفة لقضاء ليلتها، كما أكّدت لها أن خليلها من سيدفع الثمن، وقد غادرت باكرا إلى وجهة غير معلومة.

لم يستسغ مراد إجابة العجوز، إلا أنه حاول إبعاد بهرجتها عن أذنيه، فراح يفتّش في جيوبه عن وريقات الأورو ليدفع ثمن الغرفة، قلّب عنها في كل مكان بملابسه وحتى بالغرفة وتحت السرير وفوقه، لكن بلا جدوى. سلبته الفرنسية العاشقة قلبه وحبّه وماله ووضعته في ورطة هو في غنى عنها، كما ساقت له موقفا لا يحسد عليه.

أحسّت العجوز أن الفتى يريد التنصل منها بالتماطل في الدفع، فأخرجت مدافع لسانها وصوبتها نحوه منهالة عليه بوابل

من الشتائم، مع تهديده بإبلاغ الشرطة، لتُخرج هاتفها الخلوي من بين ثدييها الباليين الكبيرين الجالسين على ظهر بطنها الكبير، وما إن بادرت بضغط أرقام الشرطة، حتى انتهز مراد فرصته وأزاحها جانبا بقوة كادت تفقدها توازنها وتسقطها أرضا، وفرّ هاربا منها، فيما تبعته بصيحاتها وعويلها الذي بلغ آخر الحي...

ركض مراد إلى بعيد، ولما اطمأنّ إلى انعدام سبيلٍ للحاق به من قبل العجوز، اتخذ وضعيته العادية في المشي بين الناس على مهل، ملقيا لوما شديدا على نفسه لما دفعته إلى ما اقترفه من ذنب، وما تلقاه من جزاء ؛ بات ليلته على دفء ما يربو عن 2000 أورو وأصبح على بلاط الطريق، لا قهوة صباحية ولا خبز أو جبنة...

– أين أنتِ يا أمي ؟؟؟ أين هو الخبز الساخن ؟؟؟ أين هي قهوتك الزكية الرائحة ؟؟؟ وا حسرتاه على ما أجرمت... استغلّتني الفاجرة بنت الفاجرة، أخذتني على حين غرة مني... بدّدت أحلامي... لكن... أستحق ذلك، أنا جنيت على نفسي ما حدث لي... كيف لي أن أثق بامرأة تبيع الهوى ليلا ؟! كيف عماني الشيطان عن الصواب ؟! كيف استسلمت لها بسهولة ؟! لكنها كانت جميلة ومغرية... إنها تستطيع أن تسيّر بلدا خلف جَمالها... ما العمل الآن ؟؟؟

بين ندم حالّ ولذة مضت ومجهول ينتظر، سار مراد يومه بين الشوارع والأزقة كتائه في صحراء قفر... حتى أدركه الليل.

****

الوقت يمرّ، الشمس تميل إلى الغروب وهو لم يأكل شيئا منذ الصباح، قدماه تؤلمانه من كثرة ما مشى، لم يصادف عربيا واحدا، فهو لا يعرف أحدا، ولا يعرف حتى أماكن تجوالهم. كان يدقق النظر في كل امرأة تمر به راغبا في لقاء صاحبة ليلته الفارطة... استبدّ به الجوع فهو لم يتحمّل الصّبر على جوع كهذا، فكّر مليّا ومشى كثيرا... طرد عن نفسه كل الأفكار السيّئة... قرّر أن يسعى للحصول على طعام مهما كلفه الأمر، فالبطن إذا خوي كيسه لا يأذن لأية جارحة بالعمل على ما يرام.

دخل أحد المطاعم فطرده خادم من الباب بعد أن طلب منه قليلا من الخبز، ونهره آخر لمجرد أن تعرّف على سمات حاجته من عينيه اللتين ذبلتا جوعا وعطشا... قصد أكثر من خمسة وعشرين مطعما وحانة ومقهى ومحلّا... الأبواب كلها موصدة، فمنهم من يطالب بمقابل الطعام، ومنهم من يردّ بالصمت المطبق، ومنهم من يصرف النظر، ومنهم من ينهره كأنه كلب جائع تسلل خفية ليمتد أنفه إلى طعام مرمي في سلة القاذورات...

أقبل الليل مسرعا والجوع يثني عضلات بطنه الذي بدأ يغرّد محدثا أصوات صياح وأنين. رجلاه تتثاقلان عن حمله... حفت قدماه وعزف جسمه عن الحركة، فركن إلى زاوية مظلمة ذات حائطين اثنين واختبأ هناك يراقب المارّة... يتلذّذ من بعيد في الزاوية المقابلة بمشهد رائع أسال لعابه وزاد من صيحات بطنه، لفئات من الناس يتناولون عشاءهم في مطعم فاخر ذي واجهة زجاجية تأذن برؤية ما يدور في الداخل.

****

بجانب المطعم إلى اليمين، تسكن حاوية زبالة خضراء اللون كبيرة الحجم، تستقبل كل لحظة بقايا السندويتشات التي يرميها كل من سدّت نفسه تخمة الشّبع، كما تستضيف بقايا القنينات البلاستيكية والحديدية والزجاجية لأصناف شتى من المشروبات الغازية والعادية... فهذا رمى كيسا فارغا وذاك قذف بورق بعدما مسح عن يديه وشاربيه بقايا الطعام، وتلك لفّت قضمتين أو ثلاثة من سندويتش لحم وبطاطس بورق ورمته بلطف في جوف الحاوية... تردّد مراد كثيرا، لكن لسان الجوع الصادر من أمعائه أرشده إلى محتوى الحاوية، فهو يراها قِدرا كبيرة تكدّست بأشهى الأطعمة.

بعد ساعة من الزمن خفّ الطريق من مرتاديه، وانتهت ضجة الوافدين إلى المطعم، وفرغت الكراسي، فنظف الخدم الموائد وانطفأت الأضواء الداخلية، ليسدَل الستار الحديدي للباب الرئيسي. أُغلق المحل، فيما بقي باب صغير مفتوحا يسوق الساهرين إلى مدخل حانة تقبع وراء المطعم تفتح الأبواب لزائريها ليلا.

تسلل شيئا فشيئا صوب الحاوية ليقف محاذيا لها، وقبل أن يمدّ يده مفتشا عن الأكياس المنتفخة أو الأوراق المعبأة باللقيمات المتبقية، سبقه قِطّان سمينان قفزا إلى داخلها، وراحا منهمكين في البحث باجتهاد ومواؤهما يتصاعد من قعر الحاوية، كأنهما اختلفا على عظمة أو قطعة لحم أو خبز طري. نهرهما مراد بعنف وشدة، فانزلقا منها وهما حانقان على هذا الغريب المتشرد الذي يريد الاستيلاء على طعامهما. حقيقة أن القويّ يأكل الضعيف في غابة المتوحشين.

قابله القطّان أرضا وهو غامس رأسه داخل الحاوية يفتش بسرعة وقلق، كأنه يبحث عن شيء أتلفه بها أو رماه دون انتباه منه،

والهرّان منهمكان في اللف والدوران حول رجليه في مواء كالضعفاء المرتجين عطفا وحنانا من سخيّ متبرع، ينتظران ما سيجود به عليهما سيدهما من طعام يطفئ نار جوعهما، فيما تسقط يداه المفتشتان أرجاء الحاوية وجوفها - كرجل بوليس يتلمس جسد مجرم خطير بحثا عن سلاح ممنوع أو قطعة مخدرة - على عدّة لفافات ورق عاينها بأنامله كجهاز كشف حراري.

ثلاث أوراق ملفوفة محتواها طريّ مع كيسين معبئين وقنينة عصير حديدية، حملها وهرول مسرعا إلى زاويته التي كان يختبئ بها، وافترش غنائمه فوق الأرض وهو ينهر القطين اللذين لحقا به، يحاول إبعادهما عن طعامه، أكل ما وجد من بقايا الطعام، ما صلح منه للأكل، أما ما لم يصلح من عظام دجاج وشحم خنزير وبقايا سمك فدفعها إلى القطط في صفقة صلح أمضتها معه نظير السخاء الذي بدر منه.

تجرّع الرشفات الملتصقة بقنينة العصير، ثم رماها بعيدا، فأحدثت صوتا موسيقيا في قارعة الطريق الذي بدا خاويا تماما من المارّة. حمد الله تعالى على هذه النعمة التي لم يطلب حمايتها من الزوال، والتصق بسور الزاوية ولفّ يديه حول ركبتيه متفرجا على الثّملين الذي بدؤوا يترامون هنا وهناك على جانبي الشارع محدثين أصواتا وعويلا كالصبية والنساء، منهم من يضحك ومن يبكي، ومنهم من يتبول على نفسه أو على الحائط، ومنهم من تغوّط دون شعور منه أو مبالاة لنتانة رائحته... إنها الخمر تفعل ما تشاء وقتما تشاء بمساجينها.

****

قهر البرد مرادا، فجنبه الذي يفترش الأرض قد تجمد ؛ ما دفعه للتّحمّس بحثا عن قطعة كرتون يتخذها فراشا لأرضية الطريق، وهو ينقم على حاله ومآله، كافرا بوضعيته التي لم يتخيّلها يوما، متذكرا العزّ الذي عاشه سنوات حياته في وطنه وتحت كنف حنان والدته... بكى كثيرا حتى كاد يهلك، وسرح كثيرا حتى كاد يجنّ محدّثا نفسه، مرة يؤنبها، وأخرى يشكو همه لنجوم السماء... ألم يقل عمر رضي الله عنه : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ؟

– لقد عصيتُ الله ونسيته فجزاني بأن نساني. أنا حثالة أقتات على القاذورات بعدما كنت معزّزا مكرّما آكل ما أشتهي وأنام في غرفة واسعة دافئة نظيفة هادئة، أمرح فيها كما أشاء...

إنه يتذكر سريره الذي يراه كخدر أمير من الأمراء، وأكلات أمه كأنها أطباق الملوك... وقد صدق المثل القائل : « لا نعرف قيمة الأشياء إلا بعد فقدانها ».

– لا حيلة لي إلا البكاء والحسرة...

وأطلق العنان لعينيه تذرفان أنهارا من الدموع جرت على خديه حتى ابتلّت الأرض تحت قدميه. بكى لوما لنفسه، لوما لاذعا خانقا قاتلا، لوما لكل كذبة صدّقها، لكل حلم سبح فيه، لكل حقيقة غيّبها عن عقله، فاليابانيون يقولون : « العيون لا ترى ما لا يريد العقل رؤيته »، كما أنهم قد أصابوا في مثلهم الشائع : « من يلحق أرنبين لن يمسك شيئا ».

– يا حمزة وعزيز، مدحتما فرنسا وصورتماها لي جنة، استغلّيتماني وانتهزتما حاجتي وفاقتي وأحزاني وهمومي، غرّرتما بي، شكرتما لي فرنسا وصنعتماها لي أنهارا تجري عسلا بين حدائق

غنّاء فصدقتكما، وأنكرت على بلادي كل ما قدمته لي من خير، أوله الأمن من كل خوف، فلا أهاب شرطيا ولا عسكريا ولا دركيا، بل لي منهم كثير من الأصحاب والأصدقاء... واليوم أهرب من ظل الشرطي وأجزع لسماع اسمه أو صوت صفير سيارته. هربت من الجزائر، هذه البلاد التي ترعرعت فوق أرضها الطاهرة، وتدحرجت بين ثنايا مدارسها وثانوياتها وجامعاتها حتى كبرت وأصبحت متعلّما، فنقمت النعمة وكفرت الخير كله وجازيتها بالنكران لخصالها وعظيم صنيعها وحميد شمائلها... لم يحدث لي يوما أن توسلت للحصول على لقمة أسدّ بها نواح أمعائي، ترعرعت فقيرا ويتيما أنهل من نفقات الدولة ومن مطاعم مدارسها في وجبات ساخنة غنية بالفيتامينات تغذي جسمي، ومن علومها وفنونها تغذى عقلي، والآن... أُنكر الجميل. صبوت للعيش في حضن عدوّ بلادي، صبوت للتشبه بمن كفروا بديني وعقيدتي وهويتي ومسخوها في يوم مضى، ركضت وراء الدنيا وتمنيت السعادة، بينما خلّفتُ السعادة والرخاء ورائي، خلّفتها هناك في أرض الجزائر، وأقسم بالله أني لن أجدها في أرض غيرها ما حييت.

لقد أعطاني الله إشارات بعدم السفر، ردّ إليّ إرث أبي خمسة عشر هكتارا إذا زرعتها فولا أو حمصا أو عدسا كفتني حولا كاملا وأغنتني عن أي سؤال... وها أنذا أقتات من الفضلات أزاحم القطط المتشردة في طعامها. لقد مدحوا لي حقلا كبيرا فطمعت العمل خادما فيه وعزفت عن التمختر ملكا في حقلي الصغير، فتركته بورا.

– يا مراد، لقد قضي عليك، ليس لك أي سبيل لأن تعود

أدراجك، فمستحيل أن نسترد ماضينا، أوراقي سُرقت منّي، شهادتي الجامعية، جواز سفري، من سيصدقني ؟ من سيعذرني ؟ إنني سأصير وجبة دسمة في أيدي البوليس الفرنسي، إذا وقعت بين أيديهم فيا ويلي... إنهم يتلذذون بتعذيب الجزائريين وتذليلهم... لكن، ما العمل ؟؟؟ أين المفر يا ربي ؟؟؟ أأرجع إلى البلاد خاوي الوفاض ؟ أأرجع حتى يضحك على حالي أقراني ومعارفي حتى الثمالة ؟

– أبدا... لن أستسلم... سأواصل البحث عن عمل... وربي لن يخذلني، فهو الرّزّاق العليم، وهو القادر على كل شيء، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

على ذكر الله تعالى وطلب المعونة بدعوات خاشعة خاضعة لمشيئته جلّ وعلا، غفا مراد في سِنة من النوم، استفاق منها مع بزوغ أولى خيوط الفجر تحت زهير محرك شاحنة رمي النفايات وجَلَبة عمالها. فارق مكانه وراح يجرّ ذيول خيبته كقيود كبّلت قدميه، يناشدهما حمله إلى وجهة يجهلها.

****

طلع النهار ودبّت الحياة بالحركة الدؤوبة للسكان الفرنسيين في يوم جديد. قرّر مراد محاولة البحث عن عمل مهما كان شكله ونوعه ومكانه، فدقّ أبواب العديد من المحلات كالحانات والمطاعم والمتاجر، وحتى بعض المؤسسات الصناعية الصغيرة للحرفيين والنّجّارين، وكذا مغاسل السيارات، وورشات تصليح محركات السيارات، ومحلات الحلاقة، وكل ما صادفه في طريقه من مقر مفتوح يستقبل الناس معلقا لافتة على واجهته، إلى أن بلغه المساء بصفرة شمسه...

كاد يفقد أمله في إيجاد لقمة، فهو لا يملك إلا سرواله وحذاءه وقميصه وسترته. تمشى تائها بين الشوارع، حتى هدته رجلاه إلى محل يقبع في طرف المدينة لجزار عجوز تغلبه معدته المنتصبة أمامه وتمنعه من الحركة، كما تمنعه رقبته المتدلية لحيتها إلى صدره من الدوران بخفة. سأله الفتى في تودد عن عمل، فأجابه بسخرية رافضة ؛ فجرّ أذيال الخيبة منزلقا من باب المحل... وعلى بُعد بعض خطوات، سمع نداءً من ذات الجزّار، التفت إليه وإذا به يعنيه ويناشده الرجوع أدراجه إليه.

****

المفتاح الصدئ

« جوّع الكلب يتبعك »

واجه الجزّار مرادا بعرض سخيّ جدا، قبله بلا شروط أو تردّد، فحدّد له مهامه في الحين، وقد انحصرت في صالة السلخ والتقطيع وتنظيف اللحوم الموجودة خلف محل عرض السلع للبيع، إذ كلّفه بعملية التنظيف والكنس ورمي الفضلات من بقايا الأمعاء والأحشاء، مع طرد القطط والكلاب المتطفلة التي تجذبها روائح المبيعات.

هذه الشروط الناصة على المهمة البحتة المنوطة بمراد، يمارسها تحت التجربة أسبوعا كاملا من الاجتهاد دون أجر، مقابل المأكل والمبيت بكوخ خلفي ملتصق بالمحل يضمن من خلاله حراسته ليلا.

عرض لا يناله مراد في أحلامه ! بادر بسرعة ونشاط كبيرين إلى طلب أول مهمة يؤديها، فأمره الجزّار بحمل ثلاث حاويات للزبالة احتوت بقايا أمعاء دجاج وخنازير وغنم وعُجول، وبرغم نتانة رائحتها، فإن أنفه لم يأبه لها، فهو مبتهج لظفره بملاذ آمن ذي أسوار وسقف وفراش، يقيه قسوة الأرض وهيمنة السماء وسخرية النجوم ليلا، فقبل لحظات كان ينتظره ليل كليلة أمس في غياهب حاوية أخرى لا يدري بما عُبّئت ومن سينازعه فيها.

أرشده الجزار إلى مأواه بعد انتهائه من أول مهمة له. خلف المحل حديقة كبيرة في آخرها تمتد أسوار تحوي فيلا لا ترى منها إلا نوافذها الطويلة العالية المدارى زجاجها بستارات بنّية وبيضاء، حديقتها مغروسة حشيشا اصطناعيا ترويه مرشات مائية، كأنها جنة صغيرة. أدهش المنظرُ مرادا، ولكنّ الجزّارَ أيقظه من دهشته بنهره في نبرة تحرّم عليه مدّ بصره مرة أخرى إلى المكان بأسره، متلفظا بعبارات رسمت له الخطوط الحمراء من مغبة الدّنوّ من الحديقة أو من الباب الحديدي المتوسط لسور المسكن الكبير المؤدي إليه.

****

الكوخ الذي سيتخذه مراد مخدعا له، أسواره من آجر أحمر، غير ملبّسة، وسقفه من قرميد أحمر قديم، وبابه خشبي مزموم إلى الحائط بخيط يوارب أثاثه الذي اقتصر على سرير حديدي يسع شخصا واحدا، فرشه خفيف يقرض أضلع من يتمدد فوقه، ووسادته التي اسودّ لونها من كثرة مكوث الأوساخ وتراكمها عليها. نافذته الصغيرة المنخفضة تطل على بيت خشبي جميل الشكل، مطليّ الجدران بالأحمر والأصفر، يأوي كلبا أسودَ طويل الأذنين قاتم العينين قصير الذيل عالي الساقين، تبدو عليه علامات الراحة والرفاهية، إنه جار مراد في المسكن، غير أنه لم يرحّب به، فبمجرد أن اقترب منه نبح نباحا مبحوحا يفسر جسوره وقوّته، وأسكته سيده بالمسح على رأسه بحنان شديد فهدّأ من روعه ومكث قابعا بمكانه، محدقا في مراد من النافذة التي واربها خشية انفلاته من سلسلته المربوط إليها والانقضاض عليه.

بعد ساعة من الزمن، جاءت خادمة سوداء البشرة قصيرة القامة، بآنية من حديد فيها معكرونة مغلية بالماء، وأخرى من فخار محشوة باللحم المفروم مسقية بالحليب الطازج، وناولت الآنية الحديدية لمراد

وغادرته دون أن تحرك لسانها بكلمة، فأومأ لها ظنا منه أنها أخطأت الآنية، فأشارت إلى كلب الجزار. نظر إليه ودهشة المهانة والذل ترتسمان على وجنتيه، فكفر بهذا الطعام ووثب يرميه في فوهة الحمام الذي ابتلعه بصعوبة، بعد مغادرة المرأة السوداء، ليأوي إلى سريره حامدا الله على هذه النعمة... مستسلما في قناعة وصبر إلى نصيبه الذي رضي به كونه مجرد اختبار فقط.

مع مرور يومه الموالي تغيّر الحال شيئا فشيئا وتحسن الوضع بتغير الغذاء إلى بقايا سلطة، فعظام مكسوة ببعض اللحم وخبز ساخن، كما اتفق مع جاره بعد تقديمه بعض الهدايا التي تحصّل عليها من محل الجزار من عظام وبقايا شحوم، حتى اعتاد عليه وصارا صاحبين.

مراد لا يفتأ ينسى تفضيل الكلب عليه من قبل الجزار، كل مرة يجلس فيها أمام نافذة الكوخ يتأمل لون السماء الأسود المزين بضوء القمر ولمعان النجوم وسقوط الشهب تارة، يذهب في حنق وضغينة مكتومة يشتم ويلوم، متمتما بقوله :

– أيها الكلب، أنت عند سيدك خير مني. هكذا أنا الآن أحقر منك منزلة... سعيت لجنّة من أنهار العسل، فغرقت في جحيم الفاقة والفقر والذّلّ حتى أصبحت في حضيض وادي الزبالة... اللعنة على فرنسا ومن بفرنسا... اللعنة على هذا الجزّار الكافر اليهودي... حاشا كلبه أن يكون مثله... اللعنة على حالي وما رضيت به من هوان... ما دمتَ رضيتَ يا مراد فاصمت ولا تتكلم.

غمغم في غضب وحنق... ثم هدأ هنيهة ليشهق شهقة طويلة أجهش بعدها بالبكاء الصامت ذارفا دموع حزن وأسى وقنوط.

****

بعد سويعة مرّت من تلك الليلة القمراء، غطّ في نوم خفيف أيقظه منه صراخ الكلب، الساعة الثالثة صباحا، هرع إلى خارج الكوخ فزعا، فلم يجد في الجوار سوى قط متشرد أثار الكلب المربوط بالحوم حول آنية طعامه يبغي لعقها. طرد عنه النعاس... ولج ثانية إلى مأواه بعد لحظات من التأمل في فضاء السماء الصافية... ثم راح يستغفر مولاه العلي القدير.

فجأة استذكر أن الذي آواه إلى سور زاوية في قارعة الطريق البارحة، يأويه في جوف كوخ من قرميد رث ويستره، كما يمكن أن يهوي به في مكان قحط جدب أو ينعّمه بين ثنايا قصر فاخر غدا... حمد الله واستغفره مليّا، مرتلا أدعيته المأثورة عن والدته وعن معلّميه بالجامع أيام طفولته ومراهقته، وقرّر أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى، وعاهد نفسه أن يصحح مساره مع ربه، فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، فإليه يرجع الأمر كله وإليه المصير.

نظر حوله متفحصا أطراف الكوخ، فلمح دلو ماء وطاسة، ولج الحمّام يحملهما ونزع عنه ثيابه واغتسل ناويا التوبة النصوح التي ليس هناك بعدها رجعة إلى ذنب أبدا، وشكر النعمة التي هو فيها، فبشكرها تزكو وبكفرها تفنى. بعدما فرغ من حمّامه صلّى لله ركعتين خشوعا وتضرُّعا، ليستسلم لنومة ملؤها الرضا بالمكتوب.

مكث سبعة أيام بلياليها منصاعا للأوامر، مطيعا في صمت لكل ما يصدره الجزار من إشارة لممنوع أو جائز، استعبده خلالها مستغلا طاقته وقوته ونشاطه وشبابه، استنفد فيها كل قواه، فأضحى لا يعبأ بزخات السرير ولا بنباح الكلب ليلا ولا ببرودة الأسوار، من شدة التعب، حتى يومه الثامن. أمضى أيام تجربته واختباره كمعتكف مساءه وليله، أو كآلة لا ينثيها عن العمل

إلا قفل التشغيل والإطفاء، لا يشغله عن عمله نهارا وعبادة ربه ليلا وازع ولا يخالجه أي فُتور أو سأم، متشبعا بقناعة ذاتية أن ما يوجد خارج أسوار المحل ليس يعنيه في شيء، و ليس له منه نصيب يرتجيه.

– لقد اجتزتَ الاختبار بجدارة وتفانٍ، وهذا ما كنت أتوسمه فيك يا ولدي منذ الوهلة الأولى، إلا أنني لمحتك ليلة الأمس تمارس طقوسك الدينية التي أطلت فيها الوقوف والركوع والتمرّغ في الأرض، وهذا ما لا أحبذه في بيتي وساحتي، فهذه الممارسات لا تروق لي وهي تجلب النحس وتنقم عليّ معيشتي الرغدة، أفهِمت ؟ عليك أن ترعى نفسك جيدا وتهتم لها، فأنت تتعب كثيرا في النهار وتقوم بعمل جيّد ومتقن لا غبار عليه، لكن يقظتك ليلا ودأبك على ممارسة صلاتك لربك ستتعبك أكثر، فلا أظنك تقدر على تحمل مشاق يومك والقيام بواجبك لليوم الموالي... فمن رأيي أن تغيّر من سلوكك وتتمتع بحياتك، فمازال العمر طويلا أمامك وباستطاعتك التديّن في آخر عمرك مثلي... أما مرحلة الشباب والقوة فهي للعمل والجد وكسب المال والاستمتاع بالحياة فقط... (قال الجزّار).

– نعم... فهمت...

ردّ عليه مراد، ثم استطرد قائلا في نفسه :

– ما هذا الرجل الذي يريد أن يمنعني من الاتصال حتى بربي، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يا لهؤلاء الكفار، لا يجيدون إلا التفنن في جمع المال والاستمتاع بالحياة ! أجل... ولِمَ لا ؟ فهم لا يَعُون حقيقة الدنيا الفانية ولا يؤمنون بأن هناك دار الآخرة تنتظرهم،

فيها حساب وعقاب على ما يجترحون من سيئات، وفيها نار وجنّة. اللهم ثبتنا يارب...

وعقد في سريرته عزمه على التعبد دوما ومواصلة مشواره الديني على هذا النسق مهما كلف الأمر :

– شغلي لن أقطعه مع مولاي أبدا ما حييت، والفاصل بيننا في هذا موعد التحاف الغرفة والفضاء ظلمةً ليلا.

ثم راح يتساءل وهو بصدد حمل بقايا فضلات أمعاء خنزير ميّت لنقلها من المسلخ إلى حاوية القاذورات مارّا برواق يؤدي إلى حانوت اللحوم المهيأة للبيع، عن ديانة هذا الجزار، وهل هو متدين أصلا، حتى انبجس الكيس لتنتشر منه القاذورات محتلة بلاط المحل التجاري، فملأت المكان نتانة ارتقت رائحتها المنبعثة بقوة إلى الأنوف في لمح البصر، فصرخ الجزار في وجه مراد ناهرا :

– ما هذا الذي فعلته أيها الجزائري الكلب... اِلحس هذا الزّبال بلسانك الآن أو نظفه بملابسك وإلا رميتك في السجن أيها المغترب القذر...

هذه العبارات القاسية أشعلت في مراد شرارة الدم الجزائري الحق، الدّم الثائر الذي ثار في 1954 على أمثال هذا الفرنسي المستعمر الذي تلذذ بإسدائه أحقر عبارات الذل والمهانة... لكن هيهات لرجل جزائري حر ابن حر، ترعرع وتربّى في حضن الأرض الطاهرة المخضبة بدماء الشهداء الأطهار أن يرضى لقوله، فنظر إليه نظرة ثاقبة شاخصا فيه بعينين واسعتين احمرت حدقتاهما غضبا، مطبقا حاجبيه، زامّا شفتيه، مثنيا أصابعه فتشكلت لكمة تبدو شديدة وقوية، متأهبا في وثبة هجوم كأسد جاسر يتحين الفرصة لينقض

على فريسته، تراجع معها الجزّار قليلا حاملا ذيل هزيمته وانكساره قائلا :

– لم أكن أقصد الإهانة يا مراد... لكن ما فعلتَه قد نشر الروائح الكريهة في المحل، وهذا ما سينفّر الزبائن من محلّنا وستتراجع مداخلينا، فأنا خائف على أرزاقنا لا غير...

لم يجبه مراد، ونظر في لمحة خاطفة إلى سكّين كبيرة كانت تقابله فوق طاولة تقطيع اللحوم... جال الشيطان في خاطره بفكرة الانقضاض على السكين وغرزه في صدر هذا الكافر، إلا أنّه تراجع ولعن الشيطان الرجيم، ثم انصرف من المكان تاركا الزبالة مرمية أرضا... قصد كوخه ومكث للحظة ثم عاد إلى المحل حاملا سترته التي هي رأس ماله حاليا، قائلا للجزّار :

– أنت مدين لي بثمانية أيام عمل، أريد أجرتي... حالا.

– لا عليك يا ولدي، لا تغضب مني، سأدفع لك بدلها أجرة نصف شهر، المهم لا تغضب مني وواصِل عملك.

– لا أريد العمل معك أيها العجوز المستبد الكافر الكلب ابن الكلب، ألا تعلم من أكون ؟ أنا جزائري حر، أم أنك لا تعرف الجزائريين على حقيقتهم ؟ الموت ولا يمسّ الشّرف قيد أنملة، أتفهم ؟ اعلم جيدا أيها الخنزير أن أمثالك لم يولدوا لإهانتي هكذا...

– انتظر، اجلس ولا تقلق...

– ليس لديّ وقت... أسرع بالأجرة فالوقت يداهمني والليل على وشك النزول... أجرتي وإلّا...

قاطعه الجزّار منفّذا أوامره قائلا :

– خذ 1500 أورو أجرة شهر كامل.

استلمها مراد ونبرة الغضب تعلو وجنتيه اللتين بدتا حمراوين، عدّها ثم رمى 500 أورو أرضا قائلا :

– لا آخذ من وغد مثلك إلا حقي، ولك عليّ هذه جزاء ما فعلت...

استدار كأنه متوجه صوب الباب ليغادر المحل، ثم وثب ملتفتا في الحين، موجّها لكمة قوية إلى وجه الجزّار أردته طريح الأرض، وخدّه منغمس وسط الفضلات التي سبّبها الكيس الممزّق، يمسك نصف وجهه الآخر صارخا : « آي، آي عيني، لقد فقأ عيني... ».

انصرف مراد من المحل بلا تمهُّل، مهرولا، وغاب بين الأزقة المقابلة، فيما اتصل الفرنسي الجزّار فورا بشرطة الطوارئ التي حضرت في الحين، وبعد سماعها شكواه انطلقت منتشرة في الاتجاه الذي سلكه مراد بحثا عنه.

****

المحطة الأخيرة : القطرة التي أفاضت الكأس

(الشيخ الحكيم وحقيقة رؤيا نداء الأم والوطن)

سار مراد غير بعيد عن الجزار، ودخل إلى مطعم يبتاع مأكولات خفيفة، فاقتنى سندويتشا وقنينة ماء اصطحبهما في كيس أسود إلى حظيرة اجتمعت فيها المركبات غير الصالحة للاستعمال في انتظار عجنها وإعادة تصنيعها، وبحث له عن مكان يأوي إليه لقضاء ليلته. لقد تعوّد على حياة المتشردين وأصبح بإمكانه تدبّر مبيته ومأكله ومشربه بسهولة. فتّش مليّا بين السيارات ؛ فهذه لا تحتوي على مقاعد، وأخرى مكسورة الزجاج، وثالثة ليست لها قاعدة، بحث جيّدا مع تجوال عينيه في الأرجاء خشية أن يصادف حارس الحظيرة أو أحد اللصوص... عثر في مسعاه الحثيث على قضيب حديدي اتخذه سلاحا يذود به عن نفسه، وواصل تجواله في أروقة الحظيرة كأنه مالكها، يتفقد بضاعته وما نقص منها، ووجد أثناء ذلك أفرشة مغبرة مسّها التآكل من جانبيها، نفض عنها الغبار ولفّها تحت إبطه ليصطحبها معه.

بعد فترة من البحث والتحري اهتدى - في زاوية من زوايا الحظيرة المتاخمة لوادٍ ممدود في طرفها النهائي - إلى حافلة حُملت

قاعدتها على سبائك حديدية، كونها مجردة من العجلات، زجاج نوافذها مكسور، بعض كراسيها محروقة وأخرى لا تستر هيكلها ؛ فولجها متفحصا مقاعدها الواحد تلو الآخر، وسرّه سلامة الخلفية الأربعة المصطفة الملتصقة بعضها ببعض، إنها تناسب طوله جيدا، كما يمكنه أن يمدد جسمه عليها ويقضي ليلته بها. افترش جزءا من الأفرشة الملفوفة، واتخذ الباقي الآخر رداءً يقيه البرودة وصقيع الليل. التهم طعامه وشرب الماء حتى ارتوى، ثم توضأ وصلّى في مكان نظيف قرب الحافلة متخذا باطن سترته سجادة له.

جلس مع نفسه يفكّر في ماضيه بالجزائر وماضيه بفرنسا، بحاضره في الحافلة ومستقبله الذي ينتظره غدا... تذكّر والدته ونورة وصديقه سعيد، تذكّر كل شيء مرّ به كأنه مازال يعيش هناك أو كأنه يشاهد شريط فيلم سينمائي لروايته... ومع هذه الذكريات التي لم تحمل طيّها أية بشرى أو مسرّة، جاء النعاس مهللا، واكتسح جفنيه فاستسلم له، ليتمدد في فراشه معانقا قضيب الحديد الذي نام بجنبه، وغطّ في نوم غير مريح تصطحبه فزعات من حين لآخر سبّبها صخب كلاب متشاجرة مع أسراب قطط، أو خشخشات جرذان جائعة في الجوار.

****

في غسق الليل المظلم الذي كلّما زاد السكون من حدته زاد من سواده المعزّز بسطح الحافلة الذي زاده قتامة، أحسّ مراد أن شيئا صعد الحافلة متجها نحوه، وسمع صوتَ زفير يقترب إليه، مقرونا بشخير ولَهَث، فتسمّر مكانه ولم يجسر على الحراك، يتحين الفرصة السانحة ليرمي عن وجهه سترته التي غطّى بها رأسه لاكتشاف هذا

الخطر المحدق به، متهيئا للدفاع عن نفسه والذود عن حماه بما أوتي من قوة، ممسكا بقضيبه الحديدي، مستجمعا قواه وتركيزه.

دقّت اللحظة التي شعر فيها أنّ الزفير قد بات دانيا من جسمه، فانتفض عليه صارخا بأعلى صوته، موجّها ضربة قويّة وقعت على رأس كلب تتبَّع خطى رائحة الطعام الذي التهمه مراد عشاءً له. فرّ الكلب مسرعا يعوي، فيما تبعه ناهرا زاعقا والخوف الرهيب يعتصر قلبه حتى كاد يفقد صوابه... ليعود أدراجه إلى فراشه بعدما أغلق بقايا باب الحافلة الأمامي بهيكل أحد الكراسي... ثم هدأ إلى ركنه مسندا ظهره إلى مقعد من مقاعد مؤخرة الحافلة، غير ممدّد الجسم، ليعاوده الزيارةَ إحساس الوحدة المشحون بالأسى على نفسه والحزن المقرون بالإشفاق على حاله وما هو عليه ؛ فاستسلم مرة أخرى لدموعه لتخفيف حدّة آلامه وضيقه، وأخذ يناجي ربه بصوت مسموع :

– يا ربي ماذا فعلت حتى أنال كل هذا ؟؟ إن كنتَ غير راضٍ عليّ يا ربي... فاقبض روحي إليك وارحمني من عذاب هذه الدنيا...

ثم أجهش يبكي بكاءً شديدا بلغ صداه مسامع الحيوانات التي كانت تسرح في ساحة الحظيرة، غير آبهة لما ألمّ به من أحزان، كما أنها لم تزعجه وتركته لحاله كأنها فهمت كنه بكائه المرير وعمق جرحه النازف.

على وقع شهقات خانقة هدأت أنفاسه رويدا رويدا، فانغمس في نوم غير قرير الطرف آخر الليل، أفاق منه مع سطوع شمس الصباح التي تسرّبت من إحدى النوافذ المكسورة، مدقدقة على جدار جفنيه

اللذين انفتح حاجباهما بصعوبة بعدما ألفت حدقتا عينيه نورها الوضّاء ؛ رتّب نفسه وارتدى سترته، مغادرا نزله بالحافلة المهترئة، منزلقا من الحظيرة باتجاه أقرب كافتيريا لتناول فطور صباحه.

****

بصحبة فنجان قهوة ساخنة ذات سكر قليل، ارتشفه مع سيجارة ناعسة غير مرتبة... فكّر مليّا في والدته، اشتاق لها كثيرا، خامره شعور جارف بالحنين إلى وطنه، أحس الاغتراب سنوات طويلة بالرغم من قضاءه ما لا يربو عن أربعين يوما فقط... وعقد العزم أخيرا على الاتصال بالدار لطلب العون بالدعاء من أمه، فتهيأ باحثا عن هاتف عمومي... غذّى الآلة ببعض النقود ورقن بسبابته أرقام هاتف المنزل بعد الرّقم الدّولي للجزائر : 00213.

رنّ الهاتف مرة واثنتين فثلاثة وعشرة... وليس هناك مِن مجيب. الساعة الحادية عشر والربع بتوقيت فرنسا، أي العاشرة والربع صباحا في الجزائر ! كرّر مرّات النداء الهاتفي حتى تعبت سبّابته، فاعتراه القلق وبدأت أعصابه تنقبض، وحنق قليلا قائلا :

– حتى أنتِ يا أمي، في أوج لحظات اشتياقي لك وحاجتي إلى حديثك ودعواتك تغيبين عنّي منشغلة بأشياء أخرى، أين أنتِ يا غالية ؟ بالله عليكِ ردّي عليّ...

سئم تكرار رقم هاتف البيت، فغيّر مسار اتصاله إلى بيت شقيقته مريم، فالأم من عادتها زيارتها في الأسبوع ثلاث مرات أو أربع، تقصدها للاستئناس بها والتخفيف من حدة وحشتها وحنينها إلى ابنها. رنّ الهاتف ثلاث رنات وفي نصف الرابعة تلقى صوت شقيقته التي فرحت كثيرا لسماع صوت أخيها الصغير... لكنّها ما فتئت أن

حدثته والدموع تحشرج صوتها وتمنعه من الوصول مرتّبا إلى آذان مراد الذي أصغى له بكل جوارحه :

– أخي العزيز... يجب أن تأتي فورا لتلقي نظراتك الأخيرة على والدتنا المسكينة...

– ما بها ؟ ماذا أصابها ؟؟؟ وأين هي الآن ؟ إن كانت عندك ناوليني إياها لأتحدث إليها...

– الغالية لا تحرّك ساكنا، إنها لا تفتح جفنيها إلا على اسمك، ولا تنطق شفتاها إلا منادية به...

– هل أخذتموها إلى المستشفى ؟

– نعم، وقد يئس الأطباء والمختصون من حالتها، فهي لم تأكل أو تشرب منذ ثلاثة أيام وما قولها في ليلها ونهارها إلا كلمة مراد... مراد... مراد...

سكت مراد، حتى خافت أخته أن يكون قد أغمي عليه، فنادته قائلة :

– مراد... أخي... رد عليّ إن كنت تسمعني...

– أنا سبب ما هي عليه الآن... أعرف ذلك، وأنا متأكد منه... (قال مراد).

– لا تقل هذا يا أخي، لكنها اشتاقت إليك كثيرا... والمرض ابتلاء من الله... أنت لم تفعل لها أي شيء ولم تؤذِها، فلِمَ تلوم نفسك على قضاء الله ؟

– أنا أعي ما أقول... المهم... أخبريها أني سأوافيها في أقرب الآجال...

– عليك بالإسراع يا أخي... فحالتها لا تبشّر بمستقبل آجل لها...

– ألهذا الحدّ هي مريضة ؟!

– وأكثر من ذلك يا مراد.

– ألقاكِ قريبا... لكن قبل أن أنهي المكالمة... أوصيك أن تبلغيها سلامي الحار والتمسي لي عندها العذر، ونبئيها أنّي سأكون بين يديها في أقرب فرصة إن شاء الله...

****

انتهت المكالمة وسكتت كل أصوات البشر والسيارات والشاحنات والحافلات، وكل ضجيج بالمدينة عن التسارع في الولوج إلى آذان مراد التي صمّت، فيما اعتلى صوت ضميره كرسيّ عقله وانطلق لسانه يهذي كالمجنون مؤنبا نفسه، ملقيا أثقال اللّوم بما رحبت على كاهله، مستدركا عظم الذّنب الذي اقترفه في حق والدته، وما أرداها فيه من سقم... حكم على نفسه بالكفر... حكم عليها بالجحيم في الدنيا والآخرة إن هلكت الوالدة، فهو العارف حقّ المعرفة شأن الأمّ في الإسلام وما أخبر به محمد رسول الله ﷺ عنها موصيا : « الجنة تحت أقدام الأمهات ».

فراح يردّد قائلا بصوته المسموع غير المفهوم الذي شدّ انتباه نيف من المارّة أمامه :

– هجرتُ جنّة حقيقية متّعني وأنعم عليّ الله بها، حجبتني أطماع نفسي وطموحاتي الواهية عن إبصارها... وفررت منها إلى جنة زائفة، الجحيم شرابها، السعير رداؤها، الصقيع فراشها، عذاب الضمير هواؤها، الحسرة عنوانها، الدمع أنيسها، الحزن كساؤها،

الخيبة طعامها، والانتحار رومها... جنيت على نفسي فقدان ذاتي وضياع روحي... وها أنذا أرى أعزّ وأغلى ما أملك يكاد يغادرني بلا رجعة...

جزم المنتبهون والملتفتون إلى مراد، أنه شابّ خبل عقله وسكنت شياطين الجنّ الشريرة روحه فأفقدته صوابه، متحسّرين على حاله البائسة، وهو لا يلقي لهم بالا، ماضيا في بكائه بلا دموع بعدما جفّت ينابيعها... وارتمى على كرسي الحديقة العمومية التي التقى فيها، قرب المطعم، الفتاة الفرنسية التي سلبته ماله بعد قضاء ليلة حميمية معها.

****

كطير مكسور الجناح، رفع مراد ركبتيه راكنا قدميه إلى ردفيه، رابطا على ساقيه بذراعيه، حانيا رأسه بين رجليه... غاب عن الدنيا التي ضاقت عليه آفاقها... يتحدث إلى نفسه تارة، وتارة أخرى يرفع رأسه ويمدّ رجليه أرضا سارحا فيما حوله، وآثار الحزن والدمع الجافّ المغرورق بين حدقتي عينيه يغمرهما، عازفا عن الانهمار، كصبي شارد تائه ينتظر من يرأف به ويأخذ بيده إلى برّ الأمان، أو كعصفور سحبته نسمات الرياح من عشه فهوى أرضا، يزقزق باكيا يناجي أمه، يتأوه تحت زخّات المطر ألما من الكسر الذي طوى جناحه. مكث قابعا بالكرسي طول النهار، ناسيا أنين معدته وجوع أمعائه التي فرغت من هضم طعام الليلة الفائتة.

امتلأت الحديقة العمومية عن آخرها بالزوار من عائلات وأطفال وشيوخ وكهول وعشاق وسائحين، ومراد ماكث مكانه غير مبارح، ينتظر قطار القدر لهذا المساء ليقله إلى والدته العزيزة ويرمي به

بين أحضان وطنه المفدّى الذي يراه جنّة حقيقية خلّفها وراءه من يوم ركب البحر.

بعد السادسة مساءً بقليل، ها هي ذي النفس المكسورة لوما وتأنيبا تعود به إلى أرض الواقع، لينتشل جسمه من رماد الحسرة والندم مرتقيا رجليه اللتين ساقتاه إلى واجهة مطعم ابتاع منه سندويتشا وزجاجة عصير اقتادهما إلى مكانه بكرسي الحديقة.

****

همّ بكشف الستار الورقي عن الخبز المحشو بالبطاطس وبعض أوراق السلطة والبيض المسلوق، ومع التهامه القضمة الأولى انتبه عن يمينه إلى شخص ينظر إليه في تأمل، فالتفت إليه مستكشفا، فإذا به يرمق شيخا طاعنا في السّنّ غير واهن الجسم، ذا لحية بيضاء مسدلة الشعر، يرتدي قبعة صفراء عربية الأصل، أحمر الوجنتين ذا وقار وهيبة، مجعّد الجبهة، رثّ الملابس، ارتسمت على وجهه بسمة مناديةً مراد أن يدنو من صاحبها في احترام واطمئنان.

دنا من الشيخ متأملا ملامحه التي لم تكن تبدو غريبة عنه، كأنها مألوفة لديه، بينما صافحه وساق إليه سلام المسلمين، وجال بذاكرته يستردها علّه يعثر في ثنايا صفحات أيامها أو في فهرس كتبها الغابرة على صورة مطابقة للشيخ الذي بدت عليه سمات رجل حكيم له باع من التجارب في الحياة.

رد الشيخ سلام مراد بلغة عربية فصيحة أثلجت صدر الفتى، فهو لم يتحدث إلى عربي منذ تفارق مع عبد الله في هذا البلد الأجنبي القاسي على زائريه.

اقتطع قطعةً من خبزه، ناولها الشيخ الذي قبلها بنفس البسمة، ثم دار بينهما هذا الحوار :

- أنت طيّب ونيتك بريئة، لكنك تتألم كثيرا...

- لستُ كذلك يا عم... فوالدتي تصارع الموت بسببي...

- هههههه... إذن أنت شاب صالح...

- من أين لي بالصلاح ؟ وأنا هنا في هذه الغربة المشؤومة بهذه المدينة البعيدة عن وطني تاركا والدتي تصارع الموت، وتقول صالح ؟؟ من أين لي بالصلاح وقد فررت من بلدي ومن أمي ؟!

فقال الشيخ وهو يرسم علامات الرصانة والحكمة المقترنتين بالصرامة والعزم والجدية في الحديث الذي هو بصدد توجيهه له، فألفت مراد كل انتباهه، كأنه يترقب حلا يفضي إلى تنوير سبيله لطريق الخلاص من عذابه :

- انظر يا بني... أنت في بلد أجنبي يسمونه الجنة الموعودة، أجل هنا تتجلّى معالم الحياة الأبدية بالنسبة للبعض، تستطيع أن تغترف من أنهارها الجارية عسلا مصفى، عسلا كالذي تصنعه النحلة المقتاتة على رحيق الزهور، من أنهارها التي تسقي كل شيء، فتبعث فيه الحياة التي تريدها وتصبو إليها كل نفس ترنو أن تعيش سعادة أعدمت فيها الضوابط الأخلاقية والدينية، لا غالب فيها ولا سائد إلا الرغبات والشهوات من مال ونساء وبنيان وأسفار ومأكل ومشرب، ملذّات لن تشبع منها النفس أو تكتفي أو تقنع إلا بمواراتها تحت التراب...

وصمت قليلا يسترجع أنفاسه ثم واصل كلامه :

- يا ولدي... هذه البلاد تعطيك وتمنيك وتحقق أمانيك إذا وافقتها وسرت فيها بشروطها... وشروطها لو وعيتها لما تجرأت على التفكير في مبارحة أرضك ولما جسرت على مغادرة باحة والدتك...

– وما هذه الشروط ؟ لقد جرّبت كل شيء فيها فلم أفلح في واحدة... بل خسرت كل شيء، حتى نفسي أكاد أفقدها !

كفّ الشيخ عن الكلام هنيهة، ممسكا لحيته بأنامله يمشطها، حتى بدأت وساوس الشك والقلق تراود مرادا وتساوره، لينطلق في الكلام من جديد قائلا :

– أن تعدم سجيتك ومن تكون وتلبس ثوبه مهما كان...

أن تعيش بحلال أهله حسا ولمسا وذوقا حتى وإن كان حراما عليك...

أن تكفر بأصلك وتنكر ذاتك وتؤمن به أصلا لك وتذود عنه بروحك...

أن تذبح ضرع صباك وتبتر حبل أمك وما فطمتك عليه، وتحيي روح خليلتك تصلى رحيقها حتى وإن كان من عنب خامر...

أن تمجد المادة وتعبدها وتنكر دارا لك ولذريتك غير ذي الدار...

– لكن... انتظر... انتظر قليلا...

استوقفه مراد، غير أن الشيخ الحكيم قاطعه ليواصل كلامه :

– إذا لم تلتزم بهذه الشروط وحاولت – حيلةً أو مروءةً أو تعنتا – احتساء رشفة من هذا النهر الجاري عسلا، فاعلم يقينا أنك لن تجد فيه طعم العسل، بل ستلقى طعمه مِلحا أجاجا لن يبارح مذاقه لسانك ما بقيت هنا، وليس هذا فقط... بل قد يعصف بك ثعبانه القائم على حراسته، في مكان سحيق تخسر معه نفسك وروحك، ولا تنتظر من الدنيا إلا مفارقتها.

– آه... تذكرت... نعم تذكرت الآن أين سمعت هذا الكلام... أيها الشيخ... أنت الذي...

****

قاطعته عن الكلام يد عريضة أمسكت كتفه، أصدر صاحبها أمرا بإظهار الوثائق لتعريف نفسه...

التفت مراد ناحية الصوت الآمر، ليتعرف على صاحب هذه اليد المتكلم بالفرنسية، يريد منه استظهار وثائق هويته، فإذا به يجد نفسه أمام مصيره المحتوم... اندهش مستسلما للورطة التي آل إليها ترحاله وتجواله فرارا منها، ملاذه الأخير للخلاص هو الهروب إلى نقطة بدايته، إلى أرض الجزائر الحبيبة، وإلى صدر أمه العزيزة المريضة... إنهم رجال الشرطة يلقون عليه القبض.

مع وقوفه من مكانه بأمر من الشرطي الذي أمسك بذراعه، التفت خلفه لتوديع الشيخ الحكيم وشُكره على نصحه وعلى الطريق الذي أناره له أخيرا، فإذا به لم يجد شيئا... اختفى الشيخ مغادِرًا إلى حال سبيله، لا أثر له، إلا ما ترك لمراد من حقيقةِ واقعٍ عاشه في أيامه الأربعين بجنّة الاغتراب ذات أنهار العسل المرّ.

تـمّت

أنجز طبعه على مطابع
chihab print - باتنة -